حوار الأديان
في القرآن الكريم
(إشكالية الحوار وآفاق التواصل)

الـــكـــتـــاب: **حوار الأديان في القرآن الكريم** (إشكالية الحوار وآفاق التواصل)

تـــألـــيـــف: الشيخ عارف هنديجاني فرد

نـــشـــر: جمعية القرآن الكريم للتوجيه والإرشاد - لبنان

الـطـبـعـة الأولـى: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

جميع حقوق الطبع محفوظة

حوار الأديان
في القرآن الكريم
(إشكالية الحوار وآفاق التواصل)

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهداء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَاخْصُصْ أَبَوَيَّ بِأَفْضَلِ مَا خَصَصْتَ بِهِ آبَاءَ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَأُمَّهَاتِهِمْ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. اللَّهُمَّ لاَ تُنْسِني ذِكْرَهُمَ فِي أَدْبَارِ صَلَوَاتِي وَفِي أَنىً مِنْ آناءِ لَيْلِي، وَفِي كُلِّ سَاعَة مِنْ سَاعَاتِ نَهارِي. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَاغْفِرْ لِي بِدُعَائِي لَهُمَا، وَاغْفِرْ لَهُمَا بِبِرِّهِمَا بِي، مَغْفِرَةً حَتْماً وَارْضَ عَنْهُمَا بِشَفَاعَتِي لَهُمَا رِضَىً عَزْماً، وَبَلِّغْهُمَا بِالْكَرَامَةِ مَوَاطِنَ السَّلاَمَةِ. اللَّهُمَّ وَإنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لَهُمَا فَشَفِّعْهُمَا فِيَّ، وَإنْ سَبقَتْ مَغْفِرَتُكَ لِي فَشَفِّعْنِي فِيْهِمَا، حَتّى نَجْتَمِعَ بِرَأْفَتِكَ فِي دَارِ كَرَامَتِكَ وَمَحَلِّ مَغْفِرَتِكَ وَرَحْمَتِكَ، إنَّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَالْمَنِّ الْقَدِيْمِ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

اللهم إنهما ربّياني على حبّ أهل بيت نبيك، وسعيا جهدهما لتأصيل ذلك في قلبي، وأنارا سبيلي بذكر أنوارك، وعمدا إلى توعيتي بمعرفة أعداءك.. إلى من أوصاني بهما ربي (جلَّ اسمه) حيث قال: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾ أهدي ثواب هذا الجهد المتواضع عسى أن ينفعني به الله تعالى حين ألقاه فهو ثمرة تربيتهما وجهدهما، وإليهما أقول: لم يذهب تعبكما ضياعاً، وأتمنّى أن أكون عند حسن ظنّكما بي بالإلتحاق بالأبرار ومرافقة الأنبياء في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وأقول: ربّي ارحمهما كما ربّياني صغيراً.

وأرجو من الله أن يتقبل هذا الإنجاز الصغير إنه خير مسؤول ومجيب.

الشيخ عارف هنديجاني فرد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا ونبيّنا محمد وآله الطاهرين.

إنّ التدبّر في كتاب الله تعالى يكشف لكل ذي لبّ أن الحوار هو الحقيقة الظاهرة في آيات الله تعالى، وهذا الحوار يتكشّف في الخطاب الإلهي مع جميع الكائنات؛ فالله تعالى هو الخالق وهو المدبّر، وهو الهادي، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]. وممّا لا شكّ فيه أن إعطاء الخلق يستتبع إعطاء الهدى لعلمه تعالى بما خلق وقدرته عليه، وإحاطته به.

وانطلاقاً من ذلك، نرى أن الحوار في القرآن هو مما تقتضيه حقيقة الخلق والهداية وخاصة مع الإنسان، الذي هو خليفة الله في أرضه، والذي استحق أن يكون موضوعاً لخطاب ربّه، وقد خوطب هذا الإنسان بما هو عبد لله تعالى وخليفته في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ...﴾[2]. ولهذا فإنّ مقتضى كونه خليفة أن يكون أهلاً لهذا الخطاب، وموضوعاً للحوار على النحو الذي يميّزه عن سائر ما خلق من الكائنات، ويمكّنه من القيام بشؤون الخلافة، وتحقيق الولاية بحيث لا يكون للشيطان سلطان عليه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾[3].

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٣) سورة النحل، الآيتان: ٩٩ـ ١٠٠.

وهكذا، فإنّ الحوار في القرآن، وهو أكثر ما يتظهّر في مجال العبودية، يدلّل على أن الإنسان في هذا الحوار ليس منعوتاً بشيء، بمعنى أن الخطاب معه بما هو إنسان غير موصوف بصفة، ولا محدود بحدّ، بل هو الإنسان الذي خُلق ليكون عبداً لله بما خصّه به من عقل وإرادة وحرية، وغير ذلك مما يميزه عن عوالم الوجود، فهو الإنسان الذي سُخّرت له السماوات والأرض، وجعلت له الأرض ذلولاً ليمشي في مناكبها إلى غير ذلك مما انطوت عليه آيات القرآن من خصائص ومميزات كاشفة عن ماهية هذا الإنسان ودوره في عالم الوجود، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ...﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٢]، وغيرها من الآيات الكاشفة عن حالات الإنسان وتحوّلاته النفسية والعقلية والوجودية، ويكفي أن نشير هنا إلى ما تدلّ عليه آية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[٣] إذ هي تستبطن ما يكتنف حالات الإنسان من تحوّل وتبدّل في نفسه وواقعه، فضلاً عما ترمز إليه هذه الجدلية من علاقة مختلفة مع ما يحيط بالإنسان من عوالم هي أيضاً لها من التأثير على الإنسان ما يجعله أكثر فعلاً في جدليته ليكون أكثر تحولاً وتبدلاً في سياق ما يعيشه هذا الإنسان ويتفاعل معه، سواء أكان هذا التفاعل مع بني نوعه، أم مع الكون الذي يحيط به ويتأمل فيه.

إنّ القول بأن القرآن ينطوي على أطروحة حوار يتكامل فيها الإنسان، إنّما نقصد به حقيقة ما يتضمنه هذا الكتاب التشريعي، التدويني، من حقائق تعكس الكتاب التكويني وتتحدث عنه على النحو الذي يظهر معنى التكامل. إن لم نقل التماهي بين كتاب التكوين وكتاب التشريع، باعتبار أن ما ينطوي عليه كلا الكتابين هو آيات الله تعالى التي لا يأتيها الباطل من خلفها ولا من بين يديها. فكلها آيات بالحق أنزلت وبالحق نزلت، كما قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.
(٢) سورة التين، الآية: ٤.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٤.

وَنَذِيرًا ﴾[١]، فالكون كله آيات الله تعالى، وهي آيات لا تنفد، وكل ما في هذا الكون من تكوين وتشريع ينطق بالحق ويسبّح بحمده، وقد أراد الله تعالى أن يكون الحوار في الأديان وبينها تسبيحاً، وكلمة يهتدي بها الإنسان إلى توحيد الله تعالى قولاً وفعلاً... كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ ...﴾.

لذا، فإنّ ما نؤسس له في هذه الدراسة هو محورية الإنسان في الآيات المباركة، الإنسان الخليفة الناطق بالحق، والقائم به. وإذا كان ثمّة معنى للإنسان، بما هو إنسان موصوف باليهودية، أو بالمسيحية، أو بالإسلامية، فإنّ ذلك يمكن فهمه في سياق الوصف الظاهري للإنسان. أما جوهر الوصف، فهو الذي ينطوي عليه الإنسان من مكنون إلهي يعبر عنه في انتمائه إلى الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ ﴾[٢].

وهكذا، فإن حقيقة التمظهر إنّما تكون في العبوديّة، وليس فيما يتّصف به الإنسان من صفات ظاهرية يكتسبها من صياغات وتحولات إنسانية وتاريخية، فالنسبة الحقيقية هي لله تعالى. في حين أن التمظهر الديني الذي يصنّف الإنسان ويسمه بميسم الإسمية على نحو ما ألفه الإنسان في انتماءاته الدينية، وتفاعلاته الإنسانية، فهذا كله له معناه الظاهري، ولا ينبغي أن يكون الإنسان مستغرقاً فيه ليجعل منه إنساناً مختلفاً عن أخيه الإنسان، أو مانعاً له من التحوّل في عبوديته ليكون إنساناً كادحاً إلى ربّه. ولا شكّ في أن ما يدلّ على هذه الحقيقة، هو أن النبوّة لم تأتِ لإحداث التمايز في الانتماء، وإنما جاءت لتحقق العبودية، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾[٣]، فهذا هو خطاب النبوة في لسان رسالتها، وعلى مستوى حركتها التاريخية، باعتبار أن الدين واحد، وهو الإسلام بما

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

هو تسليم لله تعالى، وتصديق به، وتوحيد له، ولهذا نجد أن خطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[١]، يكشف عن معنى التفاعلية في سياق العبودية وليس في سياق الوصفية الظاهرية التي غالباً ما يتلبّس بها الإنسان، عن قصد، أو عن غير قصد، ليتمايز في ضوئها، ويسكن إلى بريقها، خلافاً لمقتضى العبودية التي هي غاية الخلق، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[٢].

فالنبوّة في زمانها وتاريخها، وفي ما حققته من تجارب، لم تأخذ الإنسان إلى دائرتها الخاصة ليكون عبداً لهذا النبي أو ذاك، وإنما أثارته ليكون عبداً لله تعالى، وهذا ما نفهمه من دعوى عيسى إلى الملكوت، ومن دعوة رسول الله محمد إلى التحقق بالإيمان والعمل للفوز بالرضوان والجنان، وهذا هو مقتضى الإيمان الإبراهيمي الذي ننتمي إليه جميعاً بغضّ النظر عن أوصافنا وأحوالنا وتمظهراتنا الدينية والإنسانية. إنه الإيمان الجامع الذي عنونه إبراهيم بقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[٣]. ولا شكّ في أن الانتماء إلى هذا الإيمان، هو انتماء إلى السماء بكل ما يقتضيه هذا الانتماء من تحولات إنسانية وإجتماعية وسياسية، وقبل ذلك من تحوّلات دينية أُريد لها في كثير من الأحيان أن تكون تعبيراً عن طقوس وشعائر مجرّدة عن الحق والمنطق، وقد ردّ عليها القرآن الكريم بما لا يبقى لها من شأن أو اعتبار، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾[٤]، فمن أين يكون هذا الإيمان صادقاً، وهذا الانتماء قائماً فيما لو كانت الدعوة قائمة على زعم موهوم، أو على باطل معهود. فالانتماء إلى إبراهيم هو انتماء إلى الحق، وليس بعد الحق إلا الضلال.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

وعليه، فإنه لا معنى لأن يكون الحوار في الحق، أو عليه، وإنما يقتضي الحق أن تكون معه، سواء أكنت تنتمي إلى اليهودية، أم إلى المسيحية، أم إلى الإسلام، فكلها أسماء تحققت بالإيمان في تاريخها، وكانت النبوّة سبيلها إلى الله تعالى رغم اختلاف الشرائع، وتمايز الطرائق، وهذا كله لا يضير الإيمان وجوهر الانتماء، لأنه التزام بالشِّرعة والمنهاج كما جاء بها النبي. وإذا كان من سبيل للاختلاف؛ فلا ينبغي أن يكون الدين موضوعاً له، لأن الفطرة دليل هذا الدين، وسبيل هذا اليقين، وجوهر هذا الانتماء، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ...﴾[١]. وهذه الشهادة الصادقة من بني آدم ليس لها إطار مذهبي، أو طائفي، أو عصبي، أو غير ذلك مما أريد للإنسان أن يتمايز به في تاريخه الإنساني والديني.

إن حوار الأديان في القرآن منطلقه الدين بما هو إسلام لربّ العالمين، كما جاء به الأنبياء، حيث دعوا جميعاً إلى عبادة الله تعالى، هذا فضلاً عمّا ينطوي عليه هذا الحوار من قبول، أو نقد، أو رفض، ويكفي أن يكون هذا الحوار مجسّداً لحقيقة التواصل الإنساني، ومعترفاً بالخصوصية والتمايز، ومقرّاً باختلاف الشرائع والمناسك[٢]. وهذا إن كان يدلّ على شيء، فإنّه يدلّ على ما لهذا الحوار القرآني في إطار الرؤية الدينية من معنى إنساني يلحظ تعدّدية الإنسان وتنوعه فيما ينتمي إليه ويسوّغه لذاته في إطار عبودية الله تعالى. فالحوار في القرآن، كما نلاحظ في سياق الخطاب القرآني، هو خطاب متنوّع ومتعدّد، فهو تارة يكون لأهل الكتاب، وطوراً يكون للنصارى، وثالثة يكون لليهود، ورابعة للذين آمنوا، وخامسة للناس، وهذا كلّه يؤكّد أن حوار الأديان في القرآن له مشروعيته، وإن لم تكن له حقانيته على نحو ما سنبيّن في بحوثنا المقبلة إن شاء الله.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) قال الله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

إن تنوّع الخطاب الإلهي، معناه أن يكون الحوار لاحظاً لحقيقة هذا التنوّع، وكاشفاً عن مشروعيته، ولكنه لا يُبقي على هذه المشروعية في دائرة الرفض لحقيقة العبودية، وكل ما يقتضيه الإيمان، وحقيق الهداية كما جاء بها الأنبياء، ولئن كان هذا التنوع في الخلق، وفي الخطاب الإلهي، مما يتميّز به الخلق، سواء في عالم التكوين أم في عالم التشريع، فإن له هدفاً لا بدَّ أن ينتهي إليه من خلال ما بلّغه الأنبياء من هداية، وقاموا به من رعاية، لأن مقتضى هذا التنوّع والتعدّد في الخلق أن يتواصل الإنسان ويتعارف ليكون له كماله الإنساني، فإذا لم يتحقّق هذا الأمر فلا يكون الإنسان قد بلغ منتهى ما أُريدَ له وبهِ فيما أعطى من خلق وهدى، وهذا ما يُفسّر لنا معنى الخطاب الإلهي وتنوّعه إلى البشر، أن يهتدوا إلى سبيل الله تعالى، بحيث يكون لهم التحوّل الآمن في طريق الكدح إلى الله تعالى. فإذا لم يهتدوا إلى هذا السبيل، واستغرقتهم الدنيا فيما تنوّعت به، وتلهّوا عمّا أُريد لهم، فإنهم بذلك يقصّرون عن غاية خلقهم، وعن سرّ عبوديتهم، فلا يكون لهم الأمن، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[1]. وهكذا، فإنّ مشروعية الخطاب الإلهي فيما ينطوي عليه من تنوّع، هادف إلى هداية الإنسان إلى طريق الحق، إلى الدين الحقّ، الذي هو واحد لا يتعدّد، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[2].

غاية القول: إنّ ما ينتظمه عالم التكوين من تعدّد وتنوّع، سواء في عالم النبات، أم في عالم الحيوان، أم في عالم الإنسان، وكل ما خلقه الله تعالى، هو ليس مجرّد تنوّع في الأشكال وحسب، وإنما هو تنوّع في الوظائف والمهمات، تنوّع يستوعب كل شيء، ويعتبر من مظاهر الإعجاز والإبداع في الخلق، هذا النظم التكويني له انتظامه أيضاً في عالم التشريع لما تقدّم من أن كلمات الله تعالى تتماهى تشريعاً

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

وتكويناً، وكل كتاب ناطق بما في الكتاب الآخر، ويبقى على الإنسان الحرّ والمتميّز باختياره أن ينتظم في سلك هذا التكوين والتشريع ليكون له كدحه وانتظامه الخاص به، لأنه الإنسان الخليفة، الذي أوكلت إليه مهام الحكم والتدبير، وأُلقيت عليه أسرار التغيير، هذا فضلاً عمّا خُصّ به هذا الإنسان من معانٍ في عالمي الملك والملكوت، وإذا كانت للإنسان هذه الخصائص والمزايا، فلا ينبغي له أن يكون سالكاً لسُبل الضلالة، أو هاجراً لسبيل الهداية، أو منتظماً في سلك الغواية، وخارجاً عن مقتضى الهداية والولاية، ومصغياً للشيطان فيما توعّد به من تغيير في خلق اللّه تعالى، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ...﴾[١].

فالشيطان هو الذي يدفع إلى نفي الحوار، ويأمر بتغيير خلق اللّه تعالى، الذي هو خلق متعدّد ومتنوّع وهادف إلى تحقيق الغاية من إعطاء الخلق والهداية للإنسان للقيام بشؤون الخلافة وبكل ما يقتضيه حمل الأمانة من حريّة ومسؤولية وتعاون، وغير ذلك مما لا بدَّ منه في طريق الكمال. ومن هنا يمكن لنا أن ندرك معنى تنوّع الخطاب القرآني إلى عباده ليكونوا على مستوى التحقق بالكمال، ويصدروا عنه في حقيقة انتمائهم الديني والعبودي، وفي التزاماتهم الإنسانية اتجاه عباد اللّه تعالى، فلا يتعصبون لباطل، ولا يعملون بخلاف ما تقتضيه الحكمة من الخلق والوجود.

كما ندرك أيضاً معنى أن يكون أهل الأديـان متعارفين متعاونين، فلا تلهم تجارة الأوثان، ولا تتصرّم بهم السُّبل عن حقيقة الإيمان، الذي يؤدي بهم إلى أن يكونوا عباداً للّه تعالى، دونما اعتبار لاختلاف مناهجهم وشرائعهم، وتعدّد ألوانهم ولغاتهم، إلى غير ذلك مما يتمايزون به ويختلفون فيه.

إنّ الحوار في الأديان له هذا المعنى، وهذا الهدف، أن يتحوّل الإنسان عن كونه منعوتاً وموصوفاً ليكون عبداً للّه تعالى، فلا تقصّر به اليهودية، ولا المسيحية، ولا الإسلامية عن أن تكون له مقام الخلافة والتحقق في الوجود، والفوز برضى المعبود،

(١) سورة النساء، الآية: ١١٩.

فيتحوّل عن كونه إنساناً منتمياً إلى الزمان والمكان والتاريخ، أو للطائفة والمذهب والحزب، ليكون عبداً لله تعالى، وقائماً بسرّ العبوديّة، إذ إنّ مقتضى التعددية هو التسابق بالخيرات لتجاوز مشروعية التعدّد والتنوّع في الوجود إلى التحقق بحقّانية الخلود، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ ...﴾[1].

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

الفصل الأول

الإنسان في القرآن

تمهيد الفصل

أولاً: الإنسان الخليفة

أ ـ الخلافة والعلم

ب ـ الخلافة والكمال الإنساني

ثانياً: القرآن والحوار

أ ـ الدين والحوار

ب ـ القرآن وتطوّر منطق الحوار

ثالثاً: الأديان وأصول الإيمان

أ ـ القرآن وأصول الإيمان

ب ـ الأصول الإيمانية في التجربة التاريخية

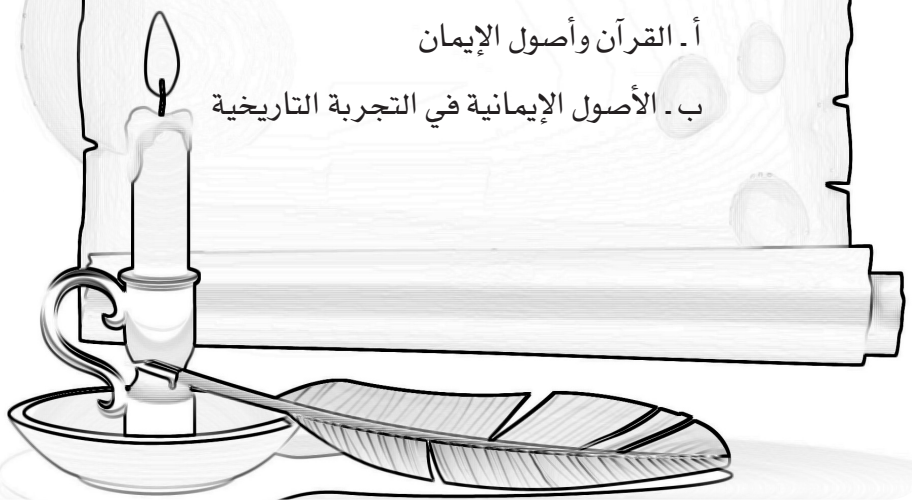

تمهيد الفصل

ذكرنا في التأسيس المتقدّم أن الله تعالى اصطفى الإنسان وخاطبه ليكون خليفة في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾[1]، وهذا الخطاب الإلهي للإنسان لم يأتِ متميزاً في المكان أو في الزمان، أو في التاريخ، وإنما جاء خطاباً مطلقاً، سواء جاء هذا الخطاب على لسان النبي نوح عليه السلام، أو النبي موسى عليه السلام، أو النبي عيسى عليه السلام، أو رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بمعنى آخر يمكن القول: إن الإنسان هو موضوع لهذا الخطاب الإلهي في مطلق الزمن، وعلى لسان الأنبياء جميعاً، ولعلّه من الأخطاء القاتلة التي ارتكبها الإنسان في تاريخه، أنه اعتبر نفسه إنساناً محدوداً ومتميزاً في الزمان والمكان، ومقصوراً الأمر به على هذا الاعتقاد أو ذاك، أو على هذه الرسالة أو تلك، ساهياً عن كونه خليفة الله تعالى، وأريد به أن يكون إنساناً كاملاً ومستوياً على جوديّ ملكوته، وقد أوضح القرآن هذه الحقيقة في كثير من الآيات القرآنية التي أثنت كثيراً على الإنسان في مقابل آيات أخرى ذمّته ووبّخته، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[2] فالإنسان، كما يرى مطهّري، في نظر القرآن موجود له القدرة على تسخير عالمه واستخدام الملائكة لنفسه، ويمكن أن ينزل إلى أسفل سافلين[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة التين، الآيات: ٤ ـ ٦.

(٣) را: مطهري، مرتضى، الإنسان في القرآن، دار التيّار الجديد، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص٥.

إن الحديث عن الإنسان في القرآن، رغم كثرة البحوث التي تناولته من قبل العلماء والباحثين، لا يزال قابلاً للبحث، ولكن من منطلق أن القرآن لم يتحدّث عن الإنسان باعتباره تاريخاً، أو مخلوقاً في الزمان والمكان، وإنما تحدّث عنه من حيث هو خليفة سجدت له الملائكة، وتحقق في عالم الملكوت، وكانت له رؤية الجبروت على نحو ما بيَّن الإمام الخميني قدس سره بقوله: «**واعلم أن الإنسان هو الكون الجامع لجميع مراتب العينية والحسّية والمثالية منطوٍ فيه العوالم الغيبية والشهادتية وما فيها... فهو مع الملك مَلِك، ومع الملكوت ملكوت، ومع الجبروت جبروت...**»[١].

وأنّى لهذا الإنسان الذي له هذا التمايز في الغيب والشهادة، أن يكون مجرّد تاريخ، أو حديث، أو رؤية؟ ذلك هو معنى الإنسان في القرآن الذي لم تظهر كثرة البحوث الإسلامية وغير الإسلامية تمايزاته على مستوى التحوّلات الإيمانية والإنسانية، ونحن إنّما نمهّد لهذا الفصل عن الإنسان لبيان معنى إيمان الإنسان وما أُريد به من تحوّل من خلال إرسال الرسل لهدايته وإثارة دفائن عقله ليكون إنساناً كادحاً إلى ربّه، وواصلاً إلى غايته كما أراد الله تعالى، وهذا إنّما يكون ممكناً فيما لو تجاوزنا مفردات الوصف والشيئية والتميزات المكانية والزمانية، بحيث لا يقال الإنسان اليهودي، والإنسان المسيحي، والإنسان المسلم، أو غير ذلك مما وُصف به الإنسان في تاريخه. فالإنسان هو الإنسان الذي حقّقته النبوّة، وميّزته الرسالة، وبعثته الهداية إنساناً جديداً قادراً على تحقيق ذاته فيما خصّ به من وجود، وفيما أعدّ له من كرامة، وهذا كلّه يستدعي منا أن نتحدّث عن الإنسان بما هو إنسان خليفة، وإنسان متديّن، وإنسان كادح إلى ربّه، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[٢].

(١) الإمام الخميني، مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٩٦، ص١٥.
(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

أولاً: الإنسان الخليفة!

يبيّن القرآن الكريم أنّ الإنسان كان خليفة قبل أن يكون يهودياً، أو مسيحياً، أو مسلماً، وقبل أن تكون له أيّة اعتبارات إيمانية، أو تاريخية، فهو الشاهد بالربوبية، والقائم بالعبودية، تميّزه الفطرة، وتحكمه حقيقة الانتماء إلى الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٖ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[١]. وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾[٢]. وكما نلاحظ أن الآيات تتحدّث عن عنصر ملكوتي في جبلّة الإنسان، وهو العنصر الذي هيّأ الإنسان ليكون ثابتاً وباقياً لا ينفد، لأنّ ما عند الله باقٍ وما عند الناس ينفد، كما قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾[٣]، وإذا كان الأجل المسمّى لكل شخص هو عند الله تعالى، فإنّ معنى ذلك، كما يرى العلاّمة الطباطبائي، أنّ ما عند الله تعالى محفوظ من آفة التغيير والتبديل... فتكون النتيجة، أن الأجل المسمّى لا يقبل التغيير...[٤].

إذن، الإنسان الخليفة، كما في مدلول الآيات المباركة، في عالم الثبات والبقاء ليس متحيّزاً ولا متميّزاً إلاّ على نحو ما يبيّن القرآن بأن الإنسان وإن كانت له تمايزاته في عالم الخلقة والوجود، إلاّ أنّه فيما خُصّ به من لدن الله تعالى له قيمه الروحية، والملكوتية الثابتة والباقية، والتي لا يمكن للنماذج المادية أن تفسّرها، لا من حيث القدرة، ولا من حيث الفكر، ولا من حيث الشهادة، ولا من حيث الحسّ الخُلُقي والديني

(١) سورة السجدة، الآيات ٧ ـ ٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٦.
(٤) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩١، ج٧، ص٩.

والجمالي، لأنّ الإنسان سابق في وجوده على كل ما هو طبيعي ومادي[١]، وله أفضليته على سائر ما خلق الله تعالى.

ومن هنا يرى العلامة المطهّري في معنى قيم الإنسان أن القرآن قد لحظ هذا المعنى الإنساني في أسبقية وجوده وفي أفضليته، مبيّناً أن الإنسان وإن كان قد خُصّ بأنّه خليفة، فهو له ظرفيّة علميّة هي أكبر من كونه مخلوقاً، كما قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٢]، هذا فضلاً عمّا خُصّ به إنسان القرآن من فطرة تعرف الله، وجبلّة ملكوتية لا تنفد، إضافة إلى حقيقة اجتباء الإنسان وهدايته، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[٣]. إلى غير ذلك مما خُصّ به هذا الإنسان من أمانة[٤] وكرامة[٥]، وضمير أخلاقي[٦]، وذكر إلهي[٧] ونِعَم سُخِّرت له[٨]، وهي قيم كثيرة منها ما هو في دائرة الملك، ومنها ما هو في دائرة الملكوت، كما قال الله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[٩]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[١٠].

وانطلاقاً مما تقدّم، نرى أن الإنسان الخليفة له تمايزه الملكوتي، وهذا يقتضي من أهل الإيمان أن يبحثوا في حقيقة الإنسان وما خصّ به من لدن الله بمعزل عن

---

(١) إنّ هذه الأسبقية للإنسان نفترض وجوده في الطبيعة واعتماده عليها واحترامه لها، فهو ليس بمركز الكون، كما يرى المسيري، وهو ليس سيّد الطبيعة، فمالك ذلك هو الله تعالى، والإنسان مستخلف فيها يتفاعل معها.
أنظر عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، ج١، القاهرة، ١٩٩٩، ص٨٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢٢.

(٤) قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ..﴾ [الأحزاب. ٧٢].

(٥) قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ...﴾ [الإسراء: ٧٠].

(٦) قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧ـ٨].

(٧) قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

(٨) قال الله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [الجاثية: ١٣].

(٩) سورة ق، الآية: ٢٢.

(١٠) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ـ٢٨.

التاريخ الانساني وما حفل به هذا التاريخ من تأطير لحالة الإنسان الرسالية، وهذا ما ركّز عليه القرآن في سَير الأنبياء وعلاقاتهم مع أقوامهم، حيث نرى القرآن يدعو على لسان الأنبياء إلى التوحيد، والعدل، والتقوى، وحمل الأمانة، وتحقيق العنصر الروحي في حركة الإنسان الإيمانية والإنسانية، لأن حاكمية الروح هي الأساس في عالمية الإنسان، وهي الجوهر في حركته الرسالية، وإن أدنى تأمّل في مدلول الآيات المباركة يكشف عن هذا المعنى الإنساني، وهذا ما نرى أنّ المسيحية، وكذلك اليهودية، وكل الرسالات السماوية، تنطوي عليه وتدعو إليه ما يعني أن مقتضى فهم الخلافة لا بُدَّ أن يأتي في سياق الرؤية الإيمانية التي حملها الأنبياء لأقوامهم، ودعوهم إلى التمثّل بها والعمل بمقتضاها ليكون لهم الفوز في الدنيا والآخرة. فالإنسان هو الخليفة، وهو المستخلف في الأرض، والحامل للأمانة، وهذا كلّه، وإن كان يرتكز على ما تميّز به الإنسان في جبلّته من عناصر ملكوتية، إلاّ أنه لا يعني مطلقاً تجاوز الإنسان لرسالته في زمانه ومكانه وتاريخه، بدءاً من النبي آدم عليه السلام، وانتهاءً بعصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهو بمقدار ما يكون له من حضور في عالم الرسالة، بمقدار ما يكون له من حضور في تحوّلاته الاجتماعية والسياسية على النحو الذي يجعله إنساناً يعيش الواقع ويتفاعل معه، وذلك خلافاً لمن يزعم بأنّ الإنسان له خلافته في الأرض على أساس كونه متماهياً ومتحققاً بدين، أو برؤية، أو بنظريّة، يُراد لها أو من خلالها أن تعطي أبعاد الخلافة في الأرض بُعد التاريخ الخاص بهذه الجماعة، أو تلك. فالرسالة السماوية، كل رسالة، تؤكد على خلافة الإنسان من حيث كونه منتمياً إلى دين الله تعالى فيما يصدر عنه، ويقوم به من أعمال عبادية أو سياسية، أو غير ذلك مما يتفاعل معه الإنسان في حياته المادية... على هدى النبوّة، التي هي واسطة كل تحوّل إيماني في حياة الإنسان على النحو الذي يؤكّد معنى الخلافة في الأرض.

نعم، إنّ الإنسان لم يتميّز في أصل خلقته، باعتبار أن القرآن يركّز على وحدة

الأصل المادي، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾[١]، كما أنه لم يتميّز في أصل جوهره الروحي، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[٢].

إنّ الأصل المادي واحد، وكذلك الأصل الروحي والمعنوي والملكوتي، فهو واحد أيضاً، وهذه الحقيقة تقرّها الأديان ولا يختلف عليها اثنان، بل هي حقيقة مؤدّاها أن لا اختلاف في الأصول التي ينتمي إليها الإنسان ويصدر عنها فيما يتخذه لنفسه من تحوّلات إيمانية وإنسانية، وفيما يعيشه من تفاعلات اجتماعية وثقافية وحضارية، فهو إنسان مكرّم في الأرض والسماء، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ...﴾[٣]. إنّه إنسان مكرّم بصرف النظر عن التاريخ والزمان والمكان، لأنّ الإنسان، كما بيّنا، سابق في تكريمه وخلافته وجوهره على كل هذا، وقد خصّه الله بهذه الكرامة قبل أن تميّزه حقيقة الانتماء إلى الرسالة الخاصة، أو النبوّة الخاصة، بل هو تكريم جاء بلحاظ كون الإنسان إنساناً متميّزاً بسرّ إلهي استودعه الله تعالى فيه، ولم يأتِ بلحاظ كون الإنسان منتمياً إلى شيء، أو منعوتاً بشيء، أو منسوباً إلى شيء. إنّه تكريم مخصوص للإنسان بما نفخ فيه من روح الله تعالى، وبما جعل فيه من نور الله تعالى؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[٤].

إنّ الإنسان هو جوهر العالم ومركز الثقل فيه، وفيه انطوى العالم الأكبر، وهو أقرب مخلوق في حقيقته وجوهره من حضرة القدس، بسبب أن قلبه مستنير بمعرفة الله تعالى، ولسانه ناطق بذكر الله تعالى، وجوارحه وأعضاؤه مكرمة بطاعة الله تعالى، ولعلّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٥]، ناظر إلى نعمة الروح الملكوتية التي نفخها الله تعالى فيه من روحه، والتي جاءت

(١) سورة السجدة، الآية: ٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.
(٤) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٥) سورة النحل، الآية: ٧٨.

في سياق آية حسن الخلق، ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه.. وهذا كلّه يقتضي الشكر من الإنسان الخليفة لخالقه الذي جعل له كل شيء لغاية العلم والشكر والتحقق في الوجود، بحيث يكون له التمايز في القرب، لكونه هو مبدأ القرب والولاية[١].

أ. الخلافة والعلم

لقد بيَّن القرآن الكريم في حواره مع الملائكة، وفيما أخبرهم به أنه جاعل في الأرض خليفة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾ فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فجاء الجواب: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]. فالملائكة لم يعلموا الحكمة من هذا الجعل الإلهي، ولكنهم أفصحوا عمّا هو مركوز لديهم من إفساد وسفك للدماء، فرأوا أن هذا لا يتناسب مع مقامات التسبيح والتقديس التي يقوم بها الملائكة.

وكما يبيّن القرآن أن هذه الإجابة لا تنطوي على علم كافٍ بحقيقة الجعل، وما ينطوي عليه من تقديس وتسبيح، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فلم يأتِ الجواب بلغة التقديس والتسبيح، كما أنه لم يلحظ حقيقة ما كشف عنه الملائكة من دم وإفساد في الأرض، وهذا إن كان يدلّ على شيء، فإنّه يدلّ على أن للعلم معناه في الحوار الإلهي مع الملائكة، وهو ما تريد أن تكشف الآيات عنه، حيث أفادت الآيات بأن الإنسان إنما هو مخلوق للعبادة بما هي معرفة وللعلم بما هو سبيل للتحقق في الوجود، بلحاظ كون الإنسان الخليفة هو الإنسان الذي يملك الإرادة والحريّة

(١) يقول العلاّمة الآملي: «حيث إنّ الولاية تنتج عن القرب فيجب أن تشرع من جهة العبد، لأن هذا القرب من ناحية الله تعالى حاصل شاء الإنسان أم أبى. فالله تعالى الذي هو بكل شيء محيط، وهو أقرب للإنسان من حبل الوريد، وهو معكم أينما كنتم، إلى غير ذلك من الآيات لا يعقل أن يكون بعيداً عن عباده، فلو أراد الإنسان أن يقيم هذه الإضافة، فيجب عليه أن يقرّب نفسه من الله تعالى بواسطة الأعمال المقبولة، وهي الأعمال التي جاء بها الأنبياء، مثل الصلاة والزكاة، وسائر التكاليف التي أمر الإنسان القيام بها، كما جاءت في شرائع الأنبياء، كلٌّ في زمانه، وهذا التدرّج في التشريع، كما سنرى في بحوثنا المقبلة لا يتنافى مع كون الإنسان منتمياً إلى الدين الذي جاء به كل الأنبياء والذي لم يختلف بين نبيّ وآخر، باعتباره الدين، الفطرة التي فُطر عليها الإنسان.

انظر: الآملي، جوادي، ولاية الإنسان في القرآن، دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

والاختيار، خلافاً للملائكة الذين لا يعصون الله تعالى ويفعلون ما يُؤمرون؛ فهم على تسبيح وتقديس لله تعالى في كينونة وجوديّة مختلفة عمّا تميّز به الإنسان الخليفة في كينونة وجوديّة تملك إرادة أن تطيع، وأن تعلم الأسماء، وأن تتعلّم في طريق الكدح إلى الله تعالى، وهذا ما تدلّ عليه إضافة قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ ما يعني أن هناك علماً جديداً، ونوراً مبيناً، شعَّ في أفق الإنسانية ليكشف عن بعدها الملائكي في صيرورة تحولها الإنساني. فأنّى للإنسانية أن تبصر بنور العلم فتكون في مقام الملكوت والجبروت...؟

إنّ قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، كما ذكرنا، يفيد حقيقة العلم بكون الإنسان مخلوقاً لغاية العلم، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[1]. فالعلم في ضمير الآية المباركة لم يكن ملحوظاً في قضايا الملائكة، بدليل تعليم آدم الأسماء كلّها وجواب الملائكة بالقول لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا، فالعلم هو محور الخطاب الإلهي وجوهر التحقق الإنساني في حين أن الملائكة استفزتهم تسوية آدم الطينية، فلم يلتفتوا إلى جنبة النور الإلهية المتجلّية بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[2] باعتبار أن الأمر بالسجود لم يكن لمجرّد تسوية بني آدم، وإنّما لجنبة النور في الملكوت الإنساني، وهذا دليل على تمايز الإنسان ومكانته في الخلق والوجود. وقد جاء في الحديث القدسي: «**يا آدم خُلقت الأشياء لأجلك، وخلقتُكَ لأجلي**».

إنّ قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[3] هو دليل العلمية في حضرة الإنسانية، هو خطاب مسبوق بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١]. ومن هنا نتعرّف إلى معنى علمي دقيق ممّا يمكن استنطاقه من الآيات المباركة، فهي تتحدّث عن علم إنساني لم يكن قد تعلّمه الإنسان، وهذا العلم المكنون في آية إقرأ مداه السماوات السبع والأرضين السبع، كما قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا المدى الحقيقي للعلم هو للإنسان الخليفة، وقد تقرّر في أصول الفقه أن ترتّب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علّة، وهذا يدلّ على أن الله تعالى اختصّ بوصف الأكرمية لأنه علّم الإنسان العلم، فلو كان شيء أفضل من العلم وأنفس لكان اقترانه بالأكرمية أولى.

وهكذا، فإن الله تعالى أراد أن يعرّف تمايز الإنسان بالعلمية، وليس كل إنسان، وإنّما الإنسان الخليفة الذي يسمع ويعقل عن الله تعالى، كما قال: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[٢]. وهذه الآية ناظرة وكاشفة إلى أن من لا يسير بنور الله تعالى، ولا يهتدي بهديه يخرج من إنسانيته، وتستحيل عليه المعراجية، وهذا هو الإنسان الذي تحدثت عنه الملائكة، ورأت فيه سبباً للإفساد والإهلاك. وهنا قد يتساءل المرء، لماذا خلق الله الإنسان طالما أنّه يسفك الدماء، ويفسد في الأرض، فنقول: إنّ الذي جُعِلَ أفضل وأشرف من الملائكة هو ذلك الإنسان الذي دخل في ضمير قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي الإنسان الذي اتبع الهدى وسار بنور الله في مسيرة كدحه، إذ إنه ليس من الحكمة في شيء أن يعدم الإنسان الوجود لمجرّد أنه سيكون منه من يسفك الدماء ويفسد في الأرض، باعتبار أن الإنسان المتجلّي في نور الله تعالى هو الخليفة، وهو سرّ الخلق والوجود[٣].

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٣.

(٣) جاء في الروايات عن الأئمة أنّ الحجّة قبل الخلق، ومع الخلق، وبعد الخلق، يقول الصدوق في فقه هذه الرواية: «إنّ الله تعالى لمّا أعلمَ الملائكة أنّه جاعل في الأرض خليفة أشهدهم على ذلك، لأنّ العلم شهادة، فلزم من ادّعى أن الخلق يختار الخليفة أن تشهد ملائكة الله كلهم عن آخرهم عليه...».

را: الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمّي، كمال الدين وتمام النعمة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص١٧.

وهنا يمكن لسائل أن يسأل، هل من شأن الشَّرق بالماء والموت به أن لا يُخلق الماء؟ وهل من شأن الاحتراق بالنار أن لا تخلق النار؟ وهل من الحكمة أن لا يُخلق الإنسان الكامل لمجرّد أن بعض البشر يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء؟

إنّ قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، يستبطن وجود الخير الأعظم في الإنسان، ويُدلّل على مكانته فيما ينتهي إليه من تجلّيات علميّة وعمليّة، حيث إنّه جُهِّزَ بما يؤهّله لأن يتسامى في الملكوت حتى يبلغ مقام الجبروت فيما يختاره من هدى، فلا يضلّ ولا يشقى، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[١]. هذه الآية التي تُعطي للإنسان بعده في سلوك طريق الهدى، فيكون له الفوز والنجاة بصرف النظر عن تنوّعه، وعمّا يكون منه من تحوّلات إنسانية وتاريخية في مسيرة كدحه إلى الله تعالى.

إنّ الإنسان الذي كرَّمه الله تعالى وجعله على أحسن تقويم، وشرّفه بالعلم، وخصّه بالنوريّة والملكوتيّة، والذي مَنَّ عليه بنور الهداية بعد نعمة الإيجاد. إنّ كل ذلك إنّما كان له ليكون له تمايزه الإنساني من خلال العبوديّة الحقّة لله تعالى.

ولا شكّ في أن هذا الإنسان بمقدار ما يتحوّل في ذاته وعبوديته لله تعالى، بمقدار ما يكون له من التسامي في حضرة القدس، ذلك أن الإنسان ما كان ليتميز في جنبة الطين، وإنّما تميّز بما جعل له من نور منَّ الله تعالى به عليه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ ...﴾[٢]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٖ﴾[٣]. ولا شكّ في أنّ هذا الذي نذهب إليه لا يستتبع القول بأن هناك من حُرم من نور الله تعالى ابتداءً، وإنّما هو يعني أن الإنسان يتحوّل بذاته واختياره من

(١) سورة الانشقاق، الآية ٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٣) سورة النور، الآية: ٤٠.

نفخة الروح وتجلّي النور إلى الطين والمادة فيكون أسفل سافلين، هذا الطين الذي يؤدّي الاستغراق فيه والإخلاد له إلى أن يكون الإنسان أسير أهوائه وشيطان ذاته على ما يعنيه ذلك من إفساد في الأرض وسفك للدماء.. ولعلّنا لا نخطئ القول في أن الإنسان إذا ما اختار الهدى على الضلال، واتبع النور الذي جُعل له، فإنّه يقدر على أن يتحوّل إيمانياً وإنسانياً، سواء أكان ينتمي إلى الإسلام، أم إلى المسيحية، أم إلى أي دين من الأديان، وشريعة من الشرائع. لأنّ النور الإلهي هو نور واحد شعّ في حياة الأنبياء، وأضاء في طريق العباد، ولا يمنع منه إلاّ غواية شيطان، وعبادة هوى،...!!

إنّ العلم والتقوى هما سبيل التحقق الإنساني، فإذا ما اختلفت الشرائع وتبدّلت المناهج، فإنّ ذلك لا يحول دون أن تكون للإنسان طريقه إلى الهدى. ولا شكّ في أن حوار الأديان في القرآن كاشف عن هذه الحقيقة، باعتباره حواراً بنّاءً، سواء أجاء بالقبول، أم بالنقد، أم بالرفض للحالات الدينية التي ما أنزل الله بها من سلطان[١]، وهذا ما سيكون موضع اهتمام وتدبّر في البحوث المقبلة إن شاء الله تعالى.

ب ـ الخلافة والكمال الإنساني:

لا شكّ في أنّ تمام مظهريّة الإنسان الكامل، كما يبيّن القرآن الكريم، تتجلّى في الأنبياء والرسل الذين جاؤوا بالرسالة، وحملوا الأمانة، وكان بلسانهم حوار الإسلام مع القبائل والشعوب والأقوام، وهم ـ أي الأنبياء ـ إنّما كان لهم هذا التحقق على

(١) يمكن ملاحظة حوار الأديان في القرآن من خلال التعرّض للحالات الدينية المختلفة، سواء تلك التي تتعرض لأهل الكتاب، أم لليهود، أم للنصارى، فتارة تجد المدح والقبول والمودة، وطوراً تجد النقد اللاّذع لمن فرّقوا دينهم، واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، وهناك آيات كثيرة تتعرّض وبطريقة علمية ومنطقية لكل الفرق التي ادّعت زوراً وبهتاناً أنها تقيم الدين، وهي ليست على شيء من ذلك، إلى غير ذلك من الآيات التي تعرض لنماذج فرديّة في سياق بيان معنى الإيمان والدين والتقوى. إنّ القرآن يبيّن أن الدين هو الإسلام، وأنّ الله واحد أحد لا شريك له في ملكه ولا منازع له في خلقه، وهذا ما جاء به الأنبياء، والحق يقتضي بنا تصديق كتاب الله تعالى في كل ما ذكره عن تعليم الأنبياء لشعوبهم، وهذا لا يضير أبداً مع اختلاف المناهج، وتعدّد الشرائع والمناسك، لأنّ الإنسان يتدرّج في علمه وعمله، ولا بدّ أن يكون له ما يناسبه في تحقيق ذاته.

مستوى النور والفعلية في الوجود والملكوت لكونهم لسان الحق، ومبعث النور، وأهل الحقيقة القدسيّة التي هي أصل الظهور، يقول الإمام الخميني قدس سره: «**هذه الخليفة الإلهية... لا بدّ أن يكون لها وجه إلى الهوية الغيبيّة ولا تظهر بذلك الوجه أبداً، ووجه إلى عالم الأسماء والصفات، وبهذا الوجه يتجلّى فيها ويظهر في مزاياها في الحضرة الواحديّة الجمعية...**»[١].

إنّ الإنسان الكامل الذي أُوكِلَت إليه مهمّة حوار الدين وتبليغ الأحكام، هذا الإنسان لم يكن له في اعتقادنا التكامل والكمال من مبتدأ أمره بحيث يُقال إنه خُلقَ كاملاً، وإنّما كان له ذلك في مدارج الصعود والكمال، وفي منتهى الحرية والاختيار، لأنه لا معنى للكمال إذا لم يطوِ الإنسان الطريق بنفسه وإرادته وتصميمه، وبهذا المعنى نفهم فقه ودلالة الآية المباركة: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[٢]. فالله تعالى لم يُلجئ الناس إلى أن يؤمنوا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[٣].

وانطلاقاً مما تقدّم، نرى أنّ الأنبياء في دعواتهم قد سلكوا بالناس طريق تهذيب النفس، والهداية إلى نور الحق، للخروج بهم من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الفطرة إلى العقل لما يحققه هذا الخروج للإنسان من طيّ في طريق الكمال، ومن اهتداء إلى سبل السلامة في الدين والدنيا، وإن أدنى تأمل فيما يسوقه القرآن من أدلّة وبراهين لتعليم الإنسان وهدايته، يكشف عن أنّ رسالات السماء التي توّجها القرآن وهيمن عليها كلّها أعدّت للإنسان ما تستطيع معه إقامة الحق، وتحقيق العدل، وإجراء الحوار اللازم ليكون الاهتداء عاقلاً وفاعلاً ومؤثراً في الإنسان فينطلق في طريق الهداية، ويكون له برهانه ودليله على ما يذهب إليه في مجال العقيدة والشريعة والحياة.

---

(١) انظر: الإمام الخميني، مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، م. س، بيروت، ص١٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢٣.

وإذا كان هذا الإنسان قد أخفق في طريق الهداية، ولم يهتدِ سبيل السلامة، فذلك ليس لأن الإنسان قصّر به عن حقه، أو حيل بينه وبين ربّه، وإنّما لكونه لم يتبع الهدى، واتّبع السبل فتفرق عن سبيله، وكانت منه المفاسد والشرور، ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة أن نستعرض آيات الرحمن فيما جاء به في سياق الهداية والعناية، سواء في القرآن، أم في سائر الرسالات السماوية، لنعرف كيف أن الإنسان قد استغرق في زهرة الدنيا، واختار غير سبيل المؤمنين ليقع عن وعي وإدراك بالخسران المبين.

وقد يتساءل كثير من أهل الأديان، أنه إذا كان مقتضى الصفات الإلهية الكمالية أن يخلق العالم بصورة يتوفر في مجموعه الكمال الغالب والخير الممكن الحصول، فكيف يمكن أن نفسّر شرور الإنسان ومفاسده؟ وكان الجواب على لسان أهل العلم بما يكفي لتأكيد حرية الإنسان ومسؤوليته عمّا يختاره، يقول العلاّمة اليزدي: «**إن الإرادة الإلهية إنّما تعلّقت بخلق الإنسان، وأن وجود الإنسان هو منشأ للخير الغالب، ومن المميزات الرئيسة للإنسان اختياره وإرادته الحرّة، ولا شكّ في أن التوفر على قوّة الإرادة والاختيار يعدّ من الكمالات الوجوديّة، حيث يعدّ الواجد لها أفضل من الفاقد لها، ولكن ما يلازم صفة الاختيار أن يكون الإنسان قادراً على ممارسة الأفعال الحسنة والخيّرة التي توصله إلى كماله النهائي والأبدي، وكذلك أن يكون قادراً على ارتكاب الأفعال القبيحة لتتّجه به إلى السقوط في الشقاء الأبدي. إنّ ما تتعلّق به الإرادة الإلهية أصالة هو تكامل الإنسان، ولكن بما أنه يلزم في التكامل الاختياري للإنسان إمكان السقوط، فلهذا تتعلّق الإرادة الإلهية بالتبع بهذا السقوط الاختياري...**»[١].

لقد بيّن الله تعالى في كتابه الكريم أنه من السنن الحاكمة في حياة الإنسان الإبتلاء، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ...﴾[٢]، فهذه

(١) انظر: اليزدي، محمد تقي مصباح، دروس في العقيدة الإسلامية، دار الحق، بيروت، ١٩٩٣، ص٢٥١.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢.

الأية ناظرة إلى أن ميزان تفوّق الإنسان وتمايزه ليس مجرّد الخلق من نطفة، وإنما لكون الإنسان ممتحن بالابتلاء، على اعتبار أن جميع الحيوانات قد خُلقت من نطفة أمشاج، فلا امتياز في هذا الخلق إلاّ من حيث كونه جاء في سياق الحكمة الإلهية التي جعلت الإنسان أهلاً لهذا الامتحان من منطلق كونه حرّاً مختاراً. وقد أُعطي الإنسان الحريّة لأداء الامتحان، ذلك أن من أراد أن يمتحن تلميذاً من حيث معلوماته فلا بُدّ من منحه الحريّة للإجابة...

إنّ الخليفة الذي جعله الله تعالى في الأرض لم يُخلق عبثاً، ولم يترك سدىً، وإنّما أُنيطت به مهام الخلافة وإعمار الأرض، وتحقيق العدل، والهداية إلى مدارج الكمال، وقد جهّز هذا الإنسان بكل ما يلزم للقيام بهذه المهام من عقل وتشريع وأنبياء ورسل للارتفاع به إلى مصاف التجلّي الإلهي، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

لقد بدأ خلق الإنسان من طين لا بهدف أن يكون طيناً، وإنّما بهدف أن يكون نوراً، بحيث يتحوّل الإنسان بذات نفسه نحو ما أُعدّ له من تجوهر في العبوديّة لله تعالى، لتكون له صبغة الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[1]، وكما نلاحظ أن الصبغة قد جاءت في سياق العلم والعبادة والمعرفة، التي يتميّز بها الإنسان، بل هو من أهم ما يميّز خلق الإنسان في طريق تكامله، وكما بدا لنا سابقاً، أن هذا الأمر ليس متعلقاً بالجنبة الطينية للإنسان، بل بالجنبة النورية التي نفخها الله من روحه فجعل منه إنساناً مستحقاً للخلافة، ولسجود الملائكة له، وهذا ما بيّنه العلاّمة محمد تقي اليزدي بأن هذا الخلق يتعلّق أصالة بالله تعالى الذي خلق فسوّى وقدّر فهدى إلى غير ذلك مما أكدته الآيات القرآنية، وحثّت على التدبّر فيه.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

غاية القول: إنّ الإنسان المكرّم في الأرض، والمستخلف فيها، إنّما يكون إنساناً حقيقياً فيما لو استجاب لنداء الله تعالى في نفسه وحياته، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾[١]، ولا شكّ في أنّ هذه الحياة القرآنية هي التي تميّز الإنسان وتجعله مختلفاً في تحقيقاته الإنسانية والإيمانية بعد توحّده في الأصل والسبب، فالحياة القرآنية لا تقدّم الإنسان على أنّه متعدّد في لغته ولونه ومنهاجه، ولا في كونه مختلفاً في أنماط سلوكه، أو فيما هو منتهي إليه من قبائل وشعوب، بل تقدمه من حيث هو متحوّل في ذاته عن طريق الاستجابة والكدح والعقل عن الله تعالى باتجاه هدف واحد ورؤية إلهية واحدة جاءت بها النبوة إلى البشر، وعبّرت عنها في كل زمان ومكان بهدف أن يتواصل الإنسان في مسيرته التكاملية نحو الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[٢]، فإذا لم تتحقّق هذه الرؤية الواحدة، فإن الإنسان لا يلبث أن يسقط في امتحان وجوده، وفي تحقيق صبغته، هذا فضلاً عمّا يكون له من تبعثر في الوسائل والغايات، وتكون النتيجة الإفساد في الأرض وسفك الدماء.

إنّ تمام الجوهر الإنساني إنّما يكون بالعقل عن الله تعالى واتباع هداه، لأن كرامة الإنسان وخلافته في الأرض مشروطة باتباع الشريعة، لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى ...﴾[٣]، فإذا اختلّت العلاقة مع الله تعالى استغرق الإنسان في هوى شيطانه، فإنه يخرج عن دائرة الخلافة والإعمار في الأرض ويتحوّل عن شهادته التي كانت منه في عالم النور، كما يقول الإمام شمس الدين قدس سره: «**إنّ الإنسان يخرج عن دائرة التكريم في أعماله، ويدخل فيها بإحسانه، وكذلك الحال في أمانة الاستخلاف، فإنّ الإنسان يخرج منها لمجرّد أن يركن إلى المعصية**

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

ويفسد في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[١].

لقد وصلت الآدميّة إلى قاب قوسين أو أدنى، وتجلّت حتى لامست سدرة المنتهى فكانت الملك والملكوت، ومن دلائل هذا التجلّي في القرآن تحقّق الملاقاة في طريق الكدح للإنسان، وفي الكتب المقدّسة التي ينتمي إليها أهل الإيمان أن نور الحياة إنّما يكون في اتباع الانسانية الكاملة، كما قال المسيح عليه السلام: «**أنا نور العالم ومن يتبعني لا يمشي في الظلام**». ولا شكّ في أنّ هذه الملاقاة ليست مجرّد تعبير مجازي، وإنما هي تعبير حقيقي يكشف عن مدى تحوّل الإنسان في كدحه فيما لو أخلص لله تعالى وتجاوز قيود ذاته فيما هي عليه من تمايز في الأشكال والألوان والأحوال[٢].

إنّها ملاقاة كاشفة عن حقيقة ما تؤول إليه المسيرة الإنسانية في كدحها، فلا يستمر الإنسان طيناً بل يعود أدراجه ويكمل دورته ليكون له مصاف الوجود والتجلّي، خلافاً لمن أخلد إلى الأرض واتبع هواه فكان من الغاوين، وانحصر في هياكل الظلمة والأجساد والأشباح التي غالباً ما تجعل الإنسان أسير مادته وأناه، سواء تجسّدت هذه الأنا في النفس؛ أم في الطائفة، أم في المذهب، أم في العرق، وغير ذلك مما تتناهى عنده ظلمات الإنسان..

إنّ الإنسان مخلوق متميّز في شهادته، وقد جعل له التميّز أيضاً في الكرامة

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٩.

(٢) إنّ تجلّيات الآدمية الإنسانية، بدأت بشهادة الإنسان «بلى»، حينما أشهده الله في عالم ذاته، بقوله تعالى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وهذه الشهادة إنّما تدلّ على ما تعنيه الخلافة في الأرض من ترجمة لهذه الشهادة فيما يؤدّيه الإنسان من أعمال، ويقوم به من وظائف، ولو لم تكن هذه الشهادة سابقة على تحوّل الإنسان في عالم كونه خليفة لما كان ثمة معنى لتكليفه والخطاب معه؛ فالإنسان شاهد على نفسه، ولو لم يكن شاهداً لربّه بالربوبيّة وعلى نفسه بالعبوديّة لما فهم من نفسه استمرار الخطاب الإلهي، وهذا ما ذهب إليه علماء اللاّنتريولوجيا من أنه لم يكن ممكناً تنزيل أي وحي كان لولا أن البشر كانوا في بدء أمرهم قد كوّنوا فكرة غامضة عن الوحي، واستلهموا حقيقة النور في تلمّس معاني الحياة، سواء في الدين، أم في الدنيا، فلو كان في العقل إنكار الرسل لما بعث الله نبيّاً قطّ.

را: كمال الدين وتمام النعمة، م. س، ص١٦.

والخلافة، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١]، يرشد في مضمونه إلى هذا التمايز، ويُعطي الإنسان قيمته المطلقة بمعزل عمّا يكون لهذا الإنسان من تحوّل وانتماء في زمانه ومكانه وتاريخه فضلاً عن دينه.. وقد تجلّت حكمة الله تعالى وعنايته بعبده فيما تواتر من أنبياء ورسل لأجل تكميل المسيرة الإنسانية بالهداية والرعاية والتدبير والسياسة، وهذا ما عبّر عنه الإمام علي بإثارة دفائن العقول، لكي يتواصل الإنسان وتكون له عالميته الشاهدة والمتميزة على نحو ما تواصل الأنبياء والرسل لتأكيد شهادة الإنسان وتعزيز خلافته وإظهار مكامنه من حيث هو إنسان في مطلق الزمن، ما يعني ضرورة أن يكون الإنسان متجاوزاً حدود الانتماء، سواء أكان يهوديّاً، أم مسيحياً، أم مسلماً.

وانطلاقاً من ذلك، نرى أنه لا معنى لتجزئة الإنسان لذاته وتقييد خلافته وكرامته وعالميته من منطلق أنه إنسان ينتمي إلى نوح أو إلى إبراهيم أو إلى موسى أو إلى عيسى، أو إلى الرسول محمد صلوات الله عليهم أجمعين، إذ إنّ الذي ينبغي أن يلحظ في الحقيقة بمقتضى الانتماء والشهادة هو الإنسان المنتمي إلى الله تعالى أولاً وأخيراً، لأنّ انتماءه الحقيقي إلى الله تعالى هو الذي يعطيه بُعده في الزمان والمكان، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٢]. فإذا تحقق هذا المعنى للانتماء بكفاية العبودية لله تعالى؛ فإن ذلك من شأنه أن لا يُبقي زماناً لتميّز الإنسان في الزمان والمكان والتاريخ، بل يكون له بُعده العالمي بالشهادة الأولى التي شهدها الإنسان لربّه، والتي جاء الأنبياء لإثارتها كلٌّ في زمانه لكي يكون لهذا الإنسان انتماءه الحقيق، بحيث لا يكون للانتماءات الجزئية أية معانٍ أخرى، خاصّة تلك التي تزعم محدوديّة الانتما في الزمان لهذا النبيّ أو ذاك على نحو ما آلت إليه الانتماءات في تاريخ الإنسانية. والحق يُقال: إنها انتماءات فصلت بين البشر بحسب أنبيائهم ورسلهم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٦.

وقد رأينا كيف أن كثيراً من الانتماءات لم تصل إلى الله تعالى حتى في زمان النبوّة، فكيف يكون الانتماء صادقاً، والحوار قائماً فيما لو كان الدين مجرّد شعار لحركة الإنسان في ميدان الحياة؟ وكيف للإنسان اليوم أن يفسّر معنى الانقلاب على الأعقاب، أو الجمود القائم على التفرّق والتميّز في الدين!؟

فلو أن الآدمية الشاهدة والمكرّمة والمستخلفة هي الملحوظة في سياق التعبير عن الانتماء فيما يترجمه الإنسان ويجسّده من معانٍ دينية لما كان البشر وجدوا إلاّ الله تعالى لكونهم من أصل واحد في المادة، وكذلك في الروح والنفس، ومآلهم لا بدَّ أن يكون واحداً فيما لو اهتدوا بالأنوار وأخذوا بالأسباب. وسلكوا سبيل السلام. وهذا هو معنى التوحّد بالله تعالى بلحاظ كون الإنسان واحداً، وإن تعدّدت شرائعه وأفكاره ومناهجه وطرائقه ومناسكه وشعائره، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[1].

إنّ الانتماء الحقيقي والنهائي في مسيرة البشر، هو الانتماء إلى الله تعالى من خلال الأنبياء والرسل، ومن شأن هذا الانتماء أن يكون الإنسان كادحاً إلى ربّه لتكون له ترجمة شهادته، وعالميّة كلماته الإلهية، باعتبار أن آدم عليه السلام تلقّى هذه الكلمات الهادية في تاريخ الإنسان، والناطقة بسرّ الانتماء. إنها الكلمات التي صحّحت مسار الانتماء في الحياة، وضمنت للإنسان مصير التحولات الدينية والإنسانية، هذا فضلاً عمّا حقّقته هذه الكلمات من أبعاد إيمانية في الهداية والرعاية من خلال تواتر الرسل والأنبياء في حياة الأمم والشعوب.

ومن هنا، نرى أنه لا معنى لأن يستغرق الإنسان في زمانه ومكانه ورؤيته الدينية، لأنّ الاستغراق فيما يعتقده الناس أنه كلمة باقية وهادية من دون وجه حق، إنّما يعني التصادم على مستوى الرؤية والمنهج والحياة، هذا فضلاً عمّا يؤدّي إليه ذلك من

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

اختلال في تحقيق الكرامة والخلافة والشهادة، التي خُصَّ بها الإنسان من لدن الله تعالى، ليقوم بها على النحو الذي يؤدّي به إلى أن يكون إنساناً مهتدياً بالحق، وقائماً بالعدل، ومنتمياً أولاً وأخيراً إلى الله تعالى، وهذا ما أرشد إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ...﴾[١]، وهو إرشادٌ يفيد أن الإيمان بالله واليوم الآخر، هو سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، على نحو ما بيَّن العلاّمة اليزدي أنه سبيل يربط بين الإنسان وآخرته، بين التوحيد والمعاد، وقد تمّت الهداية إلى هذه السبيل بالوحي الذي أنزله الله على الأنبياء، وقد وُضع في متناول أيدي الناس بواسطة الأنبياء[٢].

ثانياً: القرآن والحوار

سبق لكثير من الباحثين أن كتبوا في موضوع الحوار في الإسلام، أو بين الأديان، وكانت جلّ بحوثهم تتعرّض إلى هذا الموضوع من منطلق أن القرآن يدعو إلى الحوار انطلاقاً من كونه الكلمة النهائية في حياة البشر، وعلى أساس أنّه خاتمة الرسالات السماوية، ولا بدّ أن يكون القرآن مهيمناً على الحوار ومؤسّساً له في ضوء هذه النهائية الدينية، بحيث تكون سائر الأديان مطيعة له ومنطلقة منه، وهذا ما كان يؤخذ به على أنّه نفي للأديان، أو إلغاء لها مع كل ما يتتبع ذلك من تهميش وتحقير وتسفيه للآخرين، رغم أنّ القرآن، فيما ينطوي عليه من آيات، سواء في مجال التكوين، أم في مجال التشريع، ناطق بالتنوّع والتعدّد، هذا فضلاً عمّا يدعو إليه من إنسانية في العلاقات بين البشر، ولعلّنا لا نخطئ القول بأن هذه النزعة الأحادية،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) يقول اليزدي: «إنّ النبوّة هي الحلقة الوسطى بين مواضيع الرؤية الكونية والإيديولوجية، وبواسطتها نعرف المنهج السليم لحياتنا. ومن هنا ندرك معنى أن تكون المسائل الثلاث، التوحيد والنبوّة والمعاد، أصولاً للدين، أي الجذور العميقة للإيديولوجية الإسلامية. ونشير أيضاً إلى أنّ العدل هو من فروع التوحيد، وأنّ الإمامة هي من فروع النبوّة، وقد أسماها الشيعة بأصول المذهب بهدف تمييز عقائدهم من سائر المذاهب الكلامية الأخرى».

را: اليزدي، محمد تقي المصباح، الإيديولوجية المقارنة، ترجمة عبد المنعم خاقاني، دار المحجّة البيضاء، ط١، ١٩٩٢، ص١٦.

أو هذه الرؤية السلبية لموضوع الحوار لم تكن خاصة بالأديان السماوية الأخرى، أو بمن لا يؤمن بها من الشعوب، بل هي رؤية انسحبت على المسلمين أنفسهم فيما ذهبوا إليه من آراء بلغت حدّ الإلغاء والتهميش والتحقير لكثير من المسلمين، الذين لا يؤمنون بما تؤمن به هذه الفرقة أو تلك من فرق المسلمين، فكان مجرّد الاختلاف في الرأي سبباً للتكفير، كما فعل الخوارج وغيرهم كثير.

وقد يصحّ القول: إنّ عالم المسلمين منذ وفاة رسول الله وحتى يومنا هذا قد انطوى على فواجع ومهالك يهون معها الخطب على غير المسلمين؛ ويكفي أن نشير هنا إلى طريقة تعامل العرب مع الموالي في العهد الأموي، حيث كانت أقوام غير العرب تعتبر من الدرجة الثانية، أو الثالثة في الدولة الإسلامية، في حين كانت الأقوام المسيحية واليهودية والمجوسية تتمتّع بالعزّة والحريّة والاستقلال في ممارسة شعائرها، وإقامة مناسكها، وقد بيّن العلاّمة مطهّري في كتابه «**الإسلام وإيران**»[1] أن أهل البيت عليهم السلام لم يكونوا بمأمن من غوائل الأمراء، وتعرّضوا لأبشع أنواع الظلم من قبل الأمويين، وكانت أعظم هذه الفواجع، كما نعلم، قتل الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء.

وهناك الكثير ممّا لا يمكن إحصاؤه في تاريخ المسلمين، حيث نجد أنّ الحوار، سواء أكان ذو طابع ديني، أم طابع سياسي قدغاب عن حياة المسلمين، لصالح الاستبداد بالرأي في الدين والسياسة معاً، وغالباً ما كانت المصالح السياسية والأطماع الشخصية هي الحاكمة والمجتهدة في النصوص الدينية، ما أدّى

(١) يقول العلاّمة مطهّري: «إنّ الأمويين كانوا قد وجهوا حدّة سيوفهم إلى أهل البيت الذين كانوا يرونهم المنافسين لهم في الأمر ويشعرون بالخطر الشديد من ناحيتهم، وكان المجوس في هذه الحكومة أحسن حالاً من أتباع أهل البيت قطعاً. ومن المؤكّد أنّ سياسة الأمويين كانت عنصرية وأنّ حكومتهم كانت حكومة عربية لا إسلامية، فإنّهم كانوا يفرقون في حكمهم بين العرب وغيرهم، إلاّ أنّ هذا التفريق كان بين العرب وغيرهم حتى بين المسلمين منهم.. وكان المجوس آمنين ما زالوا يعملون بشرائط أهل الذمّة، فكان غير المسلمين يجادلون أئمة المسلمين، وخاصة في عهد العباسيين، حول الإسلام والمسيحية والمجوسية...

را: الإسلام وإيران عطاء وإسهام، دار الحق، بيروت، ط ١٩٩٣، ص٢٠٨ ـ ٢٠٩.

بالمسلمين إلى أن يكونوا أسارى هذه الرؤية الفكرية أو تلك، هذا فضلاً عمّا انتهى إليه المسلمون من تأويل وتفسير للقرآن على النحو الذي يخدم تطلّعات السلطات الحاكمة في الدين والسياسة كما فعل المعتزلة في زمن المأمون، وأهل الحديث في زمن المتوكّل[١]، حيث كانت كل فرقة تستخدم السلطة لتسويغ مشروعها الفكري والسياسي، ورؤيتها الدينية وفاقاً لتأويلات قرآنية ما أنزل الله بها من سلطان!؟

إذن، لم يكن الحوار في تاريخ المسلمين على ما ينبغي أن يكون عليه، وكما جاء به الإسلام مع رسول الله ، بل كان ملتبساً إلى حدّ القول بأنه كان إكراهاً، ولم يكن حواراً، سواء أكان مع المسلمين، أو مع غير المسلمين وإن بدرجات متفاوتة، ويكفي في هذا البحث أن نسلّط الضوء على حقيقة الحوار في القرآن من خلال المنهج البياني الذي يفترض الموضوعية في فقه الآية ودلالتها، إضافة إلى تفسير القرآن بالقرآن. وقد سبقنا إلى هذا البحث كثير من المفسرين والباحثين، وكانت لهم تقديماتهم القيّمة في موضوع الحوار. وبما أننا لا نروم أن يكون بحثنا تكراراً لما قدّمه الآخرون في هذا المجال، فإنّنا سنحاول جاهدين أن نعرض لرؤية حوارية نؤكّد من خلالها على أنّ الإسلام كلٌّ واحد لا يتجزّأ، وأنّه في دعوته الحوارية يعترف بالآخر ويقبل به شرط عدم العدوان، ويكفي أهل الأديان قاطبة أن يتفهّموا معنى قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٢]، الآية التي نزلت في مكّة حين كان الإسلام لا يزال في بداية الدعوة، والناس في شرّ دار وعلى شرّ دين على حدّ تعبير الإمام علي عليه السلام[٣].

فإذا كان الحال كذلك مع المشركين والوثنيين، فكيف يمكن أن يكون الحال مع الأقوام والشعوب الأخرى التي تؤمن بالله ولا تشرك به شيئاً، أو كانت تؤمن بالله وتتلبّس بلبوس التشبيه والتجسيم كما هو شأن الكثيرين من مسلمين وغير مسلمين ممن كانوا يعبدون الله على حرف...!

(١) النشار، سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ج١، ص٦.
(٢) سورة الكافرون، الآية: ٦.
(٣) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م، س، الخطبة: ٢٦.

إنّ القرآن يهدي للتي هي أقوم، أي إلى الطرق القويمة في معالجة قضايا الإنسانية، سواء في مجال الفكر والعقيدة، أم في مجال الاجتماع والسياسة والحضارة؛ فهو ـ أي القرآن ـ يقدّم منهجيّة فريدة في إدارة موضوع الحوار، سواء مع المسلمين، أم مع أهل الكتاب، أم مع المشركين إذ لم يُعهد عن نبيّ من أنبياء الله تعالى أنه كان يقوم بنفي الآخرين، أو إلغائهم، وإنّما كان شأن النبوّة دائماً النداء إلى عبادة الله تعالى، كما جاء على لسان الأنبياء جميعاً: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[1]. والدعوة إلى تحقيق العدل في المجتمعات الإنسانية من خلال شرائع السماء التي حملها الأنبياء إلى أقوامهم، وتحمّلوا في سبيل ذلك الأذى والنفي وغير ذلك مما كان يتعرّض له الأنبياء من سخرية واستهزاء وعداء وقتل، وهم رغم كل ما كانوا يتعرّضون له في سبيل الحقّ، استمرّوا في الدعوة بالحسنى، ولم ينبذوا الحوار بل استمروا به لهداية العباد وإصلاح البلاد.

أ ـ الدين والحوار

لقد تقدّم الكلام في أن الدين هو فطرة الله، التي فطر الناس عليها، ولم يسبق لجماعة، أو قوم، أو شعب أن كان غريباً عن فطرته، أو خارجاً عن ذات نفسه مهما كان بدائياً، وكما يقول ول ديوارنت: «**لا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعمّ البشر جميعاً اعتقاداً سليماً، وهذه حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية، إذ لا يكفي المؤرّخ أو الفيلسوف أن يعلم عن الديانات كلها أنها مليئة باللغو والباطل، لأنه معنيٌّ قبل ذلك، بالمشكلة ذاتها، أعني مشكلة العقيدة الدينية من حيث قدم ظهورها ودوام وجودها، فما أساس هذه التقوى التي لا يمحوها شيء من صدر الإنسان**»[2]. وقد رأينا سابقاً فيما عرضنا له في موضوع خلافة الإنسان وكماله لما ذكره علماء الانتربولوجيا أن الإنسان ما كان ليؤمن بالوحي لو لم يكن مركوزاً في

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨، ج١، ص٩٩.

نفسه شيء من هذا الوحي، وهذا الشيء هو فطرة الإنسان وعنصر النور فيه، الذي يحمله على تقبّل الوحي، وهو ما عبّر عنه الإسلام بالشهادة لله تعالى في عالم كونه قبل أن يكون على ما هو عليه في عالم الشهادة والخلق والإيجاد. ولعل ما ذهب إليه «**ولتر ستيس**» في حقيقة الدين قريب مما أجمع عليه علماء الأديان قديماً وحديثاً وهو كلام معبّر عنه لجهة تأكيده على أنه يمكن أن تجد مجتمعاً، أو عصراً لا علم فيه ولا نظام، ولا انتظام أفكار في الاجتماع والسياسة والثقافة، ولكن لا يمكن أن تجد مجتمعاً، أو عصراً لا دين فيه[١].

فالدين هو حقيقة ثابتة، وعنصر أساسي في تكوين الإنسان، وقد عرّف أرسطو الإنسان بأنه حيوان ناطق[٢] وعرّفه هيغل بأنه حيوان متديّن، والإنسان وحده الذي يكون له دين[٣]، هذا فضلاً عمّا ذهب إليه علماء الأديان بأنّ الدين شيء فطري في النفس البشرية، إلى غير ذلك من التعريفات التي لخّصها الدمغاني في قاموس القرآن في خمسة أوجه[٤] وفصّلها العلاّمة الطباطبائي في تفسير الميزان، بقوله: إنّ الدين في عرف القرآن أعمّ من الشريعة والملّة وهما كالمترادفين مع فرق من حيث العناية اللفظيّة، أو هو السنّة الاجتماعية الدائرة في المجتمع، وهذه السنّة إمّا دين فطري وهو الإسلام، أو دين منحرف عن دين الحق وسبيل الله[٥].

وهكذا، فإنّ القرآن يبيّن معنى الدين بما هو توحيد وتسليم لله تعالى، وهذا البيان

---

(١) يرى «ولتر ستيس»، لا يزال في استطاعتنا أن نقول أن صورة العالم عند رجل العصر الوسيط قد سيطر عليها الدين، في حين أن صورة العالم عند رجل العصر الحديث قد سيطر عليها العلم، لكن ذلك لا يعني بالطبع أنه لم يكن هناك خلال العصور الوسطى ما يمكن أن نطلق عليه اسم العلم، ولا نقول إنه ليس ثمة دين في عصرنا.. فالدين حقيقة كامنة، فقد يغيب كل شيء في الإنسان ويظهر الدين على أنه كل شيء، لأن يوم الدينونة حاكم على حركة الإنسان منذ بداية الخلق إلى أن يدان في الأعراف أو في العذاب الأبدي.

را: ولتر ستيس، الدين والعقل الحديث، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨، ص٥٤، ٥٥.

(٢) را: هيغل، موسوعة العلوم الفلسفية، ت. إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٣، ص٤٧ـ٤٨.

(٣) م. ع، ص٤٨.

(٤) را: الدمغاني: قاموس القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٥، ص١٧٨.

(٥) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج٩، ١٩٩٠، ص١٧٢.

ليس مجرّد تعريف للدين لكونه وحياً من الله تعالى، وكاشفاً عمّا لهذا الدين من معنى في نفس الإنسان وفطرته، فإذا ما كان هذا البيان تعريفاً، فإنّه قد يلتبس هذا البيان ليكون موضع قبول أو رفض أو تساؤل، في حين أن الوحي هو الكاشف عن معناه، والمبيّن لحقيقته من حيث هو فطرة لا تبديل لها، ولهذا نرى أن علماء التفسير قد أخذوا على الباحثين مسلكهم في تعريف الدين أو غيره، إذ إنّهم يلجأون إلى وضع التعريفات ثم يشرعون في إثبات صحّة ما يضعونه مسبقاً من تعريفات، فيكونون أسرى ما وضعوه، ومثاله على ذلك، أنّ الدين قد يعرّف بأنه عبارة عن الشيء الذي أوجده الحكام لتخدير الشعوب، أو هو انعكاس عمل الإنسان الابتدائي مقابل قوى الطبيعة، أو هو الدهشة مقابل حدث ما، أو غير ذلك مما عُرِّف به الدين، وتكون النتيجة اعتماد المقدّمات، وإقامة الاستدلالات من أجل الوصول إلى التعريف[١].

ولا شكّ في أن هذا ليس من نهج القرآن، لأن الله هو خالق الإنسان، وعالم بما هو عليه في ذات نفسه؛ فلا يكون بيانه تعريفاً، ولا كشفه تخميناً، وإنما هو بيان علم وحق شهد له الإنسان في نفسه، وعبّر عنه في سلوكه، وقد جاءت الشرائع والعقائد متوافقة مع ما فطر عليه الإنسان بحيث يكون سبيل الهداية متاحاً له، وقادراً عليه، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[٢]، فكان الإسلام هو الدين الذي ينتمي إليه الإنسان في ذات نفسه قبل أن تكون له تعبيراته الاجتماعية والإيمانية والإنسانية، ولقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٤].

وانطلاقاً من ذلك، نرى أن القرآن هو هداية إلى هذا الإسلام، بما هو دين

---

(١) م. ع، ص١٧٢. وقا: مع الفضلي، عبد الهادي، أصول البحث، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، دار المؤرّخ العربي، ط١، ١٩٩٢، ص١٢ ـ ١٦.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

ينتمي إليه الإنسان الآدمي دونما اعتبار لزمانه ومكانه وتاريخه، وهذا ما دعا إليه الأنبياء أقوامهم بأن يكونوا مسلمين لله تعالى ومنقادين له. وطالما أن للإسلام هذا المعنى، وهذا الدور في حياة الإنسان، فإنّ الرسالات السماوية قد أرشدت إلى سبيل الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، إذ هي لم تلغِ ديانة، ولم تُنهِ نبوّة، بل أكملت الناموس كما في تعبير الإنجيل، وهيمنت بالقرآن بالحفظ والرعاية والصون لكل الديانات، وهذا ما عبّر عنه الإنجيل بالقول: «**لا تظنّوا أني جئت لأنقض الناموس، أو الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأُكمل...**». . وهذا دليل على تتابع الرسالات، وتواصل الهدايات إلى البشر من خلال الرسل والأنبياء، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[1].

إنّ مقتضى الدين، والحوار في هذا الدين، أن نكمل الناموس، وأن نقبل الآخر، وأن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وأن تتواصل البشرية والأديان بالإسلام، بحيث يكون هذا الدين أساساً ومنطلقاً في تحقيق السعادة والفوز في الدنيا والآخرة، فلا تكون هناك خسارة، ولعلّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ هادف إلى تبيان معنى الالتزام بهذا الدين والتعبير عنه عملياً في حياة الإنسان ليخرج به من الظلمات إلى النور، لأنه إذا لم يخرج من الظلمات بنور هذا الدين، فلن يكون له فوز، بل خسارة محققة في الآخرة إن لم تكن في الدنيا والآخرة معاً. ولكن عدم الإشارة إلى الدنيا في الآية المباركة، لا يُعطى الإنسان فرصة أن يحقق هذه الخسارة لنفسه أو للآخرين، أو أن يعمل بخلاف ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ إلى غيرها من الآيات القرآنية التي تنهى الإنسان عن العدوان، وتدعوه إلى الدعوة بالحسنى.

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

ولا شكّ في أنّ ما جاءت به الرسالات السماوية قبل القرآن ينطوي على هذا المعنى الحواري بغضّ النظر عمّا أفادته التجارب الإنسانية لجهة الادعاء بأنّ الدين هو ما تراه هذه الجماعة أو تلك، وقد بيّنا في بداية بحثنا ما آل إليه أمر المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ من تعصّب وتفرّق وادعاءات دينية لا برهان لهم بها! وهكذا الحال كان مع الأمم السابقة على الإسلام إذ كانت كل فرقة، وكل أمّة تدّعي نهاية الدين عندها، وتمتنع عن الحوار مع الآخرين بدعوى أنّهم كفرة أو خارجين على الدين، وغالباً ما كانت النتائج السياسية والاجتماعية والثقافية متناسبة مع هذه الدعوى الباطلة.

إذن، الدين هو الإسلام بما هو تسليم لله تعالى، وقد أمر الأنبياء جميعاً أقوامهم باتباع الحق، وإقامة العدل، والمجادلة بالتي هي أحسن، والتعصّب للحق والعدل، واحترام حقوق الإنسان، والتي أهمها حرية المعتقد، لأنّ مقتضى التنوع في عالمي التكوين والتشريع كما يتبيّن لاحقاً أن يتحوّل البشر وفق إرادتهم وحريّاتهم، وأن يحتكموا إلى قوانين السماء، وإلى كليّات الأديان والشرائع فيما أمرت به ونهت عنه بمعزل عن سائر التفاصيل التي راعت بها الشرائع ظروف ومعطيات الحياة الإنسانية، هذه الظروف التي خصّها الله تعالى بالشرائع المناسبة لها في ضوء إمكانيات الإنسان العقلية والنفسية، وهذا ما كانت عليه منهجية الأنبياء في تحقيق الحياة العملية للناس. أما الدين بما يختزنه من تعاليم ووصايا، وبما يدعو إليه من حوار عقلي ومنهجي، فهو مما لا يختلف عليه أحد، لأنه دين الفطرة والحوار والمحبة والتسامح والكلمة الطيبة. وقد سبق أن بيّنا معنى أن تكون للإنسان كرامته وحريته من حيث هو إنسان ينتمي إلى الله تعالى ويكتفي به.

إنّ الدين بما هو فطرة وبما هو انتماء إلى الله تعالى يهتف بالحوار ويدعو إليه، واختلاف الشرائع، وتعدّد المناهج والطرائق في الحياة لا يمنع من التعبير عن هذا الانتماء، الذي هو جوهر إنسانية الإنسان. وإذا كانت الشرائع قد اختلفت وتعدّدت

وتباينت في أحكامها، فذلك هو أحد أوجه التعبير عن هذا الدين، الذي خصّ الله تعالى الإنسان به، ولكنه تمايز في ضوء ما كان عليه الناس من تحوّلات اجتماعية وإنسانية وثقافية...

إنّ الله تعالى في كتبه، ومن خلال رسله أرشد الإنسان إلى سبيل سعادته وفوزه في الدارين، ولكنّه ترك له حريّة الاختيار ولم يكرهه على الإتيان بما هو حق وعدل، لأنّ الإنسان له قدرة التمييز والتفكير بعد أن تبيّن الرشد من الغيّ، وهو في ضوء تجاربه وقبل ذلك في ضوء إيمانه لا بدّ أن يهتدي إلى ما ينبغي أن يكون عليه من إيمان وتسليم واعتقاد سليم، ولعلّ من أهم ما يدلّ على ما نذهب إليه هو دعوة الدين الحوارية التي جسّدها الأنبياء مع أقوامهم، إذ ندرك تماماً كيف أنّ الأنبياء قد تسلّحوا بالحجّة، واعتمدوا على منطق العقل، واستندوا إلى منهجيّة الحوار في قبول، أو رفض ما يُعرض لهم من أفكار وقضايا، ولهذا نجد الرسالات السماوية تركّز على رفض المنهج التقليدي[١]، الذي اعتاد عليه الناس، وهذا ما يبدو واضحاً وجليّاً في دعوة الأنبياء، وخاصة في أمثال الإنجيل والقرآن...

فالحوار الديني هو من متمّمات إنسانيّة الإنسان، ومن ضرورات التحققات الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع الإنساني، وحيث انعدم هذا الحوار، كان التعصّب والنفي والجهل، وغير ذلك مما جاءت الأنبياء لتحرير العباد منه. وما لم تتحقّق المجتمعات الإنسانية بهذا الحوار الديني المنفتح، والقائم على قوانين الفطرة، وإذا لم يُحتكم إلى شرع الله تعالى فيما دعا إليه وحضّ على اتباعه، فإنّ شيئاً من التواصل الإيماني لن يتحقق، وسيبقى الإنسان رهين تعصّبه ونزواته كأنّه لا نبيٌّ جاء ولا وحي نزل[٢]...

---

(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]..

(٢) ليس عجباً أن نقرأ في تاريخ المسلمين عن بعض الحكومات أنها ردّدت وأنشدت: «لا نبيّ جاء، ولا وحي نزل»، وهذا يكشف مدى ما وصلت إليه مستويات البشر في الحكم والدين والسياسة.

را: إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، عالم المعرفة، ص١٨٣.

ب ـ القرآن ومنطق الحوار

تبيّن لنا فيما سبق أن الدين ليس مجرّد حالة شعورية، أو طقوسيَّة، وإنما هو عنصر ملكوتي، على حدّ تعبير مطهّري، في كيانية الإنسان، وفطرة فطر الناس عليها، وقد بيّن القرآن الكريم معنى أن يكون الدين توحيداً لله تعالى وتسليماً له وتصديقاً به، وكان أول تعبير عنه في شهادة الإنسان وقوله «**بلى شهدنا**»، ومن هذه الشهادة تحول الإنسان عن كونه مفطوراً على إدراك الحقائق من دون الحاجة إلى أي استدلال، ليكون إنساناً مكلفاً في عالم تحققه الوجودي والمعرفي في أجواء النبوات والشرائع، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1].

وإذا كان لا بدّ من محاورة القرآن في معنى الدين، وفيما يكون له من معنى في حياة الإنسان، فإنّ ذلك يقتضي منّا أن نستنطق القرآن لنتعرّف إلى حقيقة ما يراد بالدين من حيث هو فطرة ومنهج، فنقول: إنّ الدين بما هو تسليم لله تعالى، وبما هو عقيدة وشريعة يهتف بالحوار ويدعو إليه، لما للحوار من معنى وأثر ودور في قواميّة الإسلام ، بما هو عقيدة وشريعة ونظام حكم، فالحوار هو متنفّس حريّة الإنسان في التعبير عن وجوده، وفي تحقيق مسؤولياته، فإذا انتفى الحوار الديني كان الاستبداد والقهر والإكراه بديلاً له، وكما تعلّمنا من القرآن، أنّ حقيقة الأمانة التي حَمَلَها الإنسان لم تعرض أصلاً على الإنسان، بل طلبها هو لقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2]، فالإنسان مارس الحوار في الحصول على الحريّة، ووجود الحوار هو دليل على تحقق هذه الحرية، ولهذا، قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[3]، وهذا ما يمكن تلمّسه بوضوح من حوار القرآن مع أهل

(١) سورة طه، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

الكتاب ومع الكافرين، ومع مشركي مكة، حيث نجد القرآن يركّز في مفرداته على السمع والبصر والعقل والأفئدة، ويدعو إلى المنهج القويم، وكل ذلك إنّما كان من القرآن لإثارة الإنسان وجعله على بصيرة من أمره، سواء في دينه أم في دنياه، هذا فضلاً عمّا دعاه إليه من حوار وتأمّل وتساؤل حول الخلق والوجود لتلمّس الحكمة في حركة وجوده وتحوّله على خطّ من أين وفي أين وإلى أين، باعتباره إنساناً عاقلاً وهادفاً في حركته الإيمانية وفي ممارسته للحريّة[١].

إنّ القرآن يخاطب الإنسان، ويدعوه إلى الكدح في الحياة من خلال ما أمره به ونهاه عنه، ولا شكّ في أنّ من تعابير هذا الكدح هو الحوار والاستجابة لنداء الله تعالى، لتكون له الحياة، وإذا كان القرآن قد أكثر من استعمال العقل والقلب والسمع والبصر، فذلك إنّما يمكن فهمه في سياق تحمّل المسؤولية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[٢]. ولهذا نجد أن القرآن يذمّ أولئك الذين لهم آذان ولا يسمعون بها، وقلوب لا يفقهون بها، واعتبرهم كالأنعام أو أضلّ سبيلاً، وهذا ما يدلّ على أن الهدف من تركيز القرآن على مسؤولية الإنسان في إطار ما يمارسه من حرية، وما يملكه من إمكانات وقدرات، ويتمتع به من كفاءات علمية وعقلية، هو إعطاء الإنسان حيّزه الوجودي، وتميّزه العقلي ليكون إنساناً كادحاً إلى ربّه، ويأتي الحوار القرآني مع الناس في سياق هذه المسؤولية التي يتحمّلها الإنسان فيما يكتسبه من خلال الجوانح والجوارح، وإلاّ فما يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[٣]، فيما لو تجاهلنا دخالة جوارح وجوانح الإنسان في إطار ما يتحمله من مسؤولية حوارية مع أخيه الإنسان،

(١) جاء في الحديث: «رحم الله امرءاً عرف نفسه وعلم من أين وفي أين وإلى أين» وفي شرح هذا الحديث قال العلاّمة اليزدي: «إنّ من أراد أن يكون إنساناً فلا بدّ أن يفكّر في حقيقته ما هي؟ ومن أين جاء؟ ومن أيّ مبدأ وجد؟ ونحو أيّ مقصد ومنزل هو متّجه؟ ولا بدّ أن يعرف ماذا يجب عليه أن يعمل لتصبح لديه رؤية كونية واقعية وإيديولوجية صحيحة». را: اليزدي، محمد تقي المصباح، الإيديولوجية المقارنة، م. س، ص١٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

وفي دائرة الإنسانية الكبرى بمعزل عمّا ينتمي إليه هذا الإنسان، أو ذاك من شريعة، أو طريقة في التعبير عن نفسه أو عن معتقده.

لذا، فإنّ معنى أن يتحمّل الإنسان المسؤولية، وأن تكون له حريّة في طلب ما يريد وفي حمل ما يريد، كما أسلفنا، معناه أن لا يقتصر دور الإنسان على اعتبار الدعوة القرآنية والحوار القرآني حواراً خاصاً به، أو مقتصراً عليه من حيث هو إنسان ينتمي إلى الإسلام ويعمل بشريعة القرآن، لأنّ دعوة القرآن تتجاوز كون الإنسان منتمياً إلى القرآن إلى الناس كافة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾[1].

وهذا ما ينبغي أن يكون موضع تأمّل وتدبّر عند المؤمنين والباحثين في الشؤون الإسلامية، ولعلّ من أهمّ ما يمكن التدبّر فيه، هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا...﴾[2]، فالآية، كما نلاحظ، تدعو إلى الحوار من موقع أهل الكتاب، وعلى أساس الوحدة والاتحاد، فهي تقول لهم: إنكم تزعمون أن اعتقادكم في الله تعالى لا ينافي التوحيد.. فتعالوا نضع يداً بيد لنحيي هذا المبدأ المشترك، ونتجنّب كل فهم أو تفسير يؤدّي إلى الشرك، والمُلفت للنظر، كما يقول الشيرازي في تفسير الأمثل، أن الآية تؤكّد موضوع التوحيد في ثلاثة تعابير مختلفة، فذكرت ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وفي الجملة الثانية ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾، وفي الثالثة: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾[3].

كما نلاحظ أيضاً أن الآية لا تفرض حواراً بالإكراه، وإنما تدعو إليه من موقع أهل الكتاب وإنسانيتهم، وبالتساوي معهم، ومن موقع حريّتهم وإيمانهم بالله تعالى، الذي يقتضي منهم أن يكونوا على مستوى المسؤولية الإيمانية، فيعملون أبصارهم وقلوبهم وعقولهم وأسماعهم، بحيث يستجيبوا لنداء الله تعالى. فالقرآن لا يدعوهم

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

إلى حوار سلبي من موقع كماله وتمامه وخاتميته وهيمنيّته، وإنما يدعوهم ليكونوا أحراراً في الاستجابة لنداء عقولهم وقلوبهم، فيستجيبوا لدعوة الحوار القرآنية، ويعقلوا عن الله تعالى فيما يدعوهم إليه من حقّ وإيمان.

والحق يُقال: إنّ القرآن لم يخرجهم عن كونهم بشراً، ولم يُنظر إليهم على أنهم ناقصوا الأهلية، كما أنه لم يأتهم من عليائه لإشعارهم بنقصان الإنسانية، وهوان الاعتقاد وتسافل المقام، بل دعاهم إلى الكلمة السواء، الكلمة الحوارية المشبّعة بروح الإيمان والانتماء، فإذا كانوا على انتماء حقيقي لله تعالى، عالمين بحقيقة ما جاء به الأنبياء في التوراة والإنجيل، فذلك يستدعي منهم، ومن موقعهم الإيماني أن يستجيبوا للنداء القرآني، فيقيموا معه لغة الحوار للابتعاد عن الشرك والإلحاد. وقد حصل في تاريخ الإسلام أن تحاور رسول الله مع نصارى نجران، وقبل ذلك مع المسيحية في الحبشة[١] ومع اليهود على حدود يثرِب[٢]، وجادلهم بالتي هي أحسن، إلى غير ذلك مما كان من حوارات في العقيدة والسياسة، كما جرى في تحالف وتعاقد المسلمين مع اليهود من خلال صحيفة المدينة التي نصّت على أن يكون لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين[٣]...، وكان من شأن هذه الصحيفة أن تحقق اجتماعاً سياسياً ودينياً ناجحاً لولا أن اليهود أفسدوها وانقلبوا عليها[٤].

---

(١) بدأ الجدال في الحبشة بين الإسلام والمسيحية، ثم أتى وفد من نصارى نجران إلى المدينة وجادل النبي، فدعاهم إلى المباهلة، فأبوا ذلك بعد أن رأوا الرسول يأتي بأهل بيته بعد أن صاح القرآن فيهم صيحته الرهيبة بقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ...﴾ [آل عمران: ٦١].

را: السبحاني، جعفر، سيد المرسلين، دار البيان العربي، بيروت، ج١، ١٩٩٢، ص٢٥٠.

(٢) بدأ الجدال على حدود يثرب بين المسلمين واليهود، وكانوا يجادلون بغير حق ويستفتحون على المشركين العرب بمجيء نبي جديد فلما أتى النبي أنكروه، وكانت النتيجة تحوّل الجدال إلى اشتباك عنيف مع اليهود وذلك بسبب خروجهم على العهود والمواثيق، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]، هذا فضلاً عن تآمرهم مع قريش على الإسلام والمسلمين، وهذا ما سيكون موضع بحث وتأمّل في البحوث المقبلة إن شاء الله تعالى.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، دمشق، ص١٢٤.

(٤) السبحاني، جعفر، سيد المرسلين، م. س، ج١، ص٢٤٤.

غاية القول: إنّ الدين بما هو تعبير إيماني فطري عملي لا بدَّ أن يكون له انعكاس في السلوك والتعبير الحياتي للإنسان، بحيث يكون التطبيق حاملاً لخصائص هذا الإيمان. وبما أن الدعوة الإلهية، كما جاء بها القرآن قد تمّت مع أهل الكتاب، ومع سائر الشعوب والقبائل، فإنّ ذلك يؤكد حقيقة ما يبتغيه القرآن من الحوار، سواء في مسائل الدين، أم في مسائل الدنيا.

وقد بيّن القرآن أن أزمة أهل الكتاب، سواء اليهود أم النصارى، لم تكن مع القرآن ككتاب لا يؤمنون به، وإنما كانت مع التوراة والإنجيل، كما بيّن الله تعالى في قوله: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾[1] وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2]. إلى غير ذلك من الآيات التي تحثّ أهل الكتاب على الحوار وتدعوهم إلى الإيمان، ولكنهم كانوا دائماً يتربّصون بالمسلمين الدوائر، وهذه الدعوة إلى الحوار كانت وستبقى قائمة، لأنّ ما يُؤسس له القرآن في حياة الإنسان يبقى قائماً ومستمراً إلى يوم القيامة.

ولهذا، فإنّ قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ...﴾ لا تزال دعوة حيّة وستبقى ما دامت السموات والأرض، وهي دعوة إلهيّة يمتثل لها المسلمون في حاضرهم ومستقبلهم. وإذا كان هناك من يصرّ على المفاضلة بين الأديان ليمتنع عن الاستجابة لدعوى الحوار، فذلك دليل عن أن من يدعُ إلى ذلك لم يحسن الانتماء إلى دينه، فأحرى به أن يكون عاجزاً عن الانتماء أو المفاضلة، لأنّ الدين الإلهي بما هو عبادة لله وتسليم له لا يختلف بين دين وآخر، ولا بين شريعة وأخرى من حيث الأثر والغاية ونيّة الالتزام، التي هي أساس في حركة الانتماء، وكذلك هي نيّة حقيقية في مسعى الحوار إلى التي هي أحسن.

ومن هنا، فإننا نرى أن ما يذهب إليه بعض الباحثين لجهة الدعوة إلى التوحيد

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

والتوفيق بين الأديان والمذاهب، هو أمر في غاية الأهميّة، بل هو أكثر من ضروري بعيداً عن مساعي الطمس الديني، وذلك كلّه يبقى مشروطاً بحقيقة الانتماء إلى الله تعالى، لكونه الأساس في إنجاح أي مسعى توحيدي، وفي تحقيق الحوار الديني البنّاء، الذي يؤدّي إلى أن يكون أهل الإيمان في طريق التفاعل والتواصل لما فيه خير الدين والدنيا. أما الحقيقة، فهي خلاف ذلك تماماً، حيث نجد أنّ أكثر من يدّعي الدين والإيمان يختار دينه في ضوء المصالح والالتزامات المادية. فلا يستقرّ على قرار، وهو على استعداد دائم لإخلاء الديار كمن يحمل متاعه على كتفه رجاء ربح هنا، أو فوز هناك. والمطلوب، كما يرى أهل الإيمان والالتزام، ليس أن يبدّل المرء دينه، بل أن يقبل الآخرين على دينهم، وهذا يقتضي قيام أهل الإيمان في كل دين، بحيث يعمل كل منهم على تفسير دينه انطلاقاً من الإنسانية الواحدة، ووصولاً إلى الإنسانية الواحدة والدين الواحد، فلا يفاضل بين الأديان ولا يفرّق بين الأنبياء، لأنّ الدين واحد كما قال الله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...﴾[2] وإذا كان من أمثولة يجدر أن يتعلّمها أهل الإيمان واللاهوت والقداسة في عصرنا الحاضر، فهي أن المسيح ومحمداً وسائر الأنبياء والرسل جاؤوا لا ليجعلوا من أتباعهم مسيحيين، أو مسلمين بالمعنى اللفظي أو الشكلي أو الاسمي للعبارة، بل ليجعلوا منهم أناساً مخلَصين[3]، وإذا ما شئنا التعقيب، فنقول: ليكونوا أناساً منتمين إلى الله تعالى، كما جاء في القرآن: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾، بلى هو الكافي في دينه وشريعته، في الدنيا والآخرة، ومن شاء

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) انظر: صعب، أديب، المقدمة في فلسفة الدين، دار النهار، بيروت، ١٩٩٤، ص٤٣. فهو يرى أن الوثنية الحقيقية ليست في تأليه الشمس أو القمر، بل في تأليه الذات الفردية... فالسقوط الأعظم هو في الاكتفاء الذاتي، وبالتالي، هو في محاولة الإنسان أن يجعل من أفكاره ونزواته وأهوائه وبقضائه وموته ربّاً يفرضه على الآخرين، وقد أدركت الأديان كلها هذا الخطر.

اتخذ إلى ربّه سبيلاً، فيكون مخلصاً لله تعالى في دينه، ومسلماً لله تعالى في أمره ونهيه. كما قال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١].

ثالثاً: الأديان وأصول الإيمان

إذا كانت أصول الإيمان لم تختلف في مفرداتها، وتراكيب ألفاظها إلاّ أنها غالباً ما اختلفت في مضمونها وتعبيراتها ومدلولاتها، حيث نجد الأديان السماوية تُفرد للتوحيد والإيمان بالله تعالى جوهر وجودها، وتُعطيه خلاصة روحها. إنّه التوحيد الذي تميّزت به الرسالات، وتجوهرت به العبادات. قدّمته الرسالات على أنه أصل في الدين، وروح في اليقين، فاختلط في نور الفطرة، واهتدى إليه العقل، فكان للإيمان سرّاً، وللحياة سبباً، وللإنسان خلاصاً.

لقد نادى الإسلام بأن الدين واحد، وأن التوحيد هو رسالة كل نبيّ ومصدر بعثه. وبما أن الأنبياء جميعاً قد حملوا مشعل التوحيد، ونادوا به سبباً للخلاص في أجواء الشرك والوثنية، فإنّ هذا التوحيد، كأصل من أصول الإيمان، لم تكن له مضامينه الواحدة، ومدلولاته السامية عند أهل الأديان، فانقلب أكثرهم على روحه، فأخرجوه عن كونه واحداً ليكون توحيداً خاصاً بهذه الملّة أو تلك، خلافاً لما جاء الأنبياء من تنزيه وتقديس، وكان أول من التبس عليه التوحيد، ومال به الهوى عن جادة اليقين؛ هم اليهود الذين آمنوا بإله واحد، ولكنهم مزجوا الألوهيّة بالتجسيم والتشبيه، وانضووا على غلوّ في الدين والإيمان، فلم يحافظوا على الديانة التوحيدية كما جاء بها النبي موسى ولم يخضعوا، كما يرى المتخصصون في تاريخ اليهود، لقوانين التلمود خضوعاً تاماً[٢].

إنّ أهمّ ما يمكن التركيز عليه في هذا البحث، هو أن أصل التوحيد لم يختلف بين

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

(٢) را: النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي، م. س، ص٦٤.

الأنبياء والأوصياء، وإنّما الأهواء البشرية والمنازعة الشخصية، وخاصة منازعة الأحبار، هي التي أخرجت التوحيد وأصول الإيمان عن صفائها، وقد ردّ القرآن على مذاهب اليهود والنصارى في كثير مما ذهبوا إليه وأصّلوا له على مستوى الاعتقاد، معلناً رفضه لكل تفسير وتأويل لا ينسجم والعقيدة القرآنية. وهذا ما بيّنته السيرة النبويّة للرسول فيما عرضت له من مناقشات مع يهود يثرب خاصة. وإنّ أدنى تأمّل فيما جاء في القرآن، لا بدَّ أن يكشف عن مدى اهتمام القرآن بالعقيدة الخالصة لله تعالى بعيداً عن ما زعمه اليهود من ألوهيّة خاصة بهم لا تنسجم وروح الدين والتوحيد، ولا شكّ في أن أهم نقطة يختلف بها اليهود والنصارى في مجال الإيمان هي مسألة التوحيد الذي بيّن القرآن الكثير من المزاعم بشأنها، هذا وقد بينّا في بحثنا السابق كيف أن القرآن يدعو أهل الكتاب إلى الكلمة السواء، التي مفادها ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً. ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، وهي من الآيات الغرر التي تجيب على تساؤلات أهل الإيمان فيما يتعلق بأصل من الأصول الكبرى في العقيدة الدينية.

كما أن المسألة التوحيدية ليست هي المسألة الوحيدة التي اختلف بشأنها أهل الإيمان، وذهبوا فيها مذاهب شتّى، بل يُضاف إليها ما ذهب إليه اليهود خاصة بشأن النبي موسى عليه السلام [1] إذ رأوا فيه نبيّاً جبّاراً همّه القتل والقتال، لا إنسانية فيه وتحرّكه العاطفة اليهودية، في حين نجد القرآن يُعطي موسى عليه السلام كامل المعنى الإنساني، وهذا يكشف لمتأمّل بصير كيف أنّ رسالة الإسلام قد صحّحت الكثير من

(١) إنّ التوراة المتداولة اليوم ليست توراة الله بإجماع المؤرّخين وعلماء الأديان قاطبة، فهي تصوّر أنبياء بني إسرائيل بصورة مشوّهة، وتنزع عنهم الحكمة، بل تردّهم إلى درك الحيوانية والشرك والارتداد عن الإيمان، وهذا ما ورد في سفر التكوين أن لوطاً زنى بابنتيه، وأن داود زنى بامرأة أوردیا، كما جاء في سفر صموئيل الأول، إلى غير ذلك مما ورد عن الأنبياء في التوراة المتداولة، ويكفي أنها تحدّثت عن النبي موسى كقاتل ومجرم؛ هذا فضلاً عمّا يذهبون إليه من ادعاءات بأنهم شعب الله المختار. ولا شكّ في أن القرآن قد فنّد ما زعمه اليهود وكشف زيف أحبارهم في كثير من الآيات المباركة.

را: محمود بن شريف، اليهود في القرآن، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص٣٨ وما بعدها.

المفاهيم، وأظهرت الكثير من الأحداث والوقائع النبوية، إذ لم يقتصر التبيان فيها على أصول الإيمان، بل تجاوزت ذلك إلى التجربة لتصحيح المسار البشري بعد أن شوّهه اليهود بوحي من أحبارهم لخدمة مآربهم الشخصية ومنافعهم الدنيوية.

وطالما أن مرتكز هذا البحث هو أصول الإيمان، فلا بأس أن نعرض لما هو مشترك في مسيرة الأديان، بعيداً عن تشابه المفاهيم، وكل ما اختلف بشأنه من نظريّات دينية بدءاً من أصل التوحيد، وانتهاءً بالصفات الإلهية التي لا يمكن مقاربتها بموضوعية تامة إلاّ إذا أخذ الباحث طريقه إلى البحث فيما رآه اليهود من صفات الإله الجبّار، إلى غير ذلك مما رأوه في مجال الشريعة التي لا تنسخ عندهم. فإذا كان اليهود والمسلمون يتفقون في التوحيد المطلق، وفي كونها ديناً وشريعة، إلاّ أنهم لا يتفقون فيما يذهب إليه كل طرف من تأويل في فهم التوحيد وفي الشريعة وفي النبوّة. والأمر نفسه يمكن لحاظه عند المسيحيين أيضاً لكونهم يتفقون مع المسلمين في أصل التوحيد والنبوّة، لكنهم يختلفون معهم في كثير من التفاصيل في شأن عيسى ونبوّته، وهذا ما كشف القرآن عن تفاصيله، ولولا أن القرآن قد أوضح هذه التفاصيل، فما كان ممكناً مقاربة مجالات الاتفاق والاختلاف فيما ذهبت إليه كل ديانة، سواء في مجال التوحيد، أم في مجال النبوّة، وهذا يدلّل على أن القرآن لم يقفل باب الحوار مع أهل الإيمان، كما زعم بعض الباحثين في علوم القرآن، بل قال: تعالوا إلى كلمة مستوية، كلمة عدل أن لا نعبد إلاّ الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا نجعل من بعضنا البعض أرباباً من دون الله، وهي اللطيفة التي توضّح مدى ما كان يقوم به الأحبار ورؤساء القوم من أعمال تسيء إلى الدين، ومما روي عن أبي عبد الله أنه قال: «**ما عبدوهم من دون الله، ولكن حرموا لهم حلالاً وأحلّوا لهم حراماً، فكان ذلك اتّخاذهم أرباباً من دون الله...**»[١].

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٥هـ، ج٢، ص٣١٤.

غاية القول: إنّنا لا نعدم وسيلة لتحقيق المقارنة التي تسمح لكل باحث أن يقف عند حقيقة ما هو متفق عليه ويشكّل قاسماً مشتركاً بين أهل الإيمان، ويبقى القرآن، بنظر الباحثين المنصفين، هو الكتاب الكاشف عن حقيقة الإيمان وأصوله، لأنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه تنزيل الحكيم الحميد. وإذا كان بعض الباحثين لا يرى كفاية في ذلك، بسبب ما تنطوي عليه سريرته أو عقيدته من ملابسات اعتقادية، فإنه يكفي في التوقف عند حقيقة الحوار القرآني مع أهل الكتاب. تماماً كما يتوقف أي باحث عند الكتب المقدّسة الأخرى، لاستكشاف مفردات الخطاب الديني، سواء في مجال التوحيد، أم في مجال النبوّة. وهذا هو مقتضى الموضوعية أن يقوم الباحث بإجراء مقارنة حقيقية بين مفردات الخطاب الديني لعلّه بذلك يستطيع تجلية الأمور على النحو الذي يؤدّي به إلى تحقيق المقاربة الموضوعية حول أصول الإيمان الكبرى في الأديان، بمعزل عمّا شابها ولابسها في تاريخ البشر وتجاربهم.

إنّ الذي يعنينا في هذا البحث هو ليس تفاصيل الاعتقاد وطريقة تأويل وتفسير كل طرف لرؤيته الدينية والاعتقادية، وإنّما المشتركات التي هي مبعث حياة وأمل لأهل الأديان، وخاصة إذا ما علمنا أن للعقل دوراً كبيراً في مجال الاعتقاد ولا بدّ من التأسيس عليه في مجال مقارنة العقائد، طالما أجمع علماء الأصول على أن ما يأتي به النصّ في مجال العقيدة لا يمكن اعتباره من التأسيسات، وإنّما هو من الإرشاد، وإلا كان ما يؤسس على تأسيس العقل لغواً، بل هو مستحيل لأنه يكون من باب تحصيل الحاصل[١].

أ ـ القرآن وأصول الإيمان

إنّ السؤال القديم الجديد الذي يسأله كل باحث في إطار معالجة قضايا الإيمان

(١) را: المظفّر، محمد رضا، أصول الفقه، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٩٩٠، ص٢٠٧، إنّ كل ما يرد على لسان الشرع في الأوامر في موارد المستقلات العقلية لا بدّ أن يكون تأكيداً لحكم العقل لا تأسيساً.

والحوار بين الأديـان، هو: ما هي الأسس المشتركة بين الديانات السماوية في المعتقدات الدينية؟ وما هي مواطن اللقاء بين هذه الأديان في كل ميادين الحياة؟ وكيف يمكن لنا أن نتخطّى الأحكام المسبقة التي كانت ولا تزال تفرّق بيننا؟ فهذه الأسئلة هي في الجوهر متفرّعة من السؤال الأول، ولكننا أتبعناه بأسئلة أخرى لتكون الإجابة وافية من خلال رؤية شاملة يمكن تقديمها بلحاظ كون القرآن الكريم يقدم للإنسانية حقيقة حوارية قلّما نجدها في أي كتاب آخر، وهذه الرؤية تقوم على أساس أن الله هو خالق البشر، وهو مثلما أعطاهم الخلق، أعطاهم الهداية، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]. وهذه الهداية تستتبع حتماً أن تكون هناك نبوّة وشريعة وتعاليم، لأنّه لا يمكن الفصل بين الألوهية والنبوّة لما بينهما من ارتباط عضوي، ويستحيل تصوّر ألوهيّة من دون نبوّة، أو نبوّة من دون ألوهيّة،وهذا مركوز في الفطرة ويعبّر عنه في حالات الإنسان المختلفة، هذا فضلاً عن أنه لو لم تكن النبوّة لما كان هناك معنى لأن نبحث عن أديان وحوار وأسس مشتركة بين الأديان، لأن الإنسان في ظلّ انعدام الهداية وتبليغ الأحكام، لا يكون مسؤولاً عن شيء، ولا تكون لديه خشية أصلاً من عقاب، ولا طمع في ثواب، وقد عبّر القرآن عن هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[2].

كما أنه لا يخفى على باحث متبصّر أن أهل الأديان لم يسبق لهم أن تعاملوا مع النبوات على أنها حلقات متصلة في سلسلة الهداية، ولا عُهد منهم التواصل من منطلق أن الخلاص يمكن أن يكون في ديانة أخرى، خلافاً لما جاء به الأنبياء، وهنا يبدو لنا مفارقة عجيبة، وهي أنّ الأنبياء كانوا يبلغون الأحكام إلى أقوامهم، ويرشدونهم إلى سواء السبيل، ويدعونهم إلى متابعة الشريعة والهداية مع مَن سيأتي من الأنبياء، بمعنى آخر؛ نقول: إنّ كل نبي كان يدعو أمته وقومه إلى متابعة

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

الحياة الإيمانية مع النبي الذي سيأتي بعده، كما قال عيسى عليه السلام: ما جئت لأنقض الناموس، وإنما جئت لأكمل...، وكما عبّر القرآن: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ...﴾[١]، هذا ما كان على مستوى فعل النبوة في حياة البشر.. أما على مستوى فعل البشر، فإنّهم لم ينطلقوا في وعيهم، أو في حركتهم الإيمانية في ضوء فعل النبوة، وإنّما اختاروا التصادم على التواصل، فكان كل قوم، وكل أمة من الأمم تعتبر نفسها سيدة الخلاص، ووارثة الأرض، وهادية البشر، وهذا ما يهدي إليه القرآن في قول الله تعالى: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ...﴾. فكل قوم أو ديانة تؤكّد بشكل حازم ونهائي أنها الوسيلة الوحيدة لخلاص الإنسانية دون غيرها من الديانات[٢]..!.

مما تقدّم، نعود إلى سؤالنا الأساس، وهو: هل هناك أسس مشتركة؟ ما هي هذه الأسس؟ ولعلّ السؤال الأبرز الذي يخرج إلى الضوء من رحم التاريخ والتجارب، هو الآتي: لماذا ينطلق أهل الإيمان من مسلَّمة، وهي ليست كذلك، أن فعل الله تعالى مرهون بإرادة البشر؟ ومن أين استفاد أهل الإيمان أن حقيقة الخلاص مرهونة بإرادة هذا الشخص، أو ذاك، أو هذه الديانة أو تلك؟؟ فالمسيح لم يقل إنّي أكملت الناموس، وقد بيّن القرآن في كثير من الآيات المباركة خطاب الأنبياء إلى أقوامهم من آدم إلى رسول الله ، وجوهر هذا الخطاب هو الدعوة إلى الله تعالى، إلى توحيده وعبادته، والتسليم له، والتصديق به. ولم يتبيّن من هذا الخطاب إطلاقاً أن مسألة الخلاص هي بيد نبيّ من الأنبياء، أو رسول من الرسل، فمن أين جاز لهذه الديانة أو تلك، وبشكل نهائي، أن تجزم بأن الخلاص هو رهن إرادتها، وأسير عزّتها!؟ هذا أولاً.

ثانياً: لقد تحدّث القرآن عن أصول الإيمان، ورأى فيها سبباً لجمع الرؤى وتحقيق

---

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

(٢) هناك الكثير من الآيات القرآنية التي توضّح هذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ...﴾. وقول تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ...﴾ [البقرة: ١٢٠].

الأهداف، وهذه الأصول وإن كانت مختلفة في الترجمة العملية عند الناس، إلاّ أنها تبقى أصولاً نظريّة يمكن الاحتكام إليها كونها تشكل إطاراً إيمانياً ثابتاً عند أهل الإيمان، وهي لا يمكن أن تكون موضوعاً للحوار بينهم، بل منطلقاً له، باعتبار أن التوحيد، والنبوة، والمعاد، وغير ذلك من الأصول، هي من الحقائق الكبرى في حياة المؤمنين، إن اختلفت التأويلات بشأنها كما بيّن القرآن في ما قدّمه عن أهل الكتاب، وعن اليهود والنصارى تحديداً، إذ هو أي القرآن يقدم النصرانية بنمطين مختلفين، الأول: هو النصرانية القرآنية، والثاني: هو النصرانية كما عبّرت عنها الكنيسة في تاريخها، كذلك بالنسبة لليهود، فالقرآن يقدّم صورة مختلفة تماماً كما في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ...﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[2].

إنّ عداوة بعض اليهود للمؤمنين لا تنفي أصول الإيمان، لأنّ مَن آمن منهم فقد آمن، أما من لم يؤمن واتبع هواه وانسلخ عن آيات ربّه فحاله كحال المسيحي الذي لم يؤمن والمسلم الذي لم يؤمن، ولهذا نلاحظ أن القرآن لم يحاور النصرانية القرآنية، لأنّ إيمانها جزءٌ من إيمانه، وهو يحتويها، وليس الحال كذلك مع النصرانية التي عرض لها القرآن وكشف عن عداء اليهود لها، والتي عرض القرآن لبعض عقائدها الأساسية مركّزاً على مسألة التثليث، داعياً إيّاها إلى الحوار والتعايش. فالقرآن تابع خطى الرسالات وبدأ الحوار مع أهل الكتاب مميّزاً بين اليهود والنصارى بشكل لافت، وكان حواره مع النصرانية في اتجاهين، أحدهما: يتمثّل في دعوة المسيحية إلى الإيمان به باعتناقه والاعتراف له بأنه يمثّل الكلمة الأخيرة والكاملة في التاريخ

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩.

الديني للإنسانية، وثانيهما: يتمثّل في دعوة المسيحية ـ إذا رفضت الإيمان به ـ إلى التعايش معه بعد الاعتراف به، إذ لا يمكن التعايش مع الرفض والإنكار المطلق... وهكذا ولد، نتيجة لرفض المسيحية نداء الحوار الإسلامي ثلاثة أشكال من الحوار بين المسيحية والإسلام. الأول: حوار السلاح والحرب، والثاني: حوار اللاهوت وعلم الكلام، والثالث: حوار التعايش[١].

إذن، الإسلام بتعبير القرآن، بدأ الحوار، ونداء: «**تعالوا**» خير دليل على هذه البداية، والقرآن في دعوته لم يستثنِ أحداً باعتباره الكلمة النهائية في التاريخ الديني، وهو في دعوته هذه استوعب كل الكلمات الدينية في تاريخ الانسانية، وحصّن الأصول الإيمانية بما يجعل منها أصولاً حقيقية في حياة البشر، وليس مجرّد أصول تجريدية لا انعكاس لها في الحياة العملية والإنسانية، ولعلّنا لا نخطئ القول بأن الحكمة الإلهية من وراء تفنيد مزاعم اليهود والنصارى الذين رفضوا دعوة القرآن، هي الكشف عن روحية الدين الجديد في علاقته مع الأديان السابقة عليه، وتصحيح مسيرة الحوار على النحو الذي يؤدّي إلى التفاعل والتواصل بين أهل الإيمان للحيلولة دون الوصول إلى أيّ شكل من أشكال الصراع أو الصدام بين من اعترف بالدعوة الجديدة ومن لم يعترف بها، وقد حصل في التاريخ الديني، كما بيّنّا سابقاً، أن استُجيب لنداء القرآن من قبل الكثير من أهل الكتاب، كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٣].

---

(١) إنّ القرآن، كما هو ظاهر الكثير من الآيات قد دعا إلى الحوار والتعايش. وإذا كان حوار اللاهوت وعلم الكلام قد أدّى إلى مشاحنات وبغضاء، فذلك إنّما كان بسبب ما اختاره الآخرون من وسائل للإكراه على الدين، وهذا ما تكشف عنه التجارب التاريخية لأهل الأديان قبل الإسلام وبعده.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٣ ـ ١١٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

نلاحظ أن الآية تنفي الاستكبار المانع من المودة والإيمان، وبما أن بعض القساوسة والرهبان من النصارى لم يستكبروا، فإنّهم آمنوا وكانوا أقرب مودّة لأهل الإيمان، سواء أكانوا من اليهود، أم من المسلمين، وهؤلاء النصارى هم الذين لم يجعلهم الإسلام موضوعاً للحوار معه، باعتبارهم جزءاً من إيمانه، ولم يستكبروا عن عبادة الله تعالى، لأنّ الاستكبار في تاريخ الأديان كان المانع من الإيمان، لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[1] ومن لم يؤمن بالآخرة، فهو لم يؤمن بالأولى، ولا بأيّ أصل من أصول الإيمان الكبرى، فضلاً عن فروعه. ومن هنا نرى أن النصرانية القرآنية بما هي جزء من إيمان الإسلام مثلها مثل كل المؤمنين في التاريخ الديني، استوعبت حقيقة الإيمان، واستجابت لنداء الحوار، فكانت امتداداً حقيقياً لمن كان في سفينة نوح عليه السلام، ولكل المؤمنين الذين استجابوا لنداء الفطرة والعقل. وهم إنما تواصلوا مع نداء القرآن لكونهم عقلوا عن الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه. أما أولئك الذين لم يستجيبوا لنداء القرآن، ولم يعترفوا له بكلمته الكاملة والنهائية، فيكفي أن القرآن لم يمنع من مجادلتهم والتحاور معهم إلا الذين ظلموا[2]، سواء أكانوا يهوداً، أم نصارى، أم مسلمين، وهنا تكمن عظمة الحوار في القرآن، أنه خاطب الإنسان، وأعطى الحوار بُعده في الزمان والمكان والتاريخ، ليكون أصلاً وأساساً في حياة الإنسان يتواصل من خلاله ويتفاعل به بعيداً عن التعصب الأعمى، الذي كان ولا يزال سبباً في التنكّر لحقيقة الإيمان، بما هي حقيقة حوارية تواصلية، سواء مع المؤمنين، أم مع غير المؤمنين...

وانطلاقاً مما تقدّم، نرى أن القرآن فيما عرض له من أصول إيمانية شكّل امتداداً حقيقياً لكل الديانات السماوية كما جاء بها الأنبياء، إضافة إلى ما شكّله من إضافة جديدة حيث أنه هيمن عليها وحفظها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

(١) سورة النحل، الآية: ٢٢.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ...﴾ العنكبوت: ٤٦.

﴿بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾[١]، وهنا الهيمنة لا تعني أكثر من حفظ الأصول الإيمانية التي امتدّ بها الإنسان في تاريخه الديني. وإنّ أدنى تأمّل في الحوار القرآني لا بدَّ أن يكشف عن أن الإسلام لم يأت، من حيث الاعتقاد، إلاّ بالمزيد من الحجج والبراهين العقلية التي تجعل من الإنسان أكثر قدرة على الحوار، وهذا هو ما ميّز القرآن فيما انطوى عليه من أصول إيمانية ثابتة لا يختلف عليها أهل الإيمان حقاً، وإذا كان ثمّة خلاف بينهم في هذه الأصول، فهو ناشئ عن عدم الاعتراف بكلمته النهائية والكاملة، وليس ناشئاً عن عقلية وروحيّة حوارية. وقد يكون ناشئاً عن الاستكبار في الأرض الذي يتعارض تماماً مع الإيمان. وهذا الأمر فيما لو وجد في حياة الناس، فإنّه لا ينطبق على اليهود أو النصارى، أو غيرهم. ممن تنكّروا للحوار وتخلّفوا عن النداء، وإنما هو ينطبق على كثير من المسلمين ممّن أساؤوا إلى الإسلام واستكبروا في الأرض بغير حق.

وهكذا، فإنّ معنى الاستجابة لنداء الله تعالى في الحوار، أن ينطلق الإنسان في حركته الإنسانية والإيمانية محاوراً ومتفاعلاً ومعترفاً بالآخرين، لأنّ الله تعالى لم يشأ أن يكون الناس أمة واحدة[٢]، ولو شاء لكانوا أمة واحدة، ولما احتاجوا إلى الحوار والتفاعل والتعارف، ما يعني أنه لا ينبغي لأهل الإيمان أن يتنكّروا للحوار، أو أن يعتبروا ما هم عليه هو الصواب، وما عند غيرهم هو الخطأ. فالله تعالى هو العالم بحقائق الأمور ومقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، أن يكون الإنسان حيث أمره الله تعالى، بحيث يكون نداؤه: تعالوا إلى كلمة سواء لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، فإذا ما اختلف المؤمنون، فلا ينبغي أن يكون الاختلاف تنازعاً في الدين وتفرقاً عنه، هذا فيما لو كان التنازع بين أهل الإسلام. أما إن كان بين أهل الإسلام وأهل الديانات الأخرى، فكما يقول الفضلي: «**إنّ بين الإسلام والمسيحية واليهودية مواضع اختلاف في العقيدة لا يمكن تجاوزها،**

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [النحل: ٩٣].

وليست موضع بحث ولا موضع جدل في الإسلام، كما أنها ليست موضوعاً للاجتهاد، فإنّ الاجتهاد الإسلامي إنّما هو في حقل الأحكام الشرعية لا في حقل العقائد»[١].

ب ـ الأصول الإيمانية في التجربة التاريخية

لقد تولّد عن عدم اعتراف بعض أهل الأديان بما كان يأتي به الأنبياء، وصولاً إلى خاتم الأنبياء محمدﷺ، الذي رفض دعوته اليهود والنصارى معاً. حيث تولّد عن رفضهم للدعوة الجديدة أشكالاً وألواناً من الصراعات، ولكن ذلك لم يمنع الإسلام والمسلمون من الاستمرار في الدعوة إلى الحوار بهدف تحقيق التواصل، واستمرار التعايش بين أهل الإيمان في ضوء ما جاء به القرآن من تعاليم وأحكام تلزم أهل الكتاب باحترام القوانين الإسلامية دون أن يعني ذلك التعرّض لشعائرهم الدينية ومبادئهم وعقائدهم، سواء أكانوا هوداً، أم نصارى، وقد أسهب المؤرّخون في ذكر وإظهار المزايا الإسلامية في التعامل مع غير المسلمين في بلاد الإسلام.

وبما أننا لا نروم التعرّض لما شاب تاريخ أهل الأديان من اضطراب نتيجة عدم الاعتراف بالدين الجديد[٢]، أو نتيجة منازع ومطامع المتربّصين شراً بكل دين، فقد يكون من الضروري في هذا المبحث أن نعرض لمبادئ وتعاليم القرآن في مجال الدعوة إلى الحوار، وخاصة لجهة استكشاف القواسم أو المساحات المشتركة، التي تفرض على أهل الإيمان أن يكونوا على مستوى الرؤية الدينية وما تفرضه من مسالك ومناهج في الحياة العملية، ذلك أن القرآن، فيما انطوت عليه تعاليمه، يدعو إلى الاعتبار وملامسة الواقع العملي بوحي من روح الإيمان والتعاليم التي جاء بها الأنبياء، بحيث لا يكون أهل الديانات غرباء عن الواقع، أو متعصبين لرؤيتهم الدينية على النحو الذي يمنعهم من التبصّر بما ينبغي أن يكونوا عليه من تواصل وتعايش واعتراف..

---

(١) الفضلي، عبد الهادي، مدخل إلى علم الكلام، دار الوفاء، ١٩٩٩، ص١٢.

(٢) انظر: موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدّسة، دار الأفكار، بيروت، ط١، ١٩٩١.

وكما نعلم جميعاً أن القرآن لا يحتاج إلى تاريخ، أو إلى تجربة، كيما تتحقّق صدقيته فيما يُعرض له من سنن في الحياة الإنسانية، بل هو حاكم للتاريخ وللتجربة، كما هو كاشف في غيبه وشهادته عمّا تؤول إليه الأحداث، ولقد قال عليّ عليه السلام: «**ذلك القرآن فاستنطقوه. ولن ينطق ولكن أخبركم عنه. ألا أن فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم**»[1].

إنّ معنى أن نتحدّث عن الحوار ومنطلقاته في حياة أهل الإيمان، أو عن القواسم المشتركة التي تحكم أقوال وأعمال البشر، معناه تلمّس حقيقة ما يذهب إليه القرآن في مجال تحقّقات الرؤية الإيمانية في الحياة العملية، باعتبار أن القرآن يشخّص الواقع البشري، تماماً كما يعرّف طبيعة البشر وما هم عليه من إيمان ونفاق. فالقرآن هو كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل، ولو أن أهل الإيمان استجابوا لدعوة الحوار، وانطلقوا في حياتهم في ضوء قوانينه وسننه وتعاليمه لما احتاجوا إلى أن يخوضوا التجارب المؤلمة، وهذا ما أخفق فيه اليهود تماماً في تجربتهم مع رسول الله في المدينة وخيبر، حيث إنهم تجاهلوا الدعوة وعاندوا الحق وتآمروا على الرسول ظنّاً منهم أنهم بعنادهم للحق يمكن أن يؤثروا على مسار الدعوة ومصير الإسلام، ولكنهم أخفقوا في تجربتهم، وكان لهم ما كان من حرب وفقر ونفي، وغير ذلك ممّا آلوا إليه من خسران في الدنيا والآخرة.

وهكذا، فإنّ معنى أن نستجيب لدعوة القرآن وندائه، أن نكشف المساحات المشتركة التي كان ينبغي على أهل الإيمان أن يتعرّفوا إليها قبل أن تأخذ بهم التجارب والأحداث المريرة إلى الإيمان بها، وبشكل خاص المسلمين الذين هم أيضاً وقعوا في شرك التجربة والتاريخ والأطماع قبل غيرهم من أهل الديانات السابقة! فهم، أي أهل الإيمان، بدل أن يهتدوا إلى الحوار من تعاليم القرآن إلى حقيقة التعايش

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الخطبة: ١٥٨.

والتواصل والتعارف، ويسلكوا سبيل الحوار في الطريق إلى تحقيق هذه الأهداف، نجدهم قد وصلوا إلى الحوار، وتعرّفوا إلى ضرورته بعد مئات السنين، بعد أن جرّبوا كل أشكال الحوار من حرب وعلم كلام، وتعايش بالإكراه، إلى غير ذلك من الأشكال التي لجأ إليها أهل الإيمان لتسويغ مشروعية الوجود، وتحقيق غاية المذاهب في ضوء هذه الرؤية أو تلك. وكانت النتيجةالمذلّات والخسران وضياع الأهداف، وهذا ما حذّرهم الأنبياء منه ودعوهم إلى خلافه، وخاصة القرآن الكريم الذي أكثر من نداء وخطاب يا أيها الناس، يا أيّها الذين آمنوا، يا أهل الكتاب...؟.

ولا شكّ أيضاً في أنّ ما اهتدوا إليه من قواسم ومساحات مشتركة في أصول الإيمان هو من أظهر الآيات في القرآن، وكان من شأن الإلتزام بها والتعبير عنها توفير الكثير من القدرات، وتحقيق الكثير من المكاسب في الدين والدنيا. وهنا يمكن لنا أن نوجز لما قد توصّل إليه أهل الإيمان قاطبة من حقائق وأصول بعد أن أصابتهم مساوئ الحضارة المادية، وأيقنوا أنهم قد أخفقوا فيما ادعوه من خلاص وإيمان كانوا قد وعدوا به شعوبهم في ظلّ ممارسة الطغيان الديني، الذي مُورس تحت أشكال متعدّدة من أشكال الحوار، وهي في الحقيقة لم تكن أشكال حوار بقدر ما كانت أساليب في الطغيان وممارسته القمع[١].

وهكذا؛ فإنّ معنى أن يهتدي أهل الإيمان بعد مئات السنين إلى قواسم مشتركة في أصول الإيمان، أن تعود هذه الأصول إلى الحياة العملية، بحيث يتمّ الانطلاق منها في مواجهة الطغيان المادي والسياسي، وتصحيح المسار الديني بالشكل الذي يسمح لأهل الإيمان بالتثاقف والتعارف والتعايش وفاقاً لهذه الأصول، على أن تكون أصولاً حقيقية لا مجرّد اتفاق بين أهل الأديان يسقط أمام أوّل تحاور فكري،

(١) تقدّم الكلام في أن بعض الباحثين قد أطلق على ما مارسه أهل الإيمان في تاريخهم مع المسلمين ما أسماه بأشكال الحوار المختلفة، وهذا الرأي لا يمكن الأخذ به لكونه لم يكن حواراً، وإنّما كان أسلوباً في العمل من قبل المسلمين وغيرهم لتحقيق فوز دنيوي، باعتبار أنه لا يمكن أن تكون الحرب شكلاً من أشكال الحوار، وإن كان البعض في العصر الحديث يسمّي الحرب بأنّها أسلوب في السياسة، أو أن الحرب هي وجه من وجوه السياسة، والأمر ليس كذلك لا في السياسة ولا في الحوار...

وتعارض ديني، كما سبق أن حصل في تاريخ الأديان. إنّ جوهر هذه الأصول يقتضي أن تكون ثوابت في الحركة الإنسانية وفي التعابير السياسية، فإذا لم تكن كذلك وتمّ التعامل معها على أنها ضرورات تقتضيها الحصص والمغانم، فإنّ الأمور لا تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه من شحناء وبغضاء وتمرّد وعناد، وقد أثبتت التجارب الدينية، حتى في زمن حضور النبي أن أكثر ما كان يعانيه المجتمع الديني هو حالات النفاق التي كانت ولا تزال تحول دون تركيز الأصول الدينية على النحو الذي يؤدّي إلى أن تكون هذه الأصول منطلقات للحوار، وليس مجالاً له، إذ غالباً ما كانت الفرق والمذاهب الدينية تمارس القمع الفكري والاستبداد الديني لتسويغ الرؤية الدينية، وتشويه الدعوة النبويّة لحساب المترفين والمستبدّين في المجتمع.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الأصول الإيمانية عادت في العصر الحديث لتكون قواسم مشتركة ومساحات لتلاقي الأديان، سواء عن وعي وفهم موضوعي، أم عن غير وعي، ولعلّنا لا نخطئ القول في أن هذه الأصول لم تتجاوز التاريخ والتجارب الدينية نهائياً، بل لا تزال محكومة لكثير من السوابق التي كانت سبباً في غيابها العملي لمئات السنين. فإذا كان المشترك في الأصول هو الإيمان بالله تعالى، وبأنّه الخالق لكل شيء، والإيمان بالنبوّة، واليوم الآخر، بمعزل عمّا يذهب إليه أهل الإيمان من تأويلات فلسفية وكلامية في شأنها. فهذه الأصول، كما نعلم جميعاً، هي أصول كبرى في الإيمان ولها متفرّعات مشتركة أيضاً، كالإيمان بالبعد الروحي للإنسان، وبكرامة الإنسان إضافة إلى الأخلاق الإنسانية الفطرية، وقد عاشها الإنسان وتفاعل معها في تاريخه الديني، ولكنه لم يحسن التلاقي معها. وبما أنها تعود اليوم لتشكّل محوراً للتلاقي والتحاور، فلا ندري ما إذا كانت مجالاً للحوار، أو منطلقاً له؟ فإذا كانت التجارب قد أفادت أن هذه الأصول خرجت عن كونها منطلقاً للحوار الديني، فهل هي اليوم منطلق للحوار أم مجال له؟

إنّه سؤال تبقى الإجابة عليه رهن التجربة والوعي الديني، ونحن بدورنا نشكّ

في كون هذه الأصول تشكّل منطلقاً للحوار، لأنّ أهل الإيمان لم يفرغوا بعد من تاريخهم، ويتجاهلون النداء الإلهي المتجلّي في الرسالات السماوية، والداعي إلى الحوار الصادق والتعايش بلحاظ كون الخطاب القرآني كآخر كلمة إلهيّة للإنسانية دعا إلى مجانبة الهوى، وقال تعالوا إلى كلمة سواء، فهل ثمّة ما يمنع من الاستجابة لهذا النداء؟ وكيف للمؤمنين أن ينطلقوا مجدداً في الحوار وهم لمّا يستفيدوا بعد من تجاربهم، أو أنهم يمتنعون بعناد عن سماع صوت الحق، الذي سبق له أن دعاهم إلى التعايش والجدال بالتي هي أحسن برغم كونهم لا يزالون على عهدهم بإثارة مسائل خلافية حول ما إذا كانت الكلمة النهائية هي الإنجيل، أو القرآن!!

فالخطاب القرآني هو خطاب في الزمن، وليس خطاباً خاصاً بأهل مكة، أو الحبشة، أو نصارى نجران، أو يهود المدينة وخيبر، وكان يفترض بأهل الإيمان، من وجهة موضوعية، أن يستجيبوا لنداء الحوار القرآني، كما استجاب الكثيرون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾[1]. فالآية ناظرة إلى أولئك الذين آمنوا بالقرآن واستجابوا لنداء الحوار، وشكّلوا جزءاً من حياة المؤمنين، هم لم يكونوا مسلمين، وإنّما كانوا هوداً ونصارى، وقد وُصفوا بالراسخين في العلم ما يدلّل على أنّ غير الراسخين ممّن استبدّوا وعاندوا وصلتهم الدعوة وسمعوا النداء، ولكنهم أصرّوا على المكابرة، ومن يدري أن يكون هؤلاء هم من لحقوا بالمسيح عليه السلام ليقتلوه، أو بالنبي موسى عليه السلام قبل غرقهم في البحر؟ وقد يكونون هم من لحقوا بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمنعه من إتمام دعوته، أو للحيلولة بينه وبين إقامة العدل وتحقيق الهداية. فهؤلاء ملّة واحدة، كما أن أهل الإيمان ملّة

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

واحدة. ويجدر بالمؤمنين، وخصوصاً في عصرنا الحديث، أن يكونوا على مستوى هذا النداء القرآني، فيلتحقون به، ويستمعون له للاستفادة من الحوار بعد كلّ التجارب المريرة والمهينة التي مرّوا بها، والتي أظهرت لهم أنّ أصول الإيمان لم تعدّ مجالاً للحوار على النحو الذي سبق لهم أن جرّبوه في الكلام والفلسفة وفي الحروب أيضاً، وإنّما هي كما كانت، وكما جاءت في النصّ الديني والتجربة النبويّة منطلقاً للحوار، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[1] وهو خطاب، كما بيّنا، من أعلى وكاشف عن صيرورة التحولات الإيمانية والإنسانية، وباعث على التفكير والاعتبار بالتجارب، وهذا ما لم يلتفت إليه أهل الإيمان في كثير من حواراتهم العقيمة، وكانت النتيجة الغياب عن هذا النداء، والغيبوبة عن الإيمان، بحيث ظهر الأمر وكأنه لا نبيّ جاء ولا وحي نزل. وكما قال الله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا...﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات التي تظهر حقيقة الإنسان حينما يختار أن يكون معانداً مستكبراً في تعامله مع هذا الخطاب الإلهي! وإذا كنّا في حياتنا اليوم نعود للحوار في ضوء هذه الأصول، فلا ينبغي لنا أن نكون بعيدين عن تجارب الأنبياء، لأنها كاشفة لحقيقة التحولات الإنسانية في عصر عايش الخطاب الإلهي وترجمة النبوّة له فيما دعت الناس إليه.

وانطلاقاً من ذلك، نرى أن الحوار في عصرنا الحديث، بالتأكيد، لم يعد له معنى المكابرة والاستكبار في علاقات البشر، لأن الإنسان أدرك معنى أن يكون منتمياً إلى الله تعالى وليس إلى رؤية فكرية صاغتها التجارب، وبلورتها قرائح

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٢) سورة مريم، الآية: ٥٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٣٨.

البشر، وإنما هو ينتمي إلى الله تعالى، الذي أخرجه من الظلمات إلى النور بما هيّأ له من رسل وأنبياء ورسالات، وهذا ما ينبغي أن يكون موضع تأمّل وتدبّر عند الباحثين وأهل الحوار ممن اكتووا بنار التجارب والأحداث، بحيث يعلمون أنه لا استراح مسيحي في كنف اليهودية، ولا استراح يهودي في كنف المسيحية ثم جاء المسلمون في تاريخهم البائس ليحدثوا مزيداً من التحولات السلبية في اجتماعهم الديني وحوارهم السياسي، فأضافوا فيما انتهوا إليه من فرق ومذاهب وحوارات كلامية وفلسفية، وفيما أحدثوه من صراعات فكرية وحروب عسكرية، مآسي جديدة إلى أهل الأديان كافة.

وإذا كان البعض من المؤرخين يرى بأنّ أهل الكتاب قد تنعّموا في رحاب الأموية والعبّاسية والعثمانية، واستقلّوا في ممارسة شعائرهم الدينية في ظلّ حكومات الجور والترف. فهذا، وإن كان فيه شيء من الصحّة، مقابل ما كان يتعرّض له بعض المسلمين المؤمنين، يمكن اعتباره من التلوين السياسي، الذي اعتاده المسلمون في الحديث عن محاسن موتاهم. أما في الحقيقة فلم يكن أحد يعيش حالة الإيمان كما يفترض أن يكون الإيمان والحوار، كما جاء به القرآن وجسّده أهل بيت النبوّة في التاريخ الإسلامي[1].

لقد سبق لكثير من الباحثين والمؤرخين من علماء الأديان، أن أرّخوا لمراحل الهدوء والسلام والتعايش لأهل الإيمان في التجربة الإسلامية، كما رأى العلامة

(١) نلاحظ أنه في كثير من الآيات القرآنية قد ذُكر أهل الكتاب بطريقة يستفاد منها اللين، وفي آيات أخرى يأتي الخطاب قوياً معهم، هذا فضلاً عمّا أفرد به كل من اليهود والنصارى من خطابات مختلفة ومتميّزة بالشدّة واللين، ولكن ما ينبغي التوقف عنده والاعتبار به، هو أنها إذا كانت آيات عدّة قد حملت على الأحبار الربّانيين وأولي العلم من اليهود لكتمهم الحق، وتدليسهم بالتوراة وصلف الإيمان وإلباسهم الحق بالباطل، وبيعهم دينهم وعلمهم وعهدهم بأعرض الدنيا، فإن هذه الآيات دليلاً واضحاً على أن فريقاً من علماء اليهود وقد أبى عليه علمه ودينه أن يندمج فيما تورّط به سائرهم بالردّ على النبوّة والمكابرة على صدق الدعوة النبوية والتنزيل القرآني.. هذا، ومن الحق أن ننبّه على ما في هذه الاستثناءات القرآنية من عبرة بالغة، ومَثَل رائع لتسجيل الحسنة لصاحبها والتنويه بالمحسن لإحسانه وذكر الفضل لذويه، مما يظل مصدر تلقين قرآني جليل الشأن ويدحض حجّة المغرضين...

مطهّري في «**الإسلام وإيران**»[١]، وجورج قرم في «**تعدّد الأديان**»[٢]، وأحمد شلبي في «**مقارنة الأديان**»[٣]، وأديب صعب[٤]، وشريف هاشم[٥]، وغيرهم كثير ممّن اهتمّوا بالدراسات الدينية، وقدّموا أطروحات في مجال التعايش الديني، ولكنهم لم يبلغوا مستوى الموضوعية في ما ذهبوا اليه وادّعوه، ذلك أنهم لم يميزوا بين أن يكون التعايش نتيجة لضرورات الحكم وما يفرضه من أنظمة وبين أن يكون آتياً ـ هذا التعايش ـ في سياق التعارف الديني المرتكز على أسس وثوابت إيمانية حتّمت أن يكون لأهل الأديان تفاعلات دينية وسياسية، بمعنى آخر، يمكن القول: إنّ ضرورات السياسة كانت ولا تزال تفرض نوعاً من التعايش بحسب ما يكون عليه حال أهل الإيمان من قوّة وضعف. أما التعايش الناشئ عن كون أهل الإيمان قد تعارفوا وتحاوروا على مستوى الأصول الإيمانية، واقتنع كل فريق منهم أن يقوم بما تمليه عليه إرادة الإيمان، فذلك لم يحصل، وهو لن يكون ممكناً إذا لم تحسم مسألة جدلية الحوار، بحيث يكون أهل الإيمان منطلقين في حوارهم من قناعة ذاتية بأنّ جدل الحوار غير قائم على أساس أنّ الدين هو مجال الحوار، وإنما منطلقاً له، لأنه لا بدّ من حسم المسألة الإيمانية على مستوى القناعة بحيث يسلّم كل فريق بأنّ هناك كلمة قائمة وكاملة ونهائية قد قدّمت للإنسان، وأخذت بُعدها الإيماني في الزمان والمكان والتاريخ.

وهذا كلّه كان وسيبقى مشروطاً بتحقق هذه الكلمة في حياة الإنسان، بحيث يكون لها الاعتبار في حياته، لكن للأسف حِيل بين هذه الكلمة وديمومتها فيما آلت إليه أوضاع المسلمين في تاريخهم، مما تسبّبب بإعاقة التواصل الحضاري،

(١) مطهري، مرتضى، الإسلام وإيران، عطاء وإسهام، م. س، ص٥٧.
(٢) قرم، جورج، تعدد الأديان وأنظمة الحكم، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٩٢، ص١٩٠.
(٣) شلبي، أحمد، مقارنة الأديان، م. س، مدخل إلى المقارنة، ج١، ص١٢.
(٤) صعب، أديب، مقارنة في فلسفة الدين، دار النهار، بيروت، ١٩٩٤، ص٤٣.
(٥) هاشم، شريف، الإسلام والمسيحية، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص٧٧.

وحِيل بين أهل الإيمان، وبين أن يكون لهم جسوراً للتواصل والتعارف، باعتبار أن من قام بهذه الكلمة بعد وفاة الرسولﷺ، وما عايشه الناس في العصرين الأموي والعبّاسي من أحداث وسياسات ساهم إلى حدّ كبير في ظلام الرؤية وكان له أكبر الأثر، على حركة الإيمان، هذا فضلاً عمّا أدّى إليه من انهيار لمنظومة القيم الإسلامية، الأمر الذي منع الأديان الأخرى من تقبّل الدين الجديد على النحو الذي يجعل منهم أهل مواطنة في الدولة الإسلامية، إضافة إلى ما عاينه أهل الإيمان من انتفاء للفروق بين ما هم عليه في تاريخهم الديني من استبداد واستخفاف، وبين ما آلوا إليه في ظلّ الحكومات الإسلامية، فاضطروا إلى الحوار من موقع الضعف والتسليم بالأمر الواقع، وليس من منطلق أنّ الدين الجديد هو أطروحة حياة كاملة، وهذا ما ينبغي التدبّر فيه من قبل الباحثين وعلماء الأديان، لعلّ ذلك يُسهم في إحداث تحوّل إيجابي عن الماضي بما هو سياسة استبداد واستخفاف إلى الحاضر والمستقبل في ضوء ما قدمته النظريات الدينية كما جاء بها الأنبياء. بذلك فقط، يمكن لأهل الإيمان أن يتواصلوا لإعادة ما انقطع بين الدين والمجتمع. ولا شكّ في أنّ هذا الأمر يبقى غير ممكن ما لم يعد الإنسان المؤمن إلى النظرية الدينية لتصحيح مساره الإيماني.

خلاصة البحث

غاية القول: إنّ ما أردنا التركيز عليه في هذا المبحث، هو أن لا نستغرق في التجربة التاريخية لحوار الأديان، وإنّما الكشف عن جوهر وحقيقة الدين فيما دعا إليه من حوار إنساني، والتأكيد على المعطى الإيماني في القرآن، الذي جاء بالكلمة الخاتمة والنهائية والكاملة في التاريخ الديني. هذه الكلمة التي أعطت أهل الإيمان حيّزاً من الوجود واسعاً، وفكراً من الحياة ناصعاً، ونوراً في ديمومة الإسلام ساطعاً. إنّها الكلمة التي نطقت بالحق من روح الإنسان وفطرته، وجاءت به من عالم شهادته لترشده إلى سبل السلام في طريق دعوته. ولكن الإنسان أبى إلاّ أن يكون له تجربته الإيمانية التي ضلّ فيها عن شهادته وفطرته، فضلاً عن دينه وشريعته، فكان له ما كان من التجارب القاتلة في الدين والسياسة والاجتماع، في الوقت الذي كان بإمكانه الاستغناء عن هذه التجربة الضالّة في تاريخه، والاكتفاء بنداء الحق ودعوة الحوار التي أرشد إليها الإسلام في كل الديانات والشرائع. ولعلّنا فيما ذكرنا سابقاً قد وفّقنا في ما عرضنا له من أصول إيمانية سواء من خلال النظرية أم من خلال التطبيق، وانطلاقاً من ذلك يمكن القول، إنّ هذه الأصول كانت سابقة للإنسان، ومكشوفة عنده ومُعاشة لديه، ولكن الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. فإذا كان لا غنى عن التجربة التاريخية وعن التفاعل مع الأحداث والوقائع والتاريخ الإنساني، فإنّ ذلك يبقى شرطه وأساس النجاح فيه وعي النظرية الدينية وما جاء به الأنبياء لهداية الإنسانية، لأنّ هذا الوعي فيما لو تحقّق كفيل برسم المسار الصحيح للبشرية باتجاه أهدافها، ويكفي للتمثيل على ذلك ما قاله أحد الباحثين من أن الأمّة الإسلامية لو اهتدت إلى دينها، وسلكت سبيل الحوار والدعوة بالحسنى في مبتدأ أمرها لما كانت وصلت إلى ما وصلت إليه من انكفاء

وتراجع على مستوى منظومتها الدينية، والحضارية[١]، ولكنها استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير فغربت عن ذاتها، واستحال أمرها إلى أن تكون رهينة تجاربها وأطماعها. وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «**إن أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع**»[٢].

وبحق نقول: إنّ ما جرى في تاريخ الأديان للأمم والشعوب من انهيارات على مستوى الدين والسياسة، كله ناشئ من كون هذه الأمم لم تعِ نداء السماء جيداً إذ هي جعلت من التجارب سبيلاً لتحقيق ذاتها، ودليلاً على قوة دينها. إنها أمم وشعوب اختارت التجربة سبيلاً إلى الهداية، واستبدلت الولاية بالسلطان لتجعل منه دليلاً إلى معالم الدين والدنيا، فكان الاستبداد ديناً، والحوار قهراً، والتعارف غربةً. وهذا ما جسّد حقيقة الانقلاب على الأعقاب في تاريخ الأديان، ومنع من أن يكون الدين والإيمان منطلقاً للحوار، وحال دون النجاح في تحقيق التواصل بين أهل الأديان بالطريقة الموضوعية، لأن أساس النجاح، كما نعرف جميعاً، هو أن تحمل التجارب خصائص النظريات الدينية والتعاليم السماوية، فإذا لم يكن الحال كذلك، وكانت التجربة رهن الأهواء والمطامع، فلا تلبث الأمم أن تعود القهقهري، تماماً كما جرى لأهل الإيمان في تاريخهم، سواء مع أديانهم، أو مع أنبيائهم، فهم لم يسلكوا سبيل الحوار، ولم يسمعوا النداء، فكان لهم ما أرادوا من غربة الدين. وكما هو معلوم، أن هذا ما بيّنته السنن الإلهية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، ولطالما أن أهل الأديان اختاروا غربة الذات على الإيمان، وأسدلوا ستار الظلمة على الأديان، فلا بدَّ أن يكون التحوّل وفاقاً لما اختاروه في دينهم ودنياهم.

---

(١) نحن نرى أن الأمة الإسلامية في تاريخها كان ينبغي عليها الإلتزام بالولاية لوعي ذاتها، ولكنها التزمت بالبيعة الفلتة في تاريخها، وكانت النتيجة وقوع الغيبة عام ٢٥٠هـ، العام الذي كان يفترض أن تبدأه الشورى، فحصل الانقلاب وتغيّرت فلسفة التاريخ، ولو أنها استمرّت في الولاية إلى العام ٢٥٠هـ لكانت اهتدت إلى مسالكها الهادئة وجرت على أذلالها السنن...

(٢) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: قصار الحكم، ٢١٩.

وقد سبق للإنسان أن مارس الحريّة في طلب الحريّة يوم حمل الأمانة، فكان له ما اختاره أيضاً، ولا يزال هذا الإنسان يعيش في كنف اختياره ويمعن في تجارب أهوائه ومنازعه، فكان له ما أراد من هجرة في الدين والدنيا.!؟.

وقد قال في كتابه الكريم: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، وبما أن أهل الإيمان قد شقوا وظلموا، فذلك دليل على أنهم اتبعوا الهوى، واختاروا غير سبيل المؤمنين، فكان لهم ما أرادوا، وقد تعلّقت إرادة الله في ما اختاروه بالتبع وليس أصالة، لأنّ الله يريد لعباده الكمال والهداية والسلام والكدح الإيجابي في الطريق إليه، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾. إنّ الآية تخاطب الإنسان الذي عقل عن ربّه، وسار في طريق شهادته، ولبّى نداء الحوار في الدعوة إلى ربّه، وهذا الخطاب هو من الأسرار القرآنية العظيمة باعتباره خطاباً مع الإنسان في الزمان والتاريخ، وكم كان مفيداً لهذا الإنسان أن يعطف آخر الزمان على أوّله فيما يتخذه لنفسه من مبادئ، ويعمل له من أهداف على مستوى الدين والدنيا؟ ذلك هو معنى خطاب الإنسان في القرآن، أن يجعل الإنسان من نفسه امتداداً للإنسانية بمعزل عن الزمان والمكان والتاريخ، حتى يكون له من ذلك كمال الإنسانية بكلّ تجلّياتها الإيمانية، بحيث يكون الأنبياء جميعاً سبيله إلى الملاقاة في حضرة القدس والملكوت...

الفصل الثاني

أصالة الحوار وعالميّة الإسلام

أولاً: أصالة الحوار وعالمية الإسلام

أ ـ مجالات الحوار وعالمية الإسلام

ب ـ العالمية والتبشير

ثانياً: الحوار في مجال العقيدة

تمهيد

أ ـ التنوع في العقيدة

ب ـ حوار العقيدة وتواصل الأديان

ثالثاً: الحوار في مجال التشريع والأخلاق

خاتمة الفصل: حوار الوصايا والأخلاق

تمهيد الفصل

رأينا ـ فيما سبق من بحوث ـ أن الإنسان هو موضوع الخطاب الإلهي، ومنه تبدأ شهادة الإيمان التي تجلّت بقوله «**بلى**»، وإليه تنتهي الكلمة الإلهية التي لا تنفد. فالقرآن، بما هو كلمة نهائية وكاملة، يقدم الحوار في حياة الإنسان على أنه من متممات وجوده، ومن تجلّيات حضوره وظهوره؛ فلا تكاد تجد بياناً في الكلام، ولا سرّاً في الآيات، إلاّ والإنسان هو الناطق به والمتجلّي فيه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ...﴾[1]، ذلك هو معنى الإنسان في القرآن، الذي أوكلت إليه مهام الحوار من موقع إمامته وتمام كلمته. فهو العالم بجميع الأسماء الإلهية، ومظهر جميع أسماء الله وصفاته[2].

لقد رأى بعض الباحثين في العلوم الإسلامية، إضافة إلى بعض المفسرين لآيات الله تعالى، أن القرآن ينطوي في خطابه إلى الناس على كثير من معاني القسوة والشدّة، ويدعو إلى الجهاد والقتال، بل كأنه فيما يدعو إليه من غلظة مع الكفّار وسطوة مع المنافقين، وعدّة واستعداد مع غير المسلمين يُنبئ عن استحالة الحوار وغرابة اللقاء، بل كأنه فيما يدعو إليه من ذلك قد بان عن تقديس للقوّة والحرب، واستهانة بالرحمة والسلام، إلى غير ذلك مما ذهب إليه كثيرون من مسلمين وغير مسلمين. أما الحقيقة، والحق، فهو غير ذلك تماماً، حيث نجد القرآن يدعو إلى عدم العدوان، كما قال الله

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) انظر: اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، تعريب محمد عبد المنعم الخاقاني، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٨٩، ٣٤٠، ص٥.

تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[١]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٢]، وغيرها من الآيات التي تقدّم الحوار والتسامح والعدل والإحسان وعدم البغي، لكونها تشكل أساسيّات في بناء الإنسانية، وقد تقدّم الكلام في معنى النداء الإلهي للإنسان في إطار الدعوة إلى الحق والتوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ...﴾.

إنّ للحوار في القرآن من الأصالة بقدر، ما للحق من ذلك، لأنّ القرآن يريد للإنسان أن يكون تعبيراً عن كلامه الشاهد وروحه الناطقة وسرّه الباقي في الكدح والملاقاة، وهذا كلّه لا يكون متحققاً ما لم يكن للحوار جوهره وتجلّياته في حياة الإنسان. وانطلاقاً من ذلك، نرى أن القرآن قد استوعب كل الكلمات في تاريخ الأديان، وفنّد مزاعم الشرك والأوثان، ليقدّم صيغة جديدة، وكلمة فريدة في معنى الإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٣]، فإذا ما عطفنا الكمال للدين وتمام النعمة على قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٤]، لرأينا أن محور الخطاب وسرّ الإيمان كامن في ذلك الإنسان، الذي لا قيام للإنسانية إلاّ به، باعتباره حجّة الله على عباده. كما أن كمال الدين وتمام النعمة والرضا بالإسلام ديناً، لخير دليل على استيعاب كامل المعنى الديني في وعي الإنسان وحركته الإيمانية في التاريخ الإنساني[٥]، هذا فضلاً عمّا يعنيه هذا الرضا بالإسلام من امتداد في المستقبل الديني للإنسان لكونه يمثّل محوريّة هذا التمام والكمال، وصيرورة التفاعل في إطار هذا الوعي الكامل لهذا الدين وكلماته التامة في

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٥) إنّ ما تفيده آية كمال الدين وتمام النعمة، هو كمال الشريعة، حيث تدرّجت الشرائع ليكون الكمال في الشريعة الإسلامية، كما قال المازندراني: «إنّها تعني الشرائع أولاً فأولاً، لأنّ التوحيد لم يزل تاماً».
را: المازندراني، محمد بن علي بن شهراشوب، متشابه القرآن ومختلفه، انتشارات بيدار، ط٢، قم، ١٤١٠هـ، ج٢، ص٢٥٨.

الماضي والحاضر والمستقبل، كما أنه في إطار هذا الوعي أيضاً يمكن لحاظ الحوار وأصالته في كلمات الله تعالى، لأنها كلمات وصلت أول الزمان بآخره بالدعوة إلى الخير والتراحم، وليس من خلال القوة والقهر والتسلّط، ويكفي لتأكيد هذا المعنى الحواري لكلمات الله تعالى ما تعرّض له الأنبياء والرسل في طريق دعوتهم إلى الله تعالى، ومن هنا، تتبدّى لنا أصالة الحوار وعالمية الدين في حركة النبوّة في التاريخ البشري، فإذا كانت الشرائع والمناهج في التاريخ الديني لم تتميّز بالعالمية من حيث هي متعددة ومتنوعة، فإنّ الدين بما هو تسليم لله تعالى وإيمان به وتصديق له، كان واحداً وعالمياً في خطاب النبوّة إلى البشر، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[١]. وهذا ما تابعه القرآن في كلمته الخاتمة والنهائية إلى الإنسان.

لذا، فإنّ القول بأنّ القسوة والغلظة هي ما يميز الإسلام، قولٌ ينطوي على سوء فهم في تفسيره لآيات الله تعالى، لأنه يتجاهل أسبقيّة المعنى الروحي والفطري للإنسان على المعنى المادي، والقرآن ناطق بسرّ الخلافة على الأرض المسبوقة بشهادة الإنسان، والحوار مع الملائكة بشأن آدم وأسباب استخلافه. وهذا كافٍ للتدليل على أصالة الحوار في تاريخ استخلاف الإنسان وتحوّلاته الإيمانية، التي لم يسبق لها أن قامت على غير الهدى الربّاني، الداعي إلى العلم والحوار والمحبة والإحسان. وقد تقدّم الكلام في معنى تعلّق إرادة الله تعالى بكمال الإنسان أصالةً، فأنّى لهذا الدين أن يكون كاملاً ومستوياً بغير الحوار الديني في ضوء معطيات الإيمان والكمال الديني للإنسان... فهو كمال امتدّ به الإسلام من تاريخ آدم ، إلى بقيّة الله تعالى في أرضه، بدءاً من قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[٢]، وانتهاءً بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٣].

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٧.
(٣) سورة التكاثر، الآية: ٨.

أولا: أصالة الحوار وعالمية الإسلام

لقد تقدّم الكلام في أنّ الإسلام ليس دين حرب أو نفي، وإنما هو دين إلهي يؤسس للسلام بين البشر، ويدعو إلى الحوار في ضوء تعاليم الأنبياء، إذ لم يُعهد عن نبيّ، أو رسول أنه استغنى بالحرب والقتال عن الحوار والسلام. وإذا كان الإسلام قد دعا إلى جهاد الكافرين والمنافقين والمعتدين، فذلك إنّما كان بهدف السلام وحماية المستضعفين من شرار الطغاة والمستكبرين، وقد لا يكون من الجدوى العلميّ في شيء أن نعرض لتجربة الإسلام الأوّلى مع رسول اللهﷺ وما رافقها من تسامح ومحبّة وتفانٍ من أجل إخراج الإنسان من الظلمات إلى النور، وإن كان البعض قد ذهب شططاً فيما زعمه عن فتح مكّة عنوة[١]. ذلك أنّ مَن يذهب إلى هذا القول من المسلمين يفسح في المجال أمام دعايات المغرضين من مسلمين وغير مسلمين لتعزيز وتسويغ الرأي القائل بأنّ الإسلام قام بالسيف وكانت له عالميّة القوّة والطغيان! وليس عالميّة الحوار والتسامح، وغير خفيّ على أحد ما ادّعاه كثيرون من أنّ الإسلام بعد وفاة رسول اللهﷺ انتشر بالسيف، وتمادى أهله بالحروب، فانتقلوا من الفتوحات الإيديولوجية إلى الفتوح الإمبراطوريّة[٢]! ولا شكّ في أنّ هذه المزاعم قد تسبّببت بالإساءة للمسلمين في تاريخهم، وأعطت غير المسلمين فرصة وإمكانيّة تناول الإسلام بما لا يليق به من الادعاءات من دون وجه حق، ودون وعي بما تنطوي عليه رسالة الإسلام من مبادئ وقوانين لتحقيق السلام في الأرض.

---

(١) نعم، هناك من الفقهاء والمفسرين مَن فسّر القرآن، وخصوصاً آيات الجهاد والقتال والظفر بالشكل الذي يؤكّد معنى القوة والسيف، كما فعل أبو حنيفة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ...﴾ [الفتح: ٢٤]، فرأى أن هذه الآية يستدلّ بها على فتح مكة عنوة لا صلحاً، إذ هو لم يميّز بين ظفر الحجّة وقوة المنطق والحكمة لدى المؤمنين، وبين الظفر بما هو سيف وانتصار عسكري!؟

را: الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، تفسير الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩، ج٤، ص٣٣٢.

(٢) انظر: هشام جعيط، الفتنة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٥، ص٢٩٤.

كما تقدّم الكلام أيضاً في أن نهج الإسلام والقرآن في مخاطبة البشر، سواء أكانوا مسلمين، أم غير مسلمين، هو الدعوى بالحسنى، والمجادلة بالتي هي أحسن، وغير ذلك من الآيات التي تؤسّس لحوار أصيل وبنّاء في إقامة العلاقات الإنسانية، لأنّ الله تعالى يريد للبشر أن يتسابقوا بالخيرات، كما سنبيّن في بحوثنا المقبلة، هذا فضلاً عمّا يريده ربّ العالمين بالناس من حكمة وعقل وإرادة حياة، باعتبار أن الله تعالى هو الذي أعطى الخلق والهدى، وأراد للحوار أن يكون هادفاً إلى تحقيق روحيّة الإيمان في قلب الإنسان وعقله قبل تحقيق المجتمع بالإرادة السياسية. وهذا ما يمكن استفادته من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ...﴾[1]. فإذا صلحت النفوس والقلوب وفاضت الأرواح بمَعِين الحياة والوحي، فإنه يمكن أن يكون للإنسان قدرة على إصلاح واقعه ومجتمعه. ومن هنا يأتي التركيز القرآني على معنى الحوار ليكون أساساً ومنطلقاً لتعزيز فرص السلام وتحقيق الأمان الروحي قبل المادي، ولعلّنا أسهبنا في الكلام عن النداء الإلهي لأهل الكتاب، بقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[2]، هذه الآية ـ كما نرى ـ ناظرة إلى معنىً عميق جداً، فهي تتحدّث عن إقامة التوراة والإنجيل، وليس القرآن، لإنّ حقيقة القيام بأيّة رسالة إلهيّة هو قيام واستمرار قيام بكل الرسالات السماوية، وهذا المعنى يمكن استنطاقه من كثير من الآيات القرآنية. فالآية المباركة تلحظ معنى وضرورة أن يكون أهل الكتاب على شيء لإقامة التوراة والإنجيل، وهذا الشيء، كما يرى العلاّمة الطباطبائي، متوقّف صدوره على أسّ معنوي ومبنى قوي نفسي، لتوقف جلائل الأمور على الصبر والثبات وعلوّ الهمّة وقوّة العزيمة وتوقّف النجاح في العبودية على حق التقوى والورع عن محارم الله... ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ كناية

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

عن عدم اعتماد أهل الكتاب على شيء يثبت عليه أقدامهم، فيقدروا بذلك على إقامة التوراة والإنجيل... تلويحاً إلى أن دين الله وحكمه له من الثقل ما لا يتيسّر حمله للإنسان حتى يعتمد على أساس ثابت[١].

هناك الكثير من الآيات التي تحدثت إلى أهل الكتاب وعنتهم في عصر الرسالة الإسلامية، وتدعوهم إلى إقامة التوراة والإنجيل، وهذه الإقامة الحقيقية تبقى غير ممكنة ما لم تتوفّر لأهل الكتاب عزيمة ومستلزمات هذا القيام المعنوي، بكل ما يقتضيه من عقيدة وشريعة وأخلاق، وغير ذلك مما تنطوي عليه رسالة السماء، إذ إنّ التوفر على ذلك والقيام به في الجوّ الحواري لا بدَّ أن يؤدّي إلى اتباع المنهجية القويمة في طريق التحقق العبودي، بحيث لا يكون هناك أي تصادم مع الوحي، سواء جاء به النبي موسى عليه السلام أم النبي عيسى عليه السلام، أم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فالأنبياء جميعاً على خط حواري واحد، تمتدّ بهم الرسالة الإلهية، وإليهم ينتهي ثقل هذه الرسالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٢]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا۟ وَاتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾[٣]، ومفاد هذا الإيمان أن يكون مرتكزاً على شيء مما يؤدّي إلى التقوى، وإلى أن يكونوا على مستوى الرسالة وحمل الأمانة، وهذه دعوة حوارية أصيلة تخالف مَن يدعو إلى ضرورة تجاوز الحوار في الاعتقاد الى الحياة العملية والمبادئ الأخلاقية إلى اعتماد الحوار سبيلاً إلى الإيمان، باعتبار أن الحكمة في القرآن، والدعوة الى الأخذ بها في سياق الرؤية الحوارية، ليس هادفاً إلى الحوار العملي فحسب، وإنّما هو هادف إلى الحكمة في إطار الرؤية النظرية للتوفر على شيء مما يتطلّبه القيام بالعقيدة والشريعة معاً.

إنّ أصالة الحوار في القرآن تتبيّن من خلال مفردات الخطاب القرآني بما هو

(١) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٠، ج٥، ص٦٥.
(٢) سورة المزمّل، الآية: ٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٥.

نداء صريح إلى تصحيح المسار العبودي للإنسان، لقوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[١]، إضافة إلى آيات المجادلة، وآيات الحكمة والموعظة الحسنة إلى غيرها من الآيات التي تحضّ أهل الكتاب على الإيمان والقيام بالحق والتسابق في الخيرات، فإذا ما أضفنا هذه الآيات إلى آيات قرآنية أخرى تجادل أهل الكتاب، وتدعوهم إلى اتباع الحق وسلوك طريق الخير من خلال تصحيح المسار الإيماني، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٤]، ثم يأتي التميّز الإلهي فيما عرضت له الآيات من فروق بين مَن يكفر بالله ويصدّ عن سبيله وبين من هو عالم بالحق يتلو آيات الله تعالى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٥].

كما أنّ هذا التميّز فيما هم عليه أهل الكتاب من تباين له ما يماثله عند المسلمين أيضاً، وقد بيّن القرآن في كثير من الآيات ما كانوا عليه في بدء الدعوة من إيمان ونفاق، وغير ذلك مما كانوا عليه أيام رسول الله ﷺ، وهكذا هو حال سائر الأمم والشعوب، ما يعني أن الخطاب القرآني كاشف عن حقائق فيما يكون عليه الناس من إيمان وكفر دون أن يكون الكفر على حدّ الشرك، لأنّ للقرآن كلاماً آخر مع المشركين والكفّار، ولا بدَّ من لحظ هذا التميّز في فهم الكلام الإلهي،

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية ٩٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٩.
(٥) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٣ ـ ١١٤.

ليكون الحوار ذا جدوى، وهذا ما تميّزت به الآيات المكيّة لجهة الشدّة والعنف عن الآيات المدنيّة[١]. ما يعني ضرورة التمييز بين أن يكون الكفر على حدّ الشرك، والكفر بما هو فسقٌ وخروجٌ عن الأمر الإلهي، وهذا ما تفاوت بين أمة وأخرى فيما تقوم به من أعمال، وتؤدّيه من عبادات، وهذه مسائل يمكن التحاور بشأنها بين أهل الإيمان، وبذلك يكون القرآن قد أرشد إلى طريق الحوار الحقيقي، طالما أنه لم يتحدّث عن تمايز في أمة دون أخرى إلاّ بالتقوى، فضلاً عمّا يُعطيه القرآن من رؤية إيمانية متميّزة بخصوص أولئك الصالحين من أهل الكتاب الذين يسارعون في الخيرات، ويتبعون سبيل المؤمنين فما هم عليه من علم وعمل، فهؤلاء هم من أهل الكتاب، وقد خصّوا في المدح والثناء الإلهي بما توفّروا عليه من خصائص، وقاموا به من أعمال، وهم إنما يقدَّمُون للبشرية بصفتهم الكتابية ليكونوا موضع قدوة واعتبار، بحيث يلتفت إلى سلوكهم، ويتحاور بشأن صفاتهم الإيمانية والسلوكية من حيث كونهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين في مجالات العلم والعمل.

وهذا كافٍ للتدليل على أن الحوار بشأن هؤلاء له كبير الجدوى، وعظيم الأثر فيما لو تأسّى بهم أهل الإيمان، سواء أكانوا هوداً، أم نصارى أم مسلمين، لينطلقوا في إثرهم، ويلتحقوا بهم، لأنهم مثال الإنسان المؤمن الذي سمع قول الله تعالى وعقل عنه قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[٢]، وهو قول ممتد في الزمان، وفي المعنى الديني أيضاً حيث تجد صداه في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[٣].

وانطلاقاً مما تقدّم، نرى أن ما مدح به القرآن النصرانية القرآنية، إضافة إلى

(١) انظر: الحكيم، محمد باقر، علوم القرآن، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ط٤، ١٤١٩هـ، ص٨٢.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

ما خصّ به النصرانية التي لم تعترف به، أو لم تؤمن بدعوته، كل ذلك يؤكّد لذي لبّ أن النداء القرآني، والخطاب الإلهي للبشر، هو خطاب عالمي لا يصنّف الناس بين مسيحي ومسلم ويهودي، وإنّما على أساس الكفر والإيمان في صيرورة الأديان، هذا فضلاً عن دعوة القرآن وندائه إلى التعارف والتلاقي في ضوء الرؤية الإيمانية للتمايز والتفاضل على أساس التقوى، وليس على أي أساس آخر من عصبيّة، أو عرقيّة، أو قومية. إذ إنّ كل القبائل والشعوب مدعوّة إلى حضرة الأمة القرآنية لتكون على مائدة الرحمانية والرحيمية بهدف أن تحقّق ذاتها في مسار العبوديّة، وهذا ما لا نجده في أي كتاب سماوي آخر، لا في الإنجيل، ولا في التوراة برغم ما يدّعيه كثيرون من مسيحيين وغير مسيحيين لجهة تأكيدهم على عالمية الإنجيل أو التوراة، أو الدعوة إلى أن كل كتاب سماوي هو كتاب يحمل رسالة عالمية إلى الإنسان، ولكن ما تجاهله هؤلاء هو أن الإنسان موضوع الخطاب الإلهي له تحوّلاته في الزمان والمكان والتاريخ، فضلاً عمّا له من قدرات ومؤهلات لا بدّ من توفره عليها ليكون موضوعاً لخطاب العالمية الإيمانية والرسالية.

إنّ تجاهل هذا المعطى الإنساني يؤدّي إلى تشويه الرؤية، وتضييع المعنى الرسالي فيما لو ادّعى الإنسان أنه في عمر الطفولة يمكنه أن يكون قادراً على تلقّي وتحمّل ثقل الشباب، أو العكس، إذ إنّ لكل من هؤلاء عُمُرَهُ ومستواه وقدراته على تحمّل أثقال السماء، ولعلّ هذا ما يفسّر ما جاء في الأناجيل على لسان عيسى عليه السلام، أنّه ما جاء إلا للخراف الضالّة من بني إسرائيل، يقول عيسى عليه السلام: «**إلى طريق أمم لا تمضوا، إلى مدينة السامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بني إسرائيل الضالّة**»[1]، وهكذا في فقرات أعمال الرسل ما يدلّ على تمسّك الحواريين بعد عيسى بأنّ المسيحية دين لبني إسرائيل خاصة، فقد خاصم اليهود بطرس لأنه

(١) إنجيل متّى، ١٥ ـ ٢٤.

دخل على غير اليهود وتكلّم معهم؛ يقول أحمد شلبي: «**ويؤيّد الكتّاب المسيحيّون هذا الاتجاه أيضاً، يقول: «فقد جاء في دائرة المعارف البريطانية أن أسبق حواريّي المسيح ظلّوا يوجّهون اهتمامهم إلى جعل المسيحية ديناً لليهود وجعل المسيح أحد أنبياء بني إسرائيل إلى بني إسرائيل**»[١]. وإذا كان المسيح عليه السلام قد تكلّم عن الدخول في ملكوت الله تعالى، وخاطب الصالحين من الناس فيما وعظ به قومه، فذلك ليس فيه ما يشير إلى عالمية الخطاب المسيحي، لأن المقصود بملكوت الله تعالى، هو تلك النفسيّة الإيمانية، والعبودية الخالصة لله تعالى المفتوحة لجميع الصالحين، وبهذا المعنى يكون ما جاء به نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وكلّ الأنبياء دعوات صالحة للدخول في هذه العبوديّة، أو للتحقق في هذه الروحية، عالمياً وإنسانياً وإيمانياً...

نعم، قد يُقال: إن الإنسان شهد لله تعالى، وكانت له شهادته في عالم تحققه الفطري حيث كان شاهداً لله تعالى وإنساناً عالمياً حينما قال في روحه وعقله «**بلى**»، ولكن هذا المعنى غير مقصود في العالمية فيما لو كانت تعني التحقق على مستوى الرسالة والوعي والشريعة، إضافة إلى القدرات والمؤهلات الإنسانية، التي تؤهّل الإنسان لأن يكون عالمياً في كلّ تحوّلاته الإنسانية. ولهذا، فإنّ الدخول في الملكوت الذي دعا إليه الأنبياء، هو الدعوة الخالصة للخروج من أسر العصبية والولاء القبلي إلى رحاب العبودية لله تعالى، وما جاء في إنجيل متّى يوضّح هذا المعنى، وينفي عن اليهود ما ادّعوه لأنفسهم من اختيار إلهي، فكان لا بدّ أن يكرِز (يبشّر) عيسى عليه السلام بدعوته وبناموسه ليخرج اليهود وبني إسرائيل من ولائهم العائلي إلى الإنسانية، وهذا ما يكشف القرآن عن معناه فيما يركّز فيه على بني إسرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ ...﴾[٢]،

(١) شلبي، أحمد، مقارنة الأديان، المسيحية، ج٢، م. س، ص٦٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

وقال الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[١] إلى كثير من الآيات القرآنية التي تميّز في الخطاب بين أن يكون لقوم، أو أمّة، وبين أن يكون للعالمين، أو للناس جميعاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

إنّ القول بأن المسيح جاء ليخلّص العالم بالمعنى الذي تعنيه العالمية من حيث كمال الرسالة، وكمال الإنسان، وكمال الرؤية النظرية والعملية، فذلك مما لا يستقيم بلحاظ نصوص الإنجيل والتوراة معاً، بدليل ما تقدّم ذكره من أن الخطاب هو للعالمين في زمان الأنبياء، كما جاء في القرآن في ما خصّ به بنو إسرائيل من نعم، حيث جاء التعبير بالعالمين، كما قال الله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]. فالعالمين تأتي في الرسالة السماوية بهذا المعنى لتدلّل على أن هناك أشخاصا، رجالاً ونساءً، يكون لهم هذا المعنى العالمي من دون أن تعني العالمية كمال التحقق الوجودي على مستوى الرسول والرسالة، فضلاً عن الإمامة التي هي في الجوهر باطن النبوّة. وعليه، فإنّه لا معنى لدعوة خلاص العالم، كما ذهب بعض الباحثين في شأن عالمية المسيحية[٤]، فهذا البعض إنّما أراد أن يعبّر عن الدعوة الخلاصية في إطار الرؤية الدينية والملكوتية التي تستنبطها المسيحية، فوضع كل الأديان والشرائع في سياق واحد، واستدل على صحة رؤيته من خلال التحققات العملانية للأديان والشرائع. وبرأينا كان لا بدّ من التمييز بين الرسالة بما هي دين وتدعو إلى الإسلام والتسليم والعبادة الخالصة لله تعالى، وبين النداء أو الخطاب الرسالي إلى القوم، أو إلى الشعب من قبل الأنبياء،

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) سورة الأنبياء، ١٠٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٧.

(٤) انظر: وليم سليم قلادة، العلاقات الإسلامية المسيحية، مركز الدراسات الاستراتيجية، ط١، بيروت، ١٩٩٤، ص٣٤٧.

لأنه من خلال هذا التمييز يمكن لمعنى العالمية أن يستقيم[١]. أما أن تطلَق العالمية بما هي خلاص وشمولية في زمان خاص وظروف محددة، فهذا مما لا يمكن القبول به لكونه يتجاوز عالمية الرسول والرسالة الإلهية التي تكامل معها الإنسان وتكاملت معه في سياق الرؤية الدينية المتواصلة مع الأنبياء، والتي انتهت إلى رسالة الإسلام، لتكون عالمية المعنى والمضمون بغضّ النظر عمّا شاب هذه العالمية من التباس في التجربة التاريخية للمسلمين، وهذا ما كان أيضاً مثار جدل بين المستشرقين الذين ذهبوا مذاهب شتّى في فهم العالمية الإسلامية، وهم في كثير مما ذهبوا إليه قد يكون نتيجة لتأثرهم بهذه التجربة التي لا تصلح لأن تكون دليلاً، أو سبيلاً للحكم على صحّة وسلامة النظرية الإسلامية.

غاية القول: إنّ أصالة الحوار في القرآن وعالمية الإسلام كما أظهرها القرآن ليست مجالاً للشك أو الرَّيب، وذلك من منطلق أن الأنبياء جميعاً قد تواصلوا مع الإنسان لإخراجه من الظلمات إلى النور، ليكون له نوره المتجلّي في الإيمان والعمل، وهذا التجلّي ما كان ليظهر كاملاً في حياة الإنسان لولا أن الله تعالى مَنَّ على هذا الإنسان بالرسالة الكاملة والنهائية لبعثه في عالمية روحيّة وإنسانيّة كاملة، فإذا لم يكن للعالمية هذا المعنى، فما يكون معنى تواصل وتواتر الرسل والأنبياء، بحيث يكون تحقق الأمور على فترة من الرسل، وهذه ما تفسّره لنا فترات الزمن وحقب التاريخ، وعدم تواصل الجاهليات، حيث كان من مهام الأنبياء قطع تواصلها، وضرب مفاصلها، وتهديم أركانها، وقد تميّز الإسلام في كونه، ورغم نهائيته وكمال رسالته، قد تحدّث عن جاهليّة أولى بالشكل الذي يستوحى منه أنّ جاهليات أخرى

---

(١) إنّ أل التعريف في العالمين لبني إسرائيل، هي للعهد الذهني المأخوذ من سياق الآيات التي تعرض قصتهم، وقد مضى زمانهم وانقضى قبل بعثة رسول الله وقبل وجود الأمّة الإسلامية وارثة بني إسرائيل في التفضيل على العالمين فيما لو التزمت وصبرت، كما قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة، ٢٤]. ولا شكّ في أن التعبير بـ(لمّا صبروا) تفيد الظرفية فيكون التفضيل للأمة محدّد بظرف خاص.
را: مسلم، مصطفى، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، دار القلم، دمشق، ١٩٩٩، ص١٠٣.

يكون لها مكانها وزمانها في حياة الإنسان، وقد أُعدّ لكل جاهلية من أسباب الإيمان ما يمنع من استمرارها إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

إنّ العالمية الإسلامية هي ذات بعد إيماني ورسالي، وليست مجرّد عالميّة في إطار الشأنية العملية للإنسان في تطوّره وتحوّله، وإنّما هي عالميّة تلحظ الجوانب الإنسانية كلّها، وتعطي الإنسان حيّزه الوجودي الكامل في ما تقدمه له من مبادئ وتعاليم وقوانين وأحكام من شأن الالتزام بها تحوّل الإنسان عن كونه إنساناً موصوفاً ليكون إنساناً منتمياً إلى الله تعالى، ومتجاوزاً لحدود الزمان والمكان والتاريخ للتحقق في بعده التواصلي والرسالي الذي عبّر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[1]، فالله تعالى هو الرقيب أولاً وأخيراً، وما كان دور الأنبياء سوى الشهود على ما بعثوا به ودعوا إليه في إطار الدعوة إلى الامتثال للتعاليم الإلهية، ذلك هو معنى أن يكون الرقيب شاهداً وشهيداً؛ أن يسلّم الأمانة لمن يأتي بعده تمهيداً للرقابة على العالمين من قبل الله تعالى، والتي هي رقابة محققة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق.

أ ـ مجالات الحوار وأهدافه

ينقل الباحث «**هويدي**» عن بعض العلماء أنه لا يستفاد من النصوص القرآنية شرعية الحوار في العقيدة مع أهل الكتاب، يقول: «**فثمّة رأي أصولي في الأزهر، يرى أن الحوار في العقائد غير مستحب من الناحية الشرعية، والتوجيه القرآني في كثير من الآيات يكاد يغلق الباب أمام الحوار في العقائد، باعتبار أنها تحثّ النبي في حال المجادلة على تفويض الأمر إلى الله وعدم الخوض في الحوار الكلامي مع الآخرين... وعن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، يقول أصحاب هذا الرأي أنها تنصبّ على الأمور الدنيوية**

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

التي تتعلّق بالمعاملات التي تدور في إطار التعايش والبرّ الواجبين في علاقة المسلمين بغيرهم...»[١].

إنّ ما يذهب إليه بعض علماء المسلمين في مجال الحوار مع غير المسلمين يُغلق الباب أمام حوار العقائد والأصول الإيمانية الكبرى، اعتقاداً منه بأنّ الله تعالى قد أخرج غير المسلمين عن كونهم أهلاً للحوار في مجال العقيدة، وحكم عليهم بالكفر والجهل، وغير ذلك مما يجعل من الحوار غير ذي جدوى! وكما نلاحظ أن رأي مَن نقل عنهم هويدي الكلام يتحدّث عن حوار شرعي، أو غير شرعي ما يدلّل على أنّ الأمر يأتي في سياق الفتوى. وقد سبق لنا أن بيّنا ما ذهب إليه بعض المفسّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ حيث بيّن هؤلاء أن النداء القرآني ناظر إلى حقيقة الحوار في مجال أصل من أصول الإيمان والاعتقاد، فلا ينبغي صرف الكلام عن ظاهره من دون قرائن توجب ذلك، فالأمر متعلّق بالعبادة لله تعالى فيما عرض له بشأن أهل الكتاب ولم يتعرض القرآن في آيات الحوار والنداء إلى مسائل شرعية، وإنّما عرض لمسائل اعتقادية كان كثير من النصارى يتأوّلون فيها على الله تعالى، ويذهبون إلى القول فيها بغير حق. وإذا كان البعض يرى بأنّ الخطاب الإلهي منصبّ على الأمور الدنيوية، فذلك يمكن اعتباره تبسيطاً إن لم يكن تأويلاً بالرأي؛ ذلك أن المسائل الدنيوية لم ولن تكون مثار جدل ونقاش مع أهل الكتاب حتى تكون موضوعاً لخطاب الله تعالى في قوله: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾، بما هي كلمة عدل بخصوص أهمّ المسائل الاعتقادية والعبادية[٢].

---

(١) را: هويدي، فهمي، العلاقات الإسلامية المسيحية، مركز الدراسات الاستراتيجية، الحوار الإسلامي المسيحي كما يراه علماء الأزهر، بيروت، ١٩٩٤، ص٧٧.

(٢) انظر مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨١، ج٢، ص٨٠. فهو يقول: إنّ الكلمة السواء اقتصر فيها النبي على دعوة أهل الكتاب إلى أن يقروا بما هو في الضمير والوجدان، وما أقرّته الكتب السماوية بكاملها، وهو أن يستووا جميعاً في عبادة الله وحده لا شريك له.. لا يعبد بعضكم بعضاً، ولا يعلو بعضكم على بعض، وهذه هي كلمة سواء.

وقد يقال أيضاً أن ما ذهب إليه هؤلاء، هو من الغرابة في كل شيء، وليس في مجال واحد. إذ كيف يمكن أن نتأوّل على الله تعالى، وندّعي إخراج العقائد من مجالات الحوار بين أهل الإيمان، وقد سبق إلى ذلك رسول اللهﷺ، الذي استقبل نصارى نجران وكلّمهم في العقيدة والتوحيد وفيما هو عليه نبيّ الله عيسىعليه السلام من صفات وخصائص إنسانية بعيداً عمّا جاؤوا به من كلام في العقيدة؟ وهل كان هذا من الأمور الدنيوية أن يتطلّب أمر النقاش والحوار مع الرسولﷺ نزول الوحي بنداء الله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[١].

وكما نلاحظ أن السياق في الآيتين واحد، حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾، وفي الآية الثانية قال الله تعالى ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ ...﴾. وهنا السؤال الأساس، كيف يمكن صرف الآيات إلى الحوار في أمور الدنيا وعلاقات البشر، وهي ظاهرة الدلالة فيما يفيده السياق على الحوار في مجال العقيدة؟

ثمّ إنّه ما معنى أن يُدّعى في المقام أن الرسولﷺ اكتفى بمجرّد الاستقبال لنصارى نجران للاحتفاء بهم وتكريمهم على النحو الذي يُفهم منه أن اللقاء كان هادئاً، في حين تجمع المصادر الإسلامية على أنّ ما جرى في الحوار بين الرسولﷺ وبينهم كان عاصفاً[٢]، وإلاّ فما معنى: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٣]؟ فهل الكذب كان في مسائل الدنيا؟، أم أنهم اختلفوا مع رسول اللهﷺ وتجادلوا معه بشأن قضايا وعلاقات إنسانية حتى يستدعي الأمر الابتهال إلى الله تعالى لجعل اللعنة على الكاذبين؟ إنها

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج٣، ص٥٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

أسئلة تحمل في طيّاتها إجابات كافية ووافية على أن ما يذهب إليه بعض العلماء في شأن الحوار ليس صحيحاً، ويحتاج إلى إعادة نظر وتأمّل لكونه متعلّق بالآيات القرآنية التي لا يمكن أن تؤوّل على غير معناها، اللّهمّ إلاّ أن يكون المقصود من هذا التأويل ضرب الدعوة إلى الحوار والمجادلة في مجال العقيدة، وهو مجال يؤسس له في العقل، ويمنع من التقليد فيه والآيات ترشد إليه. أما ما ذهبوا إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2]، فهم يرون أن الآيات ناظرة إلى تفويض الأمر إلى الله تعالى، باعتبار أن الله هو العالم بما يعملون، بما يوحي بأن الحوار في مجال العقيدة غير مرغوب فيه. ولا شكّ في أن أدنى تأمّل في كتاب الله تعالى، لا بدّ أن يكشف عمّا تعنيه هذه الآيات من ضرورة للحوار والمحاججة مع أهل الكتاب وغيرهم، إذ إنّ الله تعالى قد بيّن في آيات أخرى أن معنى أسلمت وجهي لله، لا تعني عدم شرعية الحوار، وإنّما تؤكّد عليه وتدعو إليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3] حيث نرى أن الآية تركّز في ظاهرها على التوحيد، هذا فضلاً عمّا تعنيه آيات أخرى جاءت في معنى المحاججة، حيث قال الله تعالى في آية المباهلة: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا ...﴾، وهذا يدلّ على أنه لا يستفاد من قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ ما زعمه بعض العلماء من أنها تعني انعدام الحوار وعدم شرعيته، لأنّ مقتضى المحاججة والإصرار عليها يستوجب الردّ والمناقشة واتخاذ الموقف الملائم لهداية الآخرين وتعليمهم، والكشف عن زيف مغالطاتهم، سواء في مجال العقيدة، أم في أي مجال آخر، وهذا ما بيّنه الله تعالى في كثير من الآيات، التي أجاب فيها على مسائل تتعلّق بالاعتقاد، كما في قوله

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٦٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

تعالى: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾[١]، فلو لم يكن للمحاججة معنى وأثر في التوجيه لما جاء الجواب الإلهي بالحكمة والمنطق العقلي الكاشفين عن زيف ما يذهب إليه الزاعمون في العقيدة وسواها. ثمّ جاء الردّ بأوضح ما يكون في مجال الكشف عن زيفهم بالقول لهم: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾[٢]، فإذا كنتم قد حاججتم فيما لكم به علم، فلما تحاجّوننني فيما ليس لكم به علم؟ وهذا من الردود المنطقية في مجال الدعوة والهداية الربّانية للإنسان، سواء أكان في مجال العقائد، أم في غيرها، لأنّ الله لم يترك الإنسان هملاً، وقد هداه إلى ما ينبغي أن يكون عليه في دينه ودنياه، فلا يُقال بأنّ مجال الحوار هو في إطار التعايش وأعمال البرّ، أو في إطار المعاملات الدنيوية لمجرّد أن بعض الناس لا يقرؤون كتاباً، أو لا يجيدون حواراً، ولا يحسنون صنعاً، بل إنّ مجال الحوار الحقيقي هو في مجال العقيدة، ومنها ينطلق إلى أمور ومسائل الدنيا وعلاقاتها لما للعقيدة من أثر في توجيه الإنسان إلى الأعمال الصالحة، وقد بيّن العلاّمة اليزدي أنه ما ارتفع قوم إلاّ بحُسن الاعتقاد، وما تسافل قوم إلا بسوء الاعتقاد[٣]. فالعقيدة هي أساس بناء الحياة النفسية والعقلية والروحية والعملية. فالقول: إنّه يجب ترك الحوار والجدل في مجال العقيدة إلى ربّ القلوب والضمائر، هو قول محكوم بالرأي والهوى، لكونه صادراً عن هواجس الحياة، ومساوئ العلاقات بين البشر. فلا ينبغي أن يكون له أدنى اعتبار في مجال التأسيس لحقيقة الحوار كما أمر الله تعالى به بعيداً عن الهواجس والمساوئ، وإنّما لا بدّ من لحاظه في جوّه القرآني وما تدعو إليه الآيات.

ثم إنّه إذا كان بعض العلماء يرى بأنّ هناك تعارضاً حقيقياً فيما يدعو إليه أهل الإيمان في مجال الأصول والاعتقاد، فهذا مما عرض له القرآن ووجّه إليه الأنظار

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٦.

(٣) اليزدي، محمد تقي المصباح، دروس في العقيدة الإسلامية، دار الحق، بيروت، ١٩٩٣، ص٤٠ ـ ٤٣.

لا ليكون موضع صخب واعتراض وتصادم بين أهل الإيمان، وإنّما ليكون سبيلاً إلى متابعة الحوار على أساس قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾، فإذا لم يحصل أن اجتمع الناس على كلمة عدل، أو آل أمرهم إلى أن يكون على تناقض في ما يذهب إليه كل فريق، فليس معنى ذلك أن يتحوّل الحوار إلى تجريح وتقاتل بين الناس، وإنّما معناه أن يكون لكل فريق، ولكل طائفة، أو مذهب دينه واعتقاده على نحو ما بيّن الله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[١]. إن ما ذهب إليه بعض العلماء في قوله متسائلاً بأن النصّ صريح في القرآن على تكفير مَن قال إن الله هو المسيح بن مريم، فكيف يمكن تجاهل هذا الأمر في الحوار على مستوى العقيدة؟ والإجابة هنا هي على حدّ الغرابة إذ نرى مدى الانكشاف في الرؤية الإيمانية، حيث يتمّ تجاهل تجربة رسول الله ﷺ في هذا الحوار، ويراد للمسلمين أن يتساءلوا مجدداً في معنى العقائد على النحو الذي يمنع من التلاقي والتحاور[٢]، وكأن هؤلاء العلماء يعيشون في حوار التأسيسات الإيمانية ولم يسبق للإسلام أن أجاب على هذه التساؤلات[٣]، ويكفي أن نشير هنا إلى الحقيقة القرآنية في مجال الحوار، وهي بمثابة التأسيس في مجال الاعتقاد، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٤]. فالقرآن لم يقل «**هو في الدنيا من الخاسرين**»، بل «**في الآخرة**» ما يعني أن الخسارة هي أمر أخروي يحاسب الله عليه يوم القيامة، ولا ينبغي أن يكون له أدنى تأثير على حقوق غير المسلمين في

(١) سورة الكافرون، الآية: ٦.

(٢) را: هويدي، فهمي، العلاقات الإسلامية المسيحية، م. س، ص٧٨.

(٣) يرى هويدي أنه عندما عرض أمر الحوار للمناقشة في مجمّع البحوث الإسلامية في القاهرة، اتجه الرأي الغالب إلى تأييد مواصلة الحوار من حيث المبدأ، ولكن المواقف اختلفت في تحديد نطاق الحوار وموضوعاته، وفيما أيّدت الأقليّة فكرة الحوار في كل الأمور، بما في ذلك ما كان عقيدياً منها، فإنّ الأغلبية فضلت أن يظلّ الحوار مركّزاً على الدائرتين الأخلاقية والاجتماعية.

را: هويدي، فهمي، العلاقات الإسلامية المسيحية، م. س، ص٧٩.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

ما يتعلق بحياتهم وواجباتهم في الدنيا. وإذا كان مَن يقوم بشأن الحوار هو ممّن تميّزوا بالوعي والحكمة والعلم، فإنّ الأمور تسير وفاق هذا العلم والحكمة، ولا يكون للاختلاف، ولا للتناقض في الرؤية الإيمانية أيّة انعكاسات سلبيّة في مسار الحوار الإيماني. أما أن يقال بأن أهل الحوار قد تقابلوا وتجارحوا، فذلك مما يدلّل على أن من يقوم بهذا الأمر ليس أهلاً له، وقد أمر الله تعالى المجادلة بالتي هي أحسن، وبالحكمة والموعظة الحسنة، وهل يُعقل أن يكون القائم بالحوار غير حكيم؟

إنّ الذي يؤسس للحوار في الحياة الإيمانية هم أهل الدراية والحكمة، سواء أكان الأمر يتعلق بأهل الكتاب، أم بالمسلمين، وهذا يقتضي منهم أن يكونوا على مستوى الحقيقة الإيمانية، فينطلقوا في الحياة على أساس إنسانية الإنسان، وكرامته وإيمانه بالأصول الإيمانية الكبرى، التي يفترض أن تكون منطلقاً للحوار، كما بيّنا سابقاً، وليس مجالاً له، على اعتبار أن الاتفاق من حيث المبدأ والرؤية الإيمانية متحقق على مستوى هذه الأصول رغم التأويلات المختلفة في التفاصيل والصفات، وغير ذلك مما هو مختلف عليه في الدائرة الإيمانية الصغرى لجهة ذهاب كل طائفة إلى تأسيسات كلامية مختلفة عمّا تذهب إليه الطائفة الأخرى، وهذا الاختلاف غالباً ما يكون في تفاصيل الرؤية الإيمانية التي ينتمي إليها كل فريق. ولكن يبقى ما هو مشترك بين أهل الإيمان هو الدافع إلى الأمل في الحوار على مستوى العقيدة أولاً، وعلى مستوى الحياة وحقوق البشر ثانياً.

وانطلاقاً من ذلك، نرى أن أهداف الحوار ليس تحويل الوجهات، أو تسويغ اللقاءات على النحو الذي يؤدّي إلى تسجيل المواقف، وتحقيق المكاسب، وإنّما أن يتحوّل الحوار إلى حياة في تفكير المؤمنين وسلوكهم، باعتبار أن الأهداف ليست مطروحة بين أن تكون مؤسسة على حوار في العقيدة، أو حوار على تنظيم العلاقات في إطار التعايش بين أهل الإيمان، بل هي مطروحة في سياق القواسم المشتركة التي تجمع أهل الإيمان، لكونهم جميعاً يؤمنون بالله تعالى وباليوم الآخر، وبأن الله

تعالى كلّم الناس بالأنبياء، إلى غير ذلك مما يصلح أن يكون قاعدة وأساساً لتحقيق الأهداف الإنسانية، وهذا ما سبق لنا أن عرضنا له بالإسهاب تارة، وبالإجمال طوراً آخر، حيث أكّدنا في بحوثنا أن الهدف من الحوار هو إخراج الإنسان من كهوف العصبية إلى رحاب الإيمان، بحيث يكون له دوره وأثره في تعزيز الروح الإيمانية على مستوى الواقع الإنساني، وخاصة في العصر الحديث الذي انتهى فيه الحوار ليكون مادة إعلامية وحسب، إذ تمّت السيطرة على تحوّلات الإنسان كلّها، وجعلت منه مجرّد متلقٍّ ومنفعل بالأحداث، هذا فضلاً عمّا آلت إليه المجتمعات الإنسانية من تصحّر معرفي وإيماني بعد هيمنة الفراعنة والمستكبرين على مقدّرات العباد والبلاد، والتي كان ولا يزال لها أكبر الأثر في منع التحاور بين أهل الإيمان. لذا، فإنّ معنى أن يكون الحوار هادفاً، أن يتحوّل الإنسان عن كونه محاوراً في الإيمان، ليكون محاوراً في الحياة الإنسانية بكل ما تقتضيه هذه الحياة من تفاعلات إنسانية وحضارية. فلم يعد معروفاً اليوم، ولا مألوفاً ولا مقبولاً، أن يكون الهدف من الحوار تحويل دائرة إيمانية إلى دائرة أخرى، كما كان عليه الحال في مدارس الفلسفة وعلم الكلام، وإنما القيام بالحوار على أساس أن الدين واحد، والمعبود هو الله تعالى، وأن الإنسان هو خليفة الله في الأرض، وأن الله تعالى كرّم بني آدم بما هم بشر ينتمون إليه ويكتفون به فيما مَنَّ به عليهم من إيمان وشرائع وحياة. فإذا ما انطلق الحوار في ضوء هذه التأسيسات الإيمانية، فإنّه لا بدّ أن ينتهي إلى علاقات إنسانية فريدة في الحياة الإيمانية، بحيث لا يكون هناك أي معنى للتعصّب الديني، بل دين واحد هو الإسلام الذي تنتمي إليه البشرية منذ أن كانت قبل أن تكون وكم يكون الفرق كبيراً بين أن يتحاور الإنسان في طريق الكدح إلى الله تعالى، وبين أن يكون محاوراً في إطار رؤية مذهبية أو طائفية، أو دينية خاصة يطمح بها إلى أن تكون المسيحية، أو اليهودية، أو الإسلامية الخاصة عنواناً لحواره، أو سبيلاً لتحقيق غلبة، أو تذويب مفردة في هذه الطائفة أو تلك؟ وهذا ما فعله كثير من المسلمين

في تاريخهم، وهذا ما فعله كثير من المسيحيين فيما دعوا إليه من تبشير، وكانت النتيجة مزيداً من الانقسام والتنظير في ساحات الإيمان والإنسان..!؟

ب ـ العالمية والتبشير:

ليست العالمية، كما رأينا في البحث السابق، شأناً إنسانياً، ولا هي اختيار نبوي، وإنّما هي حقيقة ورسالة يختصّ بها الله من يشاء من عباده، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[١]. كما أشرنا أيضاً إلى أنّ العالمية لها أبعادها في كل زمان ومكان، فهي من حيث البعدين الديني والتوحيدي لها بعد الديمومة في تاريخ الإنسان. أما من حيث بعد الرسالة والشريعة، فهي تعبير عن إرادة الله تعالى وما يختاره من مناهج وشرائع لعباده، وكما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾[٢] يبشّر بالثواب، وينذر بالعقاب في ضوء الشريعة التي جاء بها إلى قومه، وهذا التحيّز في الزمان والمكان والتاريخ للناس ليس دليلاً على تحقق العالمية، وإنّما هو سبيل إليها ودليل عليها، لأنّ الله تعالى، وهو ربّ العالمين، شاء أن تكون عالمية الدعوة والرسالة للإسلام بما هو كلمة خاتمة ونهائية للناس كافة.

هناك من الباحثين في مجال الدين[٣] مَن يربط بين العالمية والتبشير، أو بين الدعوة الإسلامية والعالمية في سياق التحوّلات التاريخية على نحو ينفي أو يؤكّد

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

(٣) انظر: هويدي، فهمي، العلاقات الإسلامية المسيحية، م. س، ص٧٩. يقول: إنّ أكثر ما يقلق علماء الأزهر أعضاء مجمع البحوث، هو الوثيقة الصادرة عن الفاتيكان، التي تثير العديد من الأسئلة حول دوافع الحوار ومقاصده من حيث أنها تلقي بظلال من الشكّ حول مدى صدقية وبراءة الدعوة إلى الحوار. إنّ الوثيقة تحمل عنوان «موقف الكنيسة اتجاه أصحاب الديانات الأخرى... تأملات وتوجهات حول الحوار والدعوة، ومناسبة صدورها عيد العنصرة سنة ١٩٨٤، ويرى هويدي أن البابا يوحنا في خطابه أمام الجمعية العمومية لأمانة سرّ غير المسيحيين يوم السبت الموافق ٣ آذار ١٩٨٤، يؤكّد على صلة الحوار المسيحي بالتبشير، وعنوان الخطاب هو الحوار ويدخل ضمن رسالة الكنيسة الخلاصية». وقد فهم علماء الأزهر من هذا الخطاب الوثيقة، أن الحوار له صلة وثيقة بالتبشير، ونقل عن البابا بولس قوله: «إنّ تلاميذ المسيح، باتحادهم العميق مع الناس في كل ظروف حياتهم ونشاطهم، يرغبون في أن يقدموا لهم شهادة المسيح الحق بهدف خلاصهم، حيث لا يستطيعون التبشير الكامل بالمسيح. إن الحوار الأصيل يتحوّل إلى شهادة، والتبشير الحقيقي يتحقق في جوّ من الاحترام والإصغاء للآخر»..

تحقق العالمية لهذه الأمة أو تلك، وبمعنى آخر هم يؤكدون العالمية من خلال التجربة البشرية، فإذا أرادت هذه الأمة أو تلك أن تكون عالمية، فذلك يكون لها فيما لو التزمت بالوظائف المناطة بها والموكلة إليها. أما إذا لم ترد ذلك فلا تتحقّق لها العالمية، وعلى فرض أنها حققت لذاتها عالمية الانتشار، فإنّه لن يكون لها عالمية المحتوى والمضمون. وهنا لا بدّ من التمييز بين أن تكون العالمية رحمة إلهية، وبين أن تكون تعبيراً مادياً أو نظرة إنسانية، أو فعلاً إنسانياً في الزمان والمكان. فالله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، ومعنى أن يكون الرسول ﷺ رحمة للعالمين، أن يكون أكثر من مجرّد اختيار في الزمان والمكان للرسالة الإسلامية، باعتبار أن الرحمة كما أفاد صاحب قاموس القرآن فيما تعنيه الرحمة في القرآن[1]، حيث أشار إلى أن الأنبياء هم جميعاً تجلّيات للرحمة الإلهية، ولكن تمام هذا التجلّي للرحمة كامن في رسول الله ﷺ، تماماً كما هو الحال في رسالته ودعوته من حيث هي تمام وكمال للتجلّي الرسالي في تاريخ الإنسان وحياته...

إذن، العالمية ليست مجرّد فعل إنساني، أو تعبير مجازي، يمكن اختياره، والشروع فيه بإرادة إنسانية بمعزل عن إرادة الله واختياره[2]. إنّها إرادة الله تعالى في أن تكون عالمية الإسلام، وخاتميّة الرسالة الإسلامية رحمة للعالمين لجهة تحقق الكمال والتمام والرضا الإلهي في الرسول والرسالة معاً. بيدَ أنّ هذا المعنى الذي نذهب إليه لا يعني بحال من الأحوال نفي الإرادة الإنسانية عن تحقيق هذا الفعل، بل

(١) يذكر الدامغاني في كتابه قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، وجوهاً كثيرة للرحمة الإلهية، ويرى أنها على أربعة عشر وجهاً، وهي: الإسلام، الجنّة، المطر، النبوة، النعمة، القرآن، الرزق، النصر والفتح، العافية، المودّة، الإيمان، التوفيق، عيسى عليه السلام، محمد ﷺ. فآية عيسى عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾، وقال في رسول الله محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾. فالرحمة هي صفة لأن الهاء والكاف في «ولنجعله» و«ما أرسناك» هما للنبيَّين عليهما الصلاة والسلام، فلفظ الرحمة صفة لهما وأثر من رسالتهما.

را: الدامغاني، الحسين بن محمد، قاموس القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٥، ص٢٠١.

(٢) يقول شمس الدين: إنّ مبدأ العالمية، عالمية الرسالة الإسلامية هو مبدأ أساس في صميم الرسالة الإسلامية منذ بعث النبي ، وإنكار هذا المبدأ لا ينبعث إلاّ عن جهل أو عن سوء نيّة...

انظر: بين الجاهلية والإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، ص٢١٥.

هي فعل أساسي في تجلّياته، إلاّ أنه لا بدّ أن يكون مسبوقاً بالكلمة الإلهية، ومنطلقاً منها لكي يكون له معنى العالمية[١]. إذ لا يكفي أن تدّعي أمّة، أو شعباً، أو قوماً، أنه مستوفٍ لشروط العالمية، أو أن يدّعي صلاحية رسالته أو دعوته لكل زمان ومكان، لأنّ هذا، كما أشرنا، يبقى مشروطاً بإرادة الله تعالى واختياره، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢]، فإذا كان الأنبياء جميعاً يدعون إلى الله تعالى، ويبلّغون عنه الأحكام والتعاليم والمبادئ، كلٌّ في زمانه، فذلك إنّما يعني وعي النبوّة لحدود رسالتها، وأمد دعوتها على نحو ما بلَّغ نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام، وكلّ الأنبياء الذين تواتر الكلام عنهم أنهم دعوا إلى الله تعالى وبشّروا باستمرار الدعوة إلى أن يكتمل الناموس، كما جاء في التعبير الإنجيلي في قول المسيح عليه السلام: «**ما جئت لأنقض الناموس، بل لأكمل الناموس...**»، بما هو شريعة ومحبّة ورحمة إلهية متجلّية في هذا الامتداد الرسالي في تاريخ الإنسان. وهذا، كما رأينا ليس اختياراً إنسانياً، لأن الله تعالى أراد للبشرية أن تتكامل في إطار ما أُعدّت له من تحوّلات إنسانية، والله أعلم بما خلق ودبّر، وبما إليه هدى، وقد شاءت حكمته أن تتعدّد الشرائع ليكون لكل أمّة شرعة ومنهاجاً تهتدي من خلاله إلى طاعة الله تعالى، وتصدر عنه في كل أمر ونهي. كما شاءت الحكمة الإلهية أن تكون رسالة الإسلام هي الكلمة الخاتمة والشريعة الكاملة، وأن يكون في الإسلام تمام الرضا الإلهي، كما قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٣].

---

(١) نحن نرى أن الحضارة التي أبدعها الإنسان الأوروبي منذ عهد النهضة إلى يومنا هذا، هي حضارة عالمية لجهة ما انتهت إليه من أعمال عظيمة، ولكنها ليست عالمية بالمعنى الإنساني للكلمة، فهي عالمية من حيث التوسع والانتشار، وليست عالمية من حيث المنبع والمحتوى، وهذا ما قصدنا به أن الإنسان له إرادة الفعل، ولكنه ليس هو الذي يحدّد معنى العالمية بما هي تجلٍّ للرحمة الإلهية لجهة ما تتجلّى به هذه العالمية من قوانين وأحكام إلهيّة في حياة الإنسان..

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

لقد اعتقد بعض المسيحيين أنه من خلال (الكرازة) التبشير يمكن أن تتحقّق العالمية المسيحية كما أرادها بولس الذي لم يكن من تلامذة المسيح عليه السلام أصلاً[١]، وعلى فرض أنه استطاع أحد من المبشرين أن يحقق هذه العالمية من حيث هي قول وفعل وأثر في الحياة، فهل هو يملك إمكانية أن يجعل من هذه العالمية رحمة للعالمين، وهو يعلم أن المسيح منع من المضيّ في طريق الأمم...؟ وهدى بني إسرائيل إلى سبيل السلامة في الدين والدنيا ليكونوا مع تمام الرسالة وكمالها في مستقبل دعوتهم وكرازتهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[٢]...

إنّ المسيح عليه السلام كان يطوف كل الجليل يعلّم في المجامع، ويكرز (يبشّر) بملكوت الله، كما فعل سائر الأنبياء من قبله، وهو عليه السلام لم يرد لدعوته وبشارته أن تتجاوز بني إسرائيل، إذ كيف يكون ذلك منه، وهو يعلم أنّ عالمية الرحمة هي شأنية مَن يكمل الناموس، فهل أن المسيح عليه السلام لم يكن يدرك معنى كمال الناموس؟

لقد بيّن أحمد شلبي في بحثه عن المسيحية «**أن بولس كان له دوره في نقل المسيحية من دين خاص باليهود إلى دين عالمي**»[٣]. وهذه العالمية الخاصة بالأنبياء كان قد تقدّم الكلام فيما تعنيه في الزمان والمكان والتاريخ والنبوة الخاصة. أما من حيث هي رحمة للعالمين، فلم يأتِ أحد على ذكرها إلاّ في سياق التبشير عن الأنبياء بها في تاريخ الإنسان، لأنّ معنى العالمية، كما بيّنّا من حيث هي رحمة، ليست مجرّد تعبير لفظي، وإنّما هي فعل إلهي يختاره لعباده في ضوء ما أهّلوا له وزوّدوا به من إمكانات عقلية ونفسية وروحيّة للقيام بها. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإنّ أحداً لم يشرح لنا الكيفية التي يمكن بها ادّعاء العالمية، والإنسان قاصر

(١) مرتضى، بسام، المسيح بين القرآن والإنجيل، تقديم السيد فضل الله، دار الحق، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص٤٥.
(٢) سورة الصف، الآية: ٦.
(٣) شلبي، أحمد، مقارنة الأديان، المسيحية، م، س، ص٣٥.

في خلقه وهديه عن أن يكون قادراً على القيام بها، وهذا ما لا يتنافى مع ما ذكرته الأناجيل من أنّ عيسى عليه السلام قال لهم: «**فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الأب والابن وروح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيّام إلى انقضاء الدهر**». فهو كلام ناطق بالدعوة، متقوّم بالبشارة إلاّ أنه لا يفيد أن المسيحية ديانة عالمية، أو رسالة نهائية، لأنّ المسيح عليه السلام لا يتناقض مع حقيقة كمال الناموس، تماماً كما لا بدّ لنا أن نتعلَّم معنى الدخول في الملكوت، وهذا ما كشف عنه القرآن الكريم فيما تضمّنه من آيات عن عيسى عليه السلام الذي بشّر بالنبي أحمد، وأمر باتباعه تحقيقاً لعالمية الدعوة، وتأكيداً على تجلّيات الرحمة، ذلك هو معنى أن يكون الإنسان الرسالي عالمياً، أن يتحرّى الناموس، ويتلمّس كمال الدين وتمام النعمة حتى يكون وفياً لكرازة عيسى عليه السلام ولكل مَن سبقه من الأنبياء العظام.

إذن، ليس التبشير هو الذي يؤكّد العالمية للرسالة، أو الذي يعطيها أبعادها في الزمان والمكان والتاريخ، باعتبار أن الرسالة شأن إلهي، والرحمة الإلهية كامنة في الرسول والرسالة معاً، ولا بدّ أن يلحظ الحوار الديني والدعوة إلى الله هذا المعنى الجامع لتاريخ الأديان، والذي جعل من الرسالة الإسلامية، رسالة مهيمنة على كل الأديان، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[1]. فإذا كان لا بدّ من التبشير في إطار الدعوة الدينية، فإنّه يمكن لكل قوم أو أمّة، أو شعب أن ينطلق في الحوار مبشّراً وداعياً إلى الله تعالى دونما خوف أو وجل من تأثير هذه الدعوة، باعتبار أن الدعوة شيء، وتحقّق العالمية شيء آخر، ولكن شرط ذلك كلّه أن يكون مسبوقاً بالاعتراف المتبادل بامتداد السلسلة النبوية في تاريخ الإنسان، لأنّ أحداً لا يمكنه الحكم عن الله تعالى والحدّ من قدرته المطلقة، بحيث يستطيع أن يمنع من تجلّيات رحمته

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

وكمالات رسالته، فهو القائل عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾. وبما أنّ هذا الدين قد دعا إلى الحوار والتلاقي والتعايش، ومنع من الإكراه في الدين، وحتّم الخسارة في الآخرة لمن ابتغى غير الإسلام ديناً، فلم يبق أمام أهل الإيمان إلاّ أن يتلاقوا ويتفاعلوا، سواء أكانوا هم من نطق بهم القرآن، أم لم يكونوا، كما زعم بعض الباحثين في الأديان بأن المسيحية اليوم ليست النصرانية التي التقاها القرآن، أو أن المسيحيين اليوم ليسوا المقصودين بأهل الكتاب، إلى غير ذلك مما ادّعاه بعضهم، وزعم أنه يحول دون إقامة حوار بنّاء بين المسيحيين والمسلمين، ويرى هؤلاء، من جملة ما اقترحوه من حلول لإنجاح الحوار ضرورة الإقرار بأنّ ما ورد في القرآن حول إيمان أهل الكتاب النصارى لا يعبّر التعبير الصحيح عن الإيمان المسيحي الذي يعتنقه المسيحيون اليوم[١].

إنّ أحداً من المسلمين لا يذهب إلى القول بأنّ من شروط العالمية، أو الحوار أن يكون ما جاء في القرآن منطبقاً على النصارى فيما يذهبون إليه، سواء في مجال الاعتقاد، أم في مجال شؤون الحياة، وإذا كان النصراني الذي عاش في عهد النبي محمد يختلف في بعض مفاهيمه وعقائده عن النصراني في هذا العصر، فإنّ ذلك، لا يغيّر شيئاً في القضيّة المطروحة، وهي الروحية التي يوحي بها القرآن لأتباعه على أساس القيمة الأخلاقية الروحية في تعاليم النصرانية، وفي السلوك العملي المنفتح على الله تعالى للقساوسة والرهبان[٢].

ومما لا شكّ فيه أن هناك نصرانية قرآنية يعتبرها القرآن جزءاً منه، وهذا ما تقدّم الكلام فيه في الفصل الأول. أما النصرانية التي رفضها القرآن، فهي سواء أكانت موجودة اليوم، أم لم تكن موجودة، فقد أرشد القرآن إلى طريقة التعامل

(١) را: كيرلس سليم بسترس، العلاقات الإسلامية المسيحية، تاريخاً وحاضراً، ورؤية مستقبلية، مركز الدراسات الاستراتيجية، م. س، ص٢٢٥.

(٢) هاشم، شريف، الإسلام والمسيحية، م. س، ص١٥.

معها، ويكفي أن نهتدي إلى فهم القرآن في طريقة التعامل، والتفاعل مع أهل الكتاب، أو مع غيرهم ممن لا يؤمنون به. فإذا لم نهتدِ إلى المنهج، فإنّنا سنسقط في الإيهامات والمصطلحات التي لا طائل منها، فلا ينبغي أن ينفعل أحد الباحثين، أو يشترط لإنجاح الحوار، طالما أنه يريد الحوار مع المسلمين، وينشد أن تكون له عالمية مسيحية داعية في إطار الدعوة إلى تحقيق الذات والمجتمع بالمسيحية. فالإسلام يحترم حقوق الناس، ويدعو إلى التعامل بالحسنى، ويمنع من التصارع في سبيل نجاح الدعوة الحوارية.

ومن هنا نقول: إنّه إذا لم يهتدِ بعض الباحثين إلى المنهجية القرآنية في ما يدعو إليه من إيمان وتعامل وتعايش، فكيف يمكن لهؤلاء أن يصدروا عن دعوة إيمانيّة يرون أن لها بعدها العالمي، ويريدون أن يلحقوا العالم بها من خلال التبشير؟ بل كيف لهم أن يميّزوا بين ما ذهب إليه القرآن من تكفير لهؤلاء[١]، وبين ما خاطب بها القرآن أهل مكّة، وعموم المسلمين، سواء أكانوا مؤمنين، أم لم يكونوا كذلك؟؟

فإذا لم يستوعب هؤلاء معنى الكفر في دائرة الرفض لأمر ما، أو لعقيدة ما في الحياة، فهل يمكنهم أن يلحظوا معنى الكفر والإيمان في الأناجيل مثلاً؟

إنّها أسئلة كثيرة يمكن أن نعرض لها في سياق الدعوة إلى العالمية والتبشير، ويمكن لأهل الإيمان أن يتابعوا الخطى في طريق الإيمان لأجل أن يكون لهم معنى الإيمان، حيث تقدّم الكلام أن الإيمان لا تاريخ له ولا زمان ولا مكان، بل هو التاريخ وهو الزمان والمكان والحياة. بل إنّه الإنسان بما هو إنسان ملتزم ومنتم إلى الله تعالى في صيرورة تحوّله الإنساني ليكون إنساناً كادحاً إلى ربّه، وكاملاً في رؤيته

(١) إنّ كلمة الكفر في القرآن لا تنطلق من نفي إيمان المسيحيين بالله تعالى، لأنّ القرآن، كما بيّنّا سابقاً، يؤكّد هذا الإيمان عندما يتحدّث عن الكلمة السواء، وعن توحيد الله في مضمون هذه الكلمة، بل ينطلق من الكفر بالرسول محمد باعتبار أن المسيحيين لا يؤمنون به كرسول من قبل الله، مع العلم بأن الكفر بالرسول يجعل الإنسان كافراً من هذه الناحية، وعموماً يمكن القول إنّ الكفر والإيمان عنوانان نسبيّان، كما يرى فقهاء المسلمين، فهناك كفر وإيمان يتنوّع حسب تنوّع موارده، فقد يكون الإنسان كافراً بالنسبة إلى شيء، ومؤمناً بالنسبة إلى شيء آخر، فنحن نؤمن بالله ونكفر بالطاغوت. را: العلاقات الإسلامية المسيحية، م، س، ص٤٣.

الإيمانية التي هي شرط كل عالمية، لأن رسول الإسلام ، هذا الإنسان الكامل، ولأنّ عيسى هذا الإنسان الكامل، قد خصّهم الله تعالى بمعنى الرحمة لكونهم يشكّلون امتداداً رسالياً يصل آخر الزمان بأوّله، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[1].

وكيف كان، فإنّ من يذهب إلى ادّعاء العالمية ويسلك سبيل التبشير إليها ظنّاً منه أن العالمية هي مجرّد امتداد بشري في الجغرافيا والتاريخ، هو مخطئ تماماً، لأنّ العالمية الإسلامية، كما بيّنّا، هي عالمية رحمة وتحتاج إلى صدق الدعوة، وإلى سلامة العقيدة، وإلى تحكيم أمر الله تعالى في الحياة، الأمر الكامل والنهائي حينما تكون هذه العالمية قابلة للتحقق في مدى الإيمان، وليس في مدى الأزمان، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ...﴾[2]. فإذا كان لأهل الكتاب أن يمتدّوا في الإيمان، فما عليهم إلاّ أن يسمعوا لنداء الرحمة الإلهية، الذي كان ولا يزال المسيح عليه السلام من تجلّياته، وهو النداء ذاته الذي عبّر عنه الإسلام في عقيدته وشريعته ونظامه الأخلاقي، وليس بعد الحق إلاّ الضلال، فليكن التبشير لغة الإنسان إلى أخيه الإنسان دون أن يغرب عن بال أحد من أهل الإيمان أن هناك من البشر في التاريخ والزمان مَن لا يؤمن بهم، ويذهب إلى خلاف ما يذهبون إليه في الدعوة والتبشير، فإذا لم يكن التبشير صادقاً، والإيمان خالصاً، فإنّ الصراع والقتال سيكون بديلاً للعالمية الدينية، وسيتحوّل الإنسان عن كونه عبداً لله ليكون مجرّد إنسان ضلّ عن السبيل، تماماً كما حصل في تاريخ الأديان حينما ظنّ الإنسان بنفسه خيراً وخرج عن مألوف الحوار، وادّعى ما لم ينزل الله به سلطاناً، وكانت النتيجة حوار الحرب والسلاح، والتنازع، إلى غير ذلك مما يعدّ منافياً للرحمة الإلهية التي جاء بها الأنبياء.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٥.

إنّ المطلوب من أهل الإيمان، برأينا، أن يتجاوزوا لغة الألفاظ، وأن يستجيبوا لنداء الفطرة الهاتف في داخلهم، ليعرفوا أنّ العالمية ليست عملاً تبشيرياً، بقدر ما هي إلتزام حقيقي بما جاء به الأنبياء وبلّغوه إلى أقوامهم، ليمتدّوا به في الإنسانية كمقدّمة في طريق الرحمة الإلهية، هذه الرحمة التي كانت دائماً سبب خروج الإنسان من ظلمات نفسه إلى نور ربّه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ...﴾[١].

إنّ نور الله الذي جاء به الأنبياء، كما قال عيسى عليه السلام: «**أنا نور العالم ومن يتبعني لا يمشي في الظلام**»، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها**»، وهذا هو ختام معنى العالمية أن علم الله تعالى هو في مدينة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما تعنيه هذه المدينة من استيعاب لحركة النبوّة، ومن امتداد في التاريخ والزمان والحياة، ومن رحمة تجلّى بها الإسلام، كما قال الله تعالى في خطاب الإنسانية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[٢]، وهنا نلحظ كيف أن الخطاب جاء بلفظ يا أيها الناس، إذ لم يقل يا أيها الذين آمنوا، كما جاء بلفظ البرهان لنبيّ الرحمة، والنور للقرآن ليؤكّد على امتداد النور في معنى الإيمان الذي نطق به الأنبياء العظام من آدم إلى نبيّ الإسلام العظيم صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانياً: الحوار في مجال العقيدة

تمهيد

دأب المشتغلون في الحوار الإسلامي المسيحي، وفي علم مقارنة الأديان، على التركيز والاهتمام بالحوار من منطلق أنه مسألة دينية ذات بُعد جوهري في حياة المؤمنين. وقد أخذ بعض الباحثين على كثير من المثقفين وأهل السياسة

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٤.

والفكر إهمالهم وتجنّبهم للحوار وعدم اكتراثهم لما يحدث في العالمين الإسلامي والمسيحي من مؤتمرات وندوات لجعل الحوار مادة حياة وأكثر فعّالية في أوساط المؤمنين، سواء أكانوا مسيحيين أو مسلمين. وهنا تجدر الإشارة إلى حقيقة ملحوظة وبارزة لدى مَن يعمل للحوار، وهي أن أكثر المشتغلين في الحوار وعليه، قد أساؤوا له وحوّلوه إلى مادة تجاذب في السياسة يأخذ بها هذا الطرف أو ذاك في ضوء مصالحه ومشروعه الخاص، أو لتدعيم رؤية خاصة في المجال الديني، أو السياسي بحسب ما يكون عليه الحال من هدوء واضطراب في الواقع الإنساني. ولعلّنا لا نسيء إلى أحد إذا قلنا أن أكثر إخفاقات الحوار والتحاور قد تجلّت في اعتبار البُعد التاريخي والسياسي للحوار دون التعمق في مدلولات النظرية الدينية، سواء أكانت إسلامية، أو مسيحية لإبراز المعنى الديني وما يحكم به هذا المعنى في حياة المؤمنين.

إنّ التقديم النظري لهذا المبحث، إنّما يهدف إلى إبراز أصالة الحوار والبُعد الديني كما جاءت به الرسالات المقدّسة، وما لحظته هذه الرسالات من حقائق في التكوين والتشريع معاً. فإذا استطاع الباحثون إدراك هذه الحقائق، والكشف عنها، فإنّ ذلك من شأنه أن يمكنهم من التأسيس لمنطلق حواري هادف وناجح من خلال إعطاء الحوار بُعده الديني، كما جاءت به الرسالات، دونما اعتبار للتجارب التاريخية التي غالباً ما كانت تشوّه الرؤية عند المتحاورين، باعتبار أن التجربة لم تحمل خصائص النظرية فيما عبّرت عنه، كما أنها لم تكن تُضفي الطابع الإنساني والإيماني على الواقع، بل كانت تتجاوز ذلك إلى كثير من التعبيرات الشخصانية الخاصة بهذا الفريق أو ذاك، فضلاً عمّا كانت التجارب محكومة له من أنانيات وعصبيات قاتلة باسم الدين والإنسانية...!؟

من هنا، نرى أهمية لانطلاق المتحاورين في ما جاءت به الرسالة المقدّسة، ونطقت به من أحكام وتعاليم ثابتة ومعبّرة عن جوهر الإيمان، ولعلّها في أكثر ما جاءت

به واضحة وكاشفة ولا تحتاج إلى كبير عناء كي يتمكّن الإنسان من إدراك حقائقها والتعبير عنها، خلافاً لما يجري عليه البعض من تعمّق في المفردات والمقارنات والمقاربات لتحوير النص، أو تشويهه وفاقاً لرؤية خاصة يرى أنها تخدمه فيما يعبّر عنه ويريده لواقعه ومشروعه في مقابل رؤية أخرى مخالفة له، وقد شهدنا الكثير ولا زلنا نشهد الكثير من المناظرات والندوات والمؤتمرات، التي تعقد حول الحوار والإيمان وضرورة استمراره في أجواء المناكفة والتثبت بالرأي والرأي المضاد. وكأنّ المطلوب هو مجرّد الحديث والتحاور وإظهار القدرة الفكرية والعلمية في تناول النصوص وشرحها، وهذا ما لا نرى فائدة منه فيما لو كان المبتغى هو تعزيز الروح الإيمانية الباعثة على هذا الحوار، وإبرازه بالشكل الذي يؤدّى به إلى أن يكون حواراً إيمانياً فاعلاً وممتدّاً في الزمان والمكان الإنساني، وقد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «**إنّ مَن يطلب الحديث عن اليهود والنصارى ليعزّز علمه ويُكثر به حديثه، فهو ممن لا يؤتمن لا على دين، ولا على دنيا... وهو في الدرك الأسفل من النار**»[١].

إنّ فهم النظرية الدينية، واستيعاب ما جاءت به في أصولها الكبرى، وعبّرت عنه من حقائق في التكوين والتشريع، إضافة إلى ما أصّلت له هذه الرسالات المقدّسة من حوار تعاون وتفاعل بين أهل الإيمان من جهة، وبينهم وبين غير المؤمنين من جهة أخرى، إنّ فهم ذلك كلّه من شأنه أن ينير للإنسان طريق الحوار، وأن يهديه إلى السبل الكفيلة بتحقيق الغاية من وجوده وتفاعله وتحاوره... وتأسيساً على هذا كلّه يمكن الحديث عمّا تضمنته الرسالات الدينية من حقائق، وفيما أصّلت له في العقيدة والشريعة والأخلاق[٢]..

---

(١) را: الفيض الكاشاني، محسن بن مرتضى، (ت ١٠٩١هـ)، نوادر الأخبار فيما يتعلّق بأصول الدين، مؤسسة مطالعات، قمّ المقدّسة ١٣٧٤هـ، ص٣٦.

(٢) يقول الإمام علي عليه السلام: «الدنيا كلها جهل إلا في مواضع العلم، والعلم كلّه حجّة إلاّ ما عمل به، والعمل كلّه رياء، إلاّ ما كان مخلصاً، والإخلاص على خطر حتى ينظر العبد بما يختم له.
را: الكاشاني، م. س، ص٢٨.

أ. التنوّع في العقيدة:

من الحقائق الكبرى في عالم التكوين، هو ما أرشدت إليه الكتب المقدّسة وعبّرت عنه في مجال الخلق والإبداع، حيث التنوّع والتعدّد والاختلاف في كل ما خلقه الله تعالى، سواء في عالم النبات، أو في عالم الحيوان، أو في عالم الإنسان، فالله تعالى شاء أن تكون الموجودات والكائنات على ما هي عليه من الصنعة والإبداع والتنوع والاختلاف، ولو شاء الله تعالى لجعل الناس أمّة واحدة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[١]، فالكل منه، والكلّ إليه يرجع، وهذا ما عبّرت عنه الوثيقة التي أصدرها المجمع الفاتيكاني عام ١٩٦٥م، والتي أشارت إلى أنّ البشر هم أسرة واحدة أصلها الله الواحد وغايتها الله الواحد نفسه، فهم جميعاً من أصل واحد... ولهم جميعاً غاية قصوى واحدة وهي الله تعالى...»[٢].

إنّ العالم ما كان ليستقرّ إلاّ على ما جعله الله تعالى من تعدّد وتنوّع واختلاف، وكما يقول السيد مرتضى الشيرازي: «**إنّ هذا التنوّع في عالم الموجودات المادي ما خفي منها وما ظهر، سيجعلنا ننتقل بالفكر إلى التنوّع الموجود في ميول البشر وفي اعتقاداتهم واتجاهاتهم، وليس خصوص تنوّعهم المادي في أشكالهم ولغاتهم وأمزجتهم... فهذا التنوّع هو أحد مظاهر الوجود البشري منذ العهود الأولى للجنس البشري على هذه الأرض، ولم يأتِ وقت على النوع الإنساني لم يكن مختلفاً أو متنوعاً في اعتقاداته الدينية والسياسية...**»[٣].

فالتنوّع في عالم الوجود هو من الحقائق الثابتة، وكل موجود على هذه الأرض ينطق بهذه الحقيقة ويعبّر عنها ويتعايش معها، وهذا ما كشفت عنه تعاليم الأنبياء والرسل،

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٨.

(٢) را: المطران بسترس، الوثيقة المسيحية، قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل، مركز الدراسات الاستراتيجية، ص٢٣٥.

(٣) الشيرازي، مرتضى، التعددية من منظور قرآني، م. س، ص١٤.

بدءاً من النبي آدم عليه السلام وانتهاءً بالرسول محمد صلى الله عليه وآله الذي جاء بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[١].

إنّ مقاربةً للحوار في مجال هذه الحقيقة الوجوديّة، لا بدّ أن تؤسّس لرؤية كاشفة في مجال التفاعل والتحاور والتعارف بين البشر إلى أي دين انتموا، وفي أي زمان كانوا، فهم من أصل مادي واحد، ومن روح واحدة، أسكنوا هذه الأرض لتكون لهم غاية واحدة هي الله تعالى، وقد بُعث الأنبياء والرسل للناس ليرشدوهم إلى حقائق هذا الكون، بحيث ينطلقوا منها ويعملوا وفاقاً لها بعد إثارة دفائن عقولهم، وأداء التبليغ إليهم..»[٢].

فالنبوّة في كل زمان ومكان كانت تضطلع بهذه المهمّة، وتقوم بهذا الدور لتحقق للإنسان ما يكفيه لإثارة طريقه وإرشاده إلى سبل كماله. وهنا تجدر الإشارة إلى أنه لم تأتِ رسالة، ولم يبعث رسول في حياة البشرية إلاّ وتؤكّد هذه الحقيقة وتظهرها ليعرف الإنسان أن تعدّده وتنوّعه واختلافه إنّما هو شرط أساسي في نهوض البشرية، وفي تحقيق كمالاتها الإنسانية.

وانطلاقاً من ذلك، نرى أنّه لا بدّ للحوار من أن ينطلق من حقيقة التنوع والاختلاف في عالم الإنسان، وهو اختلاف مبرّر ومشروع في ضوء ما تنطق به حقائق التكوين والتشريع، ولعلّ من أكثر الأسئلة إلحاحاً عند الباحثين. كان السؤال التالي: هل هذا التنوّع في باب الاعتقادات، هل ينسجم مع طبيعة الخلق الإنساني؟ هل ينسجم مع أهداف وغايات الخلق، أو أنه ينسجم مع هذه الأهداف وهذه الغايات؟ والحق هو أننا إذا قارنّا هذه الظاهرة في تنوّع البشر الاعتقادي، وتعدّد البشر الاعتقادي، مع ظاهرة

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) يقول الإمام علي عليه السلام: «... فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته... ويحتجّ عليهم بالتبليغ، ويثير لهم دفائن العقول...».
نهج البلاغة، الخطبة ٣٧.

التنوّع والتعدّد الشاملة لكل مظاهر الخلق المادي في جميع الأكوان، فينبغي أن نراها ظاهرة طبيعية تنسجم مع أهداف الخلق، وأهداف الوجود في هذا العالم[١]..

فلو لم يكن العالم الإنساني متنوعاً ومتعدداً لما قال القرآن تعارفوا، أو تعاونوا، أو غير ذلك مما جاءت به الآيات القرآنية من تأكيد على حقيقة التنوّع والتعدّد في هذا العالم. ولهذا، فإنّ معنى أن يتنوّع الإنسان في عقيدته وشريعته وثقافاته، أو أن يختلف في رؤيته، أن يتحوّل الإنسان في صيرورته الإيمانية، وأن يتحاور وفاقاً لهذه الحقيقة التي جعلها الله تعالى ماثلة أمامه في كل ما خلق الله تعالى، بحيث يكون للإنسان القدرة والقناعة الكافية على استيعاب هذا التنوّع والتحوّل بمقتضاه للوصول إلى الغاية المرجوّة، وهذا هو سرّ تدرّج الرسالات وتواصلها وتوحدها في الأصول، بحيث يفهم الإنسان المؤمن وغير المؤمن أن التعدّد، أو التنوّع ليس في الأصول التي هي واحدة، وإنّما هو في صيرورة التحوّل الإنساني الهادف إلى تحقيق الكمال والفوز بالرضوان الإلهي. ولعلّ ما أشار إليه سيّد قطب كاشف عن هذه الحقيقة في تفسير قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢]، فهو يقول: إنّ الكتاب يصدّق ما بين يديه من الديانات التي سبقته وامتدّت إلى زمانه، يصدّقها في أصولها، فهو صورة من صور الحق التي جاء بها الرسل مناسبة لزمانهم، وكلما تغيّرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد يتفق في أصله ويختلف في فروعه تدرّجاً مع الحاجات. مع تصديق اللاحق للسابق في أصل الوحدانية الكبير[٣]...

إنّ مقاربة الحوار في ضوء هذه الحقيقة، حقيقة التنوّع واستيعابها في ضوء الأصول الكبرى للإيمان، هذه المقاربة من شأنها أن تجعل الإنسان قادراً على الخروج من موقعه الإيماني الخاص ليكون أمام حقيقته وسرّ وجوده واستخلافه

(١) إنّ فلسفة التعددية، هي الابتلاء، والامتحان، والتكامل، وقد بيّنّا أن التكامل معلول للاستباق، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، والهدف الأقصى هو الله تعالى.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٣) قطب، سيد، في ظلال القرآن، م. س، ج٢، ص١٢٢.

ووحدة أصوله المادية والمعنوية، إذ هو عبد لله تعالى في كلّ تنوّعاته واعتباراته الإيمانية والإنسانية. ولا بدّ أن يسلك طريقه إلى الله تعالى بحسب ما يحققه من انتماء والتزام في صيرورة تحوّلاته وعباداته. إنّه إنسان واحد في روحه، وغايته الوصول إلى الله تعالى، باعتباره عبداً له إلى أيّ دين انتمى، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[1].

وهكذا، فإنّ الانطلاق من حقيقة التنوّع في العقيدة والثقافة ومجال الرؤية، لا يشكّل حائلاً أمام تواصل الإنسان، وإنّما هو طريق إلى الله تعالى، ومن شأن الحوار والتعارف والتعاون أن يُغني هذا التواصل، وأن يجعله أكثر مثالية وإنسانية فيما لو اعتبر في أصوله وجاء في سياقاته بعيداً عن الاستغراق في التنوّع والتعدّد، وكذلك بعيداً عن الانغماس في التجربة التاريخية وما زخرت به من أحداث لا تمتّ إلى الإيمان بصلة. باعتبار أن الحوار له أصوله ومنطلقاته الوجودية والإيمانية التي تفرض على الإنسان مراعاتها والانطلاق منها في فهم الآخر والتعامل معه. فإذا لم تلحظ هذه المنطلقات والحقائق فيما أراده الله للإنسان في تنوّعه وتعدّده، واستقلّ الإنسان عن حقيقة التواصل الإيماني فيما تعنيه من عبودية، واتخذ لنفسه حيّزاً آخر بعيداً عن حقائق الخلق والتكوين وما تهدف إليه، فإنّ ذلك كلّه من شأنه أن يجعل الإنسان أسيراً للتعصّب والهوى، ونقيضاً للإنسانية فيما قد يختاره لنفسه من تمايز في الخلق والتكوين والتشريع، هذا فضلاً عمّا يمكن أن تؤول إليه حالة الإنسان من تصادم على مستوى الرؤية الإيمانية، بحيث يكون له من ذلك تحوّلاته الخاصة وديانته الخاصة، التي تبعده عن كونه عبداً ليكون إلهاً!؟

ثم إنه إذا استحال على الإنسان أن يكون متواصلاً مع أهل إيمانه، فكيف يكون له التواصل مع أقوام وشعوب أخرى لا تعترف له بأصوله وفروعه، وتتنكّر لعبوديّته،

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

وترى لنفسها ما لا تراه لأهل الإيمان ممن ينتمون إلى الديانة الإبراهيمية؟

إنّ مقتضى الإيمان بالله تعالى، وسلوك الطريق إليه أن يتحوّل الإنسان في عبوديته ليكون عبداً لله تعالى، وليس لما يختاره لنفسه، ويراه لها من حق وتمايز في التكوين والتشريع. كما أن مقتضى الإيمان أن يتواصل الإنسان مع أخيه الإنسان، وأن يتحاور معه من منطلق كونه إنساناً وعبداً لله تعالى، فلا يستقلّ بإيمانه وإنسانيته عن الآخرين، ولا تستغرقه عبادته عن الهدف الأقصى الذي يسعى إليه، وهذا هو معنى الإنسانية في دائرة العبودية أن يكون له ما للآخرين من بني نوعه، وأن يكون الله تعالى هو الغاية القصوى، فإذا ما استوى الإنسان على هذا المعنى، وتحقق بهذه العبادة، فلا يُبقي لنفسه تمايزاً، ولا تأخذه العزّة بالإثم، وينظر إلى الآخرين نظرة الإنسانية، التي عبّر عنها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله لمالك الأشتر: «**الناس صنفان إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق**»[1].

كما نعود للقول بأن الاستغراق في التاريخ والجغرافيا والأحداث لا يجدي نفعاً فيما لو كان المراد هو تحقيق حوار بنّاء وفاعل، لأنّ التاريخ والتجربة وما صنعه التاريخ والأباطرة والطواغيت، لم ولن يشكّل مجالاً للحوار، وهو إن شكّل مجالاً لشيء، فإنّه يشكّل مجالاً للحرب بين أهل الإيمان. إنّ أقصى ما يمكن أن تشكّله التجارب التاريخية هو إسقاط الوصفية والحزبية والتعصّب الأعمى، الذي يحول بين الإنسان وبين أن تكون له عبوديّته الحقّة وإيمانه السليم ورؤيته الإنسانية. ومن هنا، نرى أنه لا معنى لان نحتكم لشيء من ذلك، لا للتاريخ ولا للسياسة في مقاربة موضوع الحوار لما قد يُفضي إليه ذلك من استغراق في التعبير والتأويل للأسفار والآيات وسائر النصوص المقدّسة، التي تحوّلت مع التاريخ والأحداث والتجارب، لتكون منابر حرب بين المؤمنين تحت شعارات وعناوين شتّى، تارة تحت شعارات

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣.

المسيحية هي كلمة الله الأخيرة للإنسان، وطوراً تحت شعارات التعرّض للإسلام أنه ليس ديناً موحى به من السماء، ولعلّ من أغرب ما قرأناه في هذا السياق هو تساؤل بعض الباحثين عمّا إذا كانت المسيحية التي يعرض لها القرآن ويتحدّث عنها هي ذاتها المسيحية الموجودة اليوم، سعياً منه لإخراج المسيحية من أجواء الحوار أو النقد القرآني[١]!!.

إنّ هذا التساؤل لا يمكن فهمه في سياق الرؤية المتكاملة لمعنى الرسالة المقدّسة في حياة الإنسان، وخصوصاً في ظلّ ما ذهب إليه صاحب التساؤل من أن إله المسيحية والإسلام ليس إله الفلاسفة الذي خلق الكون وتركه وشأنه، بل هو الإله الذي كلّم الناس بالأنبياء»[٢]، فهذا القول يؤكّد معنى التواصل والتكامل، ويتعارض مع تساؤله، ولو أنّه سلك مسلكنا في البحث لما ساقه التساؤل إلى مثل هذه الرؤية الفكرية، ولما كان استقرّ به الحال عند تفاصيل معنى الرسالة، ولكان اقتصر على معنى الإنسان في تنوّعه واختلافه وكدحه في مجال العبوديّة والطاعة لله تعالى في كل زمان ومكان، طالما أن الله تعالى لم يترك عباده لشؤونهم واستمرّ في تكليمهم بالأنبياء، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾[٣].

ب ـ حوار العقيدة وتواصل الأديان:

جاء في إنجيل يوحنّا أن عيسى قال: «**إذا كنتم تحبّوني، حفظتم وصاياي، وأنا سأسأل الآب فيهب لكم مؤيِّداً آخرَ فيكون معكم إلى الأبد...**»[٤] وهذا الكلام الإنجيلي يدلّل بوضوح على تواصل الأديان بالأنبياء، وهذا ظاهرٌ فيما تفيده دلالة السياق،

(١) انظر: المطران بسترس، العلاقات الإسلامية المسيحية، م. س، ص٢٢٥.

(٢) م. س، ص٢٣٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٤) إنجيل يوحنّا، ١٤/٧ ـ ١٦. الكتاب المقدّس، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ص٢٣٧.

وخصوصاً إذا ما أضفنا إلى هذا الكلام ما ذكره يوحنّا من كلام آخر لعيسى عليه السلام، إذ يؤكّد فيه أنّ هناك أشياءً كثيرة لم يذكرها لعجز قومه عن حملها، قال عيسى عليه السلام: «**لا يزال عندي أشياء كثيرة أقولها لكم، ولكنكم لا تطيقون حملها، فمتى جاء هو، أي روح الحق، أرشدكم إلى الحقّ كلّه، لأنه لا يتكلّم من عنده بل يتكلّم بما يسمع...**»[١].

فالكلام ظاهر الدلالة، مفهوماً ومنطوقاً، على حوار العقيدة وتواصل الأنبياء في التاريخ الديني. ومهما حاول بعض الباحثين أن يؤوّل هذا الكلام ليخرجه عن مدلوله الحقيقي، فإنّه لن يفلح في ذلك، لكون الكلام واضحٌ فيما يهدف إليه، سواء في معنى «**إلى الأبد**»، أم في معنى «**أرشدَكم إلى الحق كله**».

وانطلاقاً من هذا الكلام الإنجيلي نستطيع القول بأنّ الرسالات السماوية وكل الأنبياء والرسل والأوصياء، قد ركّزوا على الكدح إلى الله تعالى في تواصل مناهجهم وشرائعهم في مطلق الزمن، كلٌّ من موقعه ورسالته، وفي ضوء ما استقرّت عليه حالة الإيمان لدى كلّ شعب أو أمة من هداية وعبادة، على أساس أنّ الله تعالى هو الربّ الوحيد للإنسان، وهو الذي كلّم الإنسان وهداه إلى سبيله فيما أوحى به إليه من تعاليم وأحكام، كانت ولا تزال تشكّل أساساً لتأهيل الإنسان كي يكون عبداً مطيعاً لله تعالى، هذا فضلاً عمّا تنطوي عليه هذه التعاليم من دعوة لتأدية فروض الإجلال لله تعالى، بحيث لا تنقطع به السبل عند حدود الترنيمات، ولا تحول بينه وبين ربّه التأويلات، بل يستمرّ في كدحه لملاقاة الله تعالى، وهذا كله يمكن الاهتداء إليه بالفطرة الإنسانية الواحدة التي فطر الإنسان عليها، كما قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾[٢].

فإذا كانت الفطرة واحدة، وأحكام الله تعالى ووصاياه قد خرجت إلى النور والبرهان والدليل بالأنبياء. وإذا كانت هذه الفطرة دائمة الشهادة لله تعالى، فما

(١) م. ع، إنجيل يوحنّا: ١٦/٣ ـ ١٣، ص٣٤٣.
(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

معنى أن يستقل الإنسان بنفسه عن سائر بني نوعه ليكون له امتيازه الخاص وهدايته الخاصة وديانته الخاصة! فالدين واحد والإنسان واحد، كما هو أصل النوع واحد، سواء في الخلق من الطين[١]، أو فيما يتمتع به الإنسان من وعي وإدراك عقلي ونفس ناطقة[٢]، فهذا كلّه يؤكّد حتمية التواصل الإنساني والرسالي في الحياة الإنسانية، وفي جوّ التعارف الهادف إلى بلوغ الكمال...

أما أن يستقلّ الإنسان بنفسه متجاوزاً لحقائق التكوين والتشريع، وكل ما خلقه الله عليه ولأجله، فذلك مما يجعل الإنسان أسير شهوته وغريزته وتجربته الخاصة وحواره الخاص، الذي غالباً ما يحول بينه وبين أن يكون متواصلاً مع أخيه الإنسان، سواء أكان مؤمناً، أم لم يكن. إنّ مقاربة الحوار في هذا المجال يمكن أن تكون مفيدة وناجحة لما يمكن أن تؤدّي إليه من تلاقٍ وتعارف وتكامل بين البشر، لأنّ الإنسان أخُ الإنسان، يتفاعل معه، ويعترف به من منطلق عبوديّته لله، واستمرار الهداية له من الله تعالى.

فالمسلم والمسيحي هما على طريق واحدة، ويسيران لغاية واحدة، وإن بطرق متعدّدة، ولكنها في النهاية تؤدّي بالإنسان إلى الله تعالى، فإذا ما أدرك المؤمنون هذه الحقيقة، وانطلقوا منها في صناعة الحوار، فإنّهم بذلك يستطيعون الوصول إلى ما هو مشترك بين أهل الإيمان، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم في الحياة. فالتعدّد والاختلاف هو طريق إلى التوحّد. وليس سبباً للانفصال وعدم التلاقي، كما يحاول البعض أن يفسّر معنى التدرّج والتواصل في الحياة الإيمانية. فالديانات المقدّسة تواصلت في الحياة، وامتدّت في صنع النفس الإنسانية ليكون لها تعبيرها الصادق وحوارها الفاعل والبنّاء في طور ما تنتقل به من رؤى ومنهجيات، كما أراد الله تعالى في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٣]. وهذا دليل على

(١) قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ...﴾ [الأنعام: ٢].
(٢) قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ...﴾ [الأنعام: ٩٨].
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

أن اختلاف الشرائع والمناهج، لا يمكن أن يكون متعارضاً مع الجعل الإلهي للشعوب والقبائل، وإنّما هو كاشف عن معنى التواصل في الحياة والامتداد فيها وصولاً إلى الحقيقة التي يسعى إليها جميع المؤمنين إلى أي دين انتموا، وفي أي زمان وجدوا. فهم أهل الإيمان والتواصل والتعارف. وإذا كان هناك من سبيل للتفاضل بين البشر، فهذا السبيل هو السلوك الإنساني، والتميّز بالتقوى، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[١].

إنّ التعدّدية في الوجود هي سنّة من سنن الله الكونية، وفلسفتها لا تقوم على أساس أن تكون مجرّد تعدّدية، وإنّما على أساس أنها طريق إلى التوحد والتكامل وتحقيق الخير المطلق، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[٢]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[٣]، يقول مرتضى الشيرازي: «**إنّ التنافس أو الاستباق هو جوهر التعددية، إذ لا يُعقل أن يتنافس الشيء مع ذاته، أو أن يتسابق الإنسان مع نفسه دون تعددية حقيقية أو اعتبارية، والأمر بالمعلول هو آمر بالعلة بدلالة الاقتضاء**»[٤].

مما تقدّم، نرى أنه إذا كانت التعددية متحققة في الوجود، فذلك إنّما كان لهدف أن يتنافس البشر باتجاه التكامل والتلاقي مع الله تعالى، باعتبار أن الهدف الأقصى هو الله لكل موجود، ما يعني ضرورة عدم الاستغراق في التعددية، بحيث تتحول إلى مجرّد سور، أو عازل بين البشر، فإذا كانت الشرائع والأديان السماوية قد لحظت هذا الجانب، واعتبرته إلى حدّ جعله سبيلاً للتلاقي مع الله تعالى. كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.
(٣) سورة المطففين، الآية: ٢٦.
(٤) الشيرازي، مرتضى، التعددية من منظور قرآني، م. س، ص٢٢.

فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[١]. فهذا الاعتبار إنّما جاء بلحاظ أن يتسابق الناس للوصول إلى هدف أقصى هو الله تعالى، ولم يأتِ بلحاظ مجرّد التسابق كما تحاول بعض الديانات، التي تتسابق لمجرّد التسابق دونما اعتبار لحقيقة وجوهر التعددية في الوجود.

وهكذا، فإنّ أهل الإيمان الذين توحّدهم الأصول الإيمانية ينبغي عليهم أن يتواصلوا، وأن يتسابقوا لا كلّ في دائرته، وإنما مع الآخرين ممن ينتمون إلى دوائر أخرى، بحيث ينتهي التسابق بينهم الى الهدف المنشود، وهذا يقتضي من أهل الإيمان أن لا يقفلوا أبواب الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن ليتحقق لهم كمال الكدح إلى الله تعالى وملاقاته، فلا يقف اليهودي عند حدود يهوديته، والمسيحي عند مسيحيته، ولا المسلم عند إسلامه لمجرّد أنه ينتمي إلى هذا الدين ويعبر عنه، بل يتواصل الجميع بإيمان مطلق بأن الله هو مصدر الرسالات، ويريد لهم أن يتكاملوا فيما جعل لهم من مناهج وشرائع، بحيث يدركون أن الهدف من تواتر الرسل والأنبياء ليس إحداث التصادم بينهم، وإنما تحقيق التواصل، وتعزيز فرص الإدراك العقلي لما يأتي به الأنبياء، باعتبار أن الله تعالى أعلم بشؤون خلقه، وبما يصلح حالهم وبالهم في خضمّ التحوّلات العقلية والنفسية. وعلى هذا، فإنّ معنى أن لا نفرّق بين رسل الله تعالى، أن يعي الإنسان حقيقة المرحلية في ما جاء به الرسل والأنبياء لموافقة كل مرحلة، بحيث تراعي الحالات العقلية والنفسية للإنسان، وعليه، فإنّه يصحّ القول بأنّ الأديان الأولى خاطبت الحسّ يوم كانت الإنسانية في طور الطفولة... فلمّا سار ركب الإنسانية، وجرّبت وكسبت، وتخالفت واتفقت، ونما بها الوجدان، وبدت العواطف، جاء دين يتحدث عن الزهادة وعن الصفاء وملكوت الله. ولكن الإنسانية في صراعها لم تستطع أن تعيش على الإيثار،. ولم يطل مقامها في الصفاء، فراحت تتعارك، وحلّت القطيعة محلّ التراحم، والتخاصم مكان المسالمة، فجاء دين ينظّم الشؤون كلها، ويرعى الحسّ والعاطفة، ويدرس العقل

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

والقلب، وينظّم شؤون الناس في دينهم ودنياهم»[١].

وهكذا، فإنّ معنى تواصل أهل الإيمان واستمرار الحوار فيما بينهم، أن يكون منطلق الحوار وموضوعه الإيمان بكل الرسالات السماوية والاعتراف بها، لأنه لا يمكن التنكّر لحقيقة التعددية، كما لا يمكن التنكّر لحقيقة تواتر الرسل. وهذا أمر يجدر التوقف عنده والاعتبار له، كونه شأناً إلهياً، وليس على الإنسان أن يشكّ في مصدريّة أي رسالة سماوية، وخصوصاً أن هذا الإنسان قد سبق أن اعتبر نفسه امتداداً فيما ينتمي إليه من دين لدين سابق عليه. وإذا كان دين الإسلام قد استوعب الديانات السابقة، وتوجّه إلى كثير من أحكامها وتعاليمها بالنقد، فقد سبق لكلّ ديانة، وخاصة للمسيحية، أن توجّهت بالنقد لكثير من الأحكام اليهودية التي حرّفها اليهود واعتبروها من التوراة، وهي ليست من التوراة في شيء وخاصة فيما زعمه اليهود لأنفسهم من امتيازات في الدين والدنيا!؟

إنّ مقتضى الإيمان هو هذا، أن يؤمن الإنسان الرسالي بأن الله هو مصدر كل شيء، وأن يتحوّل وفاقاً لمنهجه وشريعته في الحياة، وأن يتسابق بالخيرات، على أن يكون منطلق التحوّل والتسابق في الحياة، كما أسلفنا، الاعتراف بالإنسان وما له من منهج ورؤية ورسالة يعبّر بها عن نفسه، تماماً كما اعترف الإنسان بحقائق التكوين والتشريع معاً، والتي عبّرت عنها جميع الأديان السماوية، باعتبارها حقائق قائمة وماثلة للعيان[٢]...

وبما أن الإسلام مصدره الله تعالى، فإنّ هذا الدين يشكّل تتويجاً لحركة التواصل بين البشر، وهو لم يتنكّر لأية حقيقة من الحقائق الدينية، باعتباره صورة من صور

(١) را: شلبي، أحمد، مقارنة الأديان، الإسلام، م. س، ص١٢.

(٢) نُشير في هذا السياق إلى حقيقة التنوّع في الشرائع والمناسك والمناهج التي تتابعت مع الرسل واعترف بها أهل الكتاب، ولكنهم تنكّروا لها حينما بُعث النبيﷺ، في حين أن مقتضى التتابع أن يستمرّ الإنسان في تواصله لا أن يحكم على الله تعالى في ما يريده لعباده من عقيدة وشريعة ومنهج حياة. فالله غالب على أمره، ولا مُعقّب لحكمه، وله الخلق والأمر، ولا يُسأل عمّا يفعل والناس يُسألون.

الحق التي جاء بها الرسل مناسبة لزمان الإنسان ومكانه وسائر تحولاته. وانطلاقاً من ذلك، نرى أنّه لا معنى لأن يتنكّر الإنسان اليهودي أو المسيحي، أو غيرهم لما أراده الله تعالى لخلقه من أمر ونهي، لكونه ينطوي على مزيد من التفاصيل المناسبة لحركة الإنسان، إضافة إلى مركزيّة حقيقة التوحيد، هذا الدين الذي عبّر عنه جميع الأنبياء في كل زمان، وهذا ما تعترف به سائر الديانات، وقد نطق القرآن الكريم بهذه الحقيقة باعتبارها أمّ الحقائق وأصل الأصول في كل ديانة، وإذا كان الإسلام قد دعا أهل الكتاب إلى شيء، فإنّه دعاهم إلى التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ...﴾[١].

ولا شكّ في أنّ هذه الدعوة تشكّل تتمّة لكل الرسالات السماوية، وتنطق بها، وقد نطق بها الرسل والأنبياء في هداية أقوامهم، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[٢]. وإذا كان الأمر كذلك، فلا معنى لأن نتنكّر لدعوة القرآن، طالما أنها دعوة كل الرسالات السماوية، ولا بدّ أن ينطلق الحوار في ضوء ذلك بهدف تحقيق التواصل والتسابق باتجاه الله تعالى.

ثالثاً: الحوار في مجال التشريع والأخلاق

رأينا في ما سبق أن التعددية هي من الحقائق الكبرى في عالم الوجود، وهي إنّما وجدت بهدف تحقيق التكامل، الذي هو معلول للاستباق فيما عبّرت عنه آية ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[٣]. هذا فضلاً عن كون التعددية، إضافة إلى ما تعنيه وتهدف إليه من تحقيق للكمال البشري، لها فلسفة تقوم على الابتلاء والامتحان، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾[٤].

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

بيد أنّ ما جاء في معنى التعددية لا بدّ أن يكون له أثر في المجال التشريعي والأخلاقي، باعتبار أن التشريعات تواترت وتوافقت مع التكوين لاستحالة أن يكون التشريع الإلهي مخالفاً لما كوّن عليه البشر وجعلوا عليه من شعوب وقبائل، إضافة إلى الشرائع والمناهج، كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات التي تتضمّن معنى التعددية، وتعتبرها استجابة حقيقية لنداء الفطرة والوجدان، وسنّة إليهّة في الكون والحياة.

ومن التعددية ذاتها، يمكن مقاربة موضوع الحوار في المجال التشريعي والأخلاقي، حيث نجد أن الإنسان المؤمن يلتزم بما شرّعه الله تعالى من أحكام وتعاليم ووصايا أخلاقية، لكنه مع ذلك نجده يخطئ في توصيف وتشخيص حالات التحوّل الإيماني، ويحصر ذاته في بوتقة خاصة على قاعدة أن الإيمان شيء والعقل شيء آخر، ساهياً عن معنى ودور العقل في تقبّل الحقائق الإيمانية التي منها الإيمان بالله خالق الكون والإنسان، والاعتقاد باستمرار تدبيره وتربيته للإنسان ورعايته الدائمة له. وهذا ما عبّر عنه أهل الإيمان بقولهم: إنّ إله المؤمنين ليس كإله الفلاسفة يخلق العالم ويتركه وشأنه، بل هو الإله الذي كلّم الناس بالأنبياء، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الفطرة إلى البرهان[٣].

ومن هذا المنطلق، نرى أن مقاربة الحوار في مجال التشريع لا بدّ أن تلحظ معنى التعددية باعتبارها مبدءاً لفهم وتعقّل أهداف الخلق والتكوين، إضافة إلى ما لها من دور في فهم حقائق التشريع، حيث إنّ هذه الحقائق، كما أسلفنا، منسجمة مع حقائق التكوين ومتوافقة معها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الحج، الآية: ٦٧.

(٣) المطران بسترس، كيرلس سليم، العلاقات المسيحية الإسلامية، م. س، ص٢٢٣.

﴿ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾[١]، وظاهر الكلام ـ كما يرى الطباطبائي ـ قد يُستفاد منه القبلة، أي الوجهة التي يتّخذها الإنسان لنفسه، والمعنى أنّ كل قوم لهم قبلة مشرّعة على حسب ما تقتضيه مصالحهم، وقد يُراد بقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجۡهَةٌ﴾ المعنى الشامل للجهات التكوينية والاختيارية، عاديّة أو شرعية، فإنّ كل فرد من أفراد الإنسان يختلف عن غيره بأمور وخصوصيات قد لا تكون فيها سواه ولا يحيط بها إلاّ علاّم الغيوب فتشمل اختلاف العادات والملكات والصفات والاختلاف في القبلة والشريعة...»[٢].

وهكذا، فإنّ معنى أن يختلف البشر فيما هم عليه من شرائع ومناهج لا يمكن أن يكون مخالفاً لسنّة الله تعالى في التكوين. وعلى هذا جرت وتواترت الشرائع مع الأنبياء والرسل بحسب ما أراد الله تعالى، وبما يتوافق مع سنن الكون والحياة.

وتأسيساً على ذلك، نرى أن مقاربة الحوار الإسلامي المسيحي في مجال الشريعة والأخلاق لا بدّ أن يكون آتياً في سياق وعي شامل لحقائق الوجود، إذ ليس الأمر متعلقاً بالمسيحية والإسلام وحسب، وإنّما هو متعلق بما هو عليه كل إنسان من دين وشريعة وأخلاق، وقد تكلّم الله بالأنبياء على حدّ تعبير المسيحية، لأجل أن يتدبّر هذا الإنسان أموره في كل زمان ومكان، لأن الله تعالى لم يترك الإنسان هملاً، وإنّما رعاه ودبّره وعلّمه، وحققه بكل ما من شأنه أن يجعله على الصورة الإلهية التي خُلق عليها، كما جاء في الحديث أن الإنسان خُلق كل شيء لأجله، وقد جعله خليفة له وكرّمه واستخلفه في الأرض لأجل أن يكون تعبيراً إلهيّاً، وهذه هي الرؤية الحقيقية التي تعبّر عنها الرسالات السماوية، وتصدر عنها البشرية فيما تعبّر عنه من دين، وتنتمي إليه من شريعة ومنهجية حياة[٣].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

(٢) را: الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، ج١، م. س، ص٣٢٣.

(٣) را: مطهري، مرتضى، المفهوم التوحيدي للعالم، دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٨٥، ص١٤.

فإذا كانت العقيدة تبلور علاقة الإنسان بالله وبالكون المحيط به وبالطبيعة، فإنّ الشريعة تنظّم علاقة الإنسان بالإنسان الآخر وبالطبيعة أيضاً، وكذلك لا خلاف في تنظيم طريقة تنفيذ الشريعة بمستوى أعلى، وكما يقول العلاّمة مطهّري، فهي تنظّم فكر وإرادة الإنسان لتنفيذ الشريعة بأمانة وإخلاص[١]..

إنّ مقاربة الحوار في مجال الشريعة والأخلاق في إطار الإسلام والمسيحية، يمكن ملاحظتها في سياق التحول الإيماني للإنسان في تاريخه، حيث نجد الإنسان القديم قد اعتمد الحسّ للتدليل على عقائده وتشريعه، وقد تطوّر هذا الأمر لتكون العاطفة والوجدان دليلاً على ما يعتقده الإنسان ويعبّر عنه، وهكذا تواصل الأمر مع الإنسان إلى أن وصل إلى حالة الإدراك العقلي، والكمال الديني. وهنا تجدر الإشارة إلى أن العقيدة لم تختلف بين إنسان وآخر، أو بين نبيّ وآخر، وإنّما الذي اختلف هو المنهج والشريعة، باعتبار أن العقيدة تمثّل عنصر الثبات في الجوهر الإنساني[٢]، في حين أن الشريعة والمناهج لا يمكن أن تكون ثابتة نظراً لطبيعة التحوّل والتدرّج الإنساني في فهم علاقته مع نفسه ومع الآخر، ومع الطبيعة أيضاً. فالتحوّل الإنساني في إطار التشريع لا يمكن أن يكون تحولاً واحداً، لأنّ الحياة متغيرة، وتحتاج دائماً إلى تطوير صيغ التعامل مع أحداثها بإيجاد القوانين والتشريعات الملائمة لها، فلو أن شريعة واحدة جاءت للإنسان في حياته، لما استطاع أن يحقق ذاته في إطارها، وخاصة الإنسان القديم الذي كان يعتبر الإحساس في حياته مقياساً لكل شيء، فمن أين تكون له القدرة على تعقّل معنى الوجود والتحوّل الإنساني بكل مقتضياته فيما لو كان القرآن بديلاً للإنجيل أو التوراة، أو كان القرآن بديلاً لصحف إبراهيم عليه السلام[٣]؟

(١) را: مطهري، مرتضى، الإنسان والإيمان، دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٨٥، ص٦٠.
(٢) مطهري، مرتضى، التوحيد، دار الهادي، بيروت، ص١٢.
(٣) شلبي، أحمد، مقارنة الأديان، م. س، ص١٢.

لقد تدرّج الإنسان في فهم حقائق وجوده، وتحوّل وفاقاً لقدراته وتعبيراته الملائمة لزمانه ومكانه وتاريخه، وقد مثّل الدكتور أحمد شلبي لهذه الحقيقة بقوله: «**يمكن لنا أن نقسّم مراحل الرسالات السماوية إلى أقسام ثلاثة، القسم الأوّل يمثّل طفولة الجنس البشري وذلك يشمل الفترة التي عبرتها البشرية من آدم إلى نوح حتى إبراهيم** عليه السلام.

والقسم الثاني: يمثل صبا الجنس البشري حيث وجد أنبياء بني إسرائيل وبخاصة موسى عليه السلام.

القسم الثالث: يمثّل شباب الجنس البشري، وهو عند رسالة محمد ﷺ[١].

ومن خلال هذا التقسيم يمكن لنا استيعاب حركة الرسالة والتشريع في حياة الإنسان، فنقول: إنّ طبيعة الشريعة تختلف بين قسم وآخر، ولا يعقل أن تكون مرحلة الطفولة قادرة على استيعاب مرحلة الصبا أو الشباب، تماماً كما لا قدرة للطفل على حمل ما يحمله الشاب، سواء في مجال العقيدة، أم في مجال الشريعة والأخلاق، وليس من الحكمة في شيء أن تُعطى جرعات الشريعة إلاّ بحسب ما يستطيعه الإنسان لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢].

ولهذا، نجد أنّ الشريعة لم تكن ثابتة، وليست واحدة، بل تعددت وتنوّعت بحسب مراحل تطوّر الإنسان وقدرته على استيعاب ما خصّه الله تعالى من عقيدة وشريعة وأخلاق، باعتبار أن الله تعالى خلق الإنسان وهو أعلم بخلقه، ولا بدّ أن تكون الرعاية له والتدبير موافقة لقدراته النفسية والعقلية.

وعليه، فإنّ معنى أن تكون للإنسان شريعة وأخلاق، أن تلحظ حالة الإنسان وقدراته وكذلك وعيه بذاته وبالمجتمع، والطبيعة، وهذه كلها لا بدّ أن يكون لها تأثيراتها على حركة الإنسان، وكما يقول العلاّمة مطهري: إنّ الشريعة تنظّم العنصر

(١) م. ع، ص١٣ ـ ١٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

المتحوّل المتغيّر في الإنسان، حيث إنّ علاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، خارج دائرة العقيدة والأخلاق، تتأثّر بالحالة الثقافية ومكوّنات الوعي ودرجة التعقيد في الحياة المادية، وهذه الأمور تقتضي تنوّعاً في مجال التشريع»[١].

بيد أنّ ما تقتضيه تحوّلات الإنسان وتنوّعاته في الحياة، وهي كل مراحل تحولاته الاجتماعية والسياسية، ليس من شأنه الحيلولة دون مقاربة هذا الموضوع من ناحية التنوع في التشريع، حيث نجد المسيحية في كثير من تفاصيلها تتحدّث عن التسامح والمحبة والوصايا، وغير ذلك من الأمور التي يحتاجها الإنسان في علاقته مع أخيه الإنسان.

وإذا كان الإسلام قد تعرّض إلى هذا الجانب، فإنّنا نجده قد زاده تفصيلاً، وخاطب العقل في كثير من التفاصيل، وهو ما شكّل تتمّة وتكملة لما جاء به الأنبياء من قبل، هذا فضلاً عن مخاطبة المسيحية ذاتها، حيث اعتبرها جزءاً منه، وإذا كان الإسلام قد خاصمها في مجال العقيدة والشريعة والأخلاق، فهو بذلك إنما اعتمد العقل في المحاججة، حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٢] فالإسلام اعترف بالمسيحيّة، وبجميع الرسالات السماوية وهيمن عليها كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[٣]. وهذه الهيمنة لا تعني أكثر من استيعاب حركة الإنسان وحفظه فيما جاءه من الله واستقرّ عليه بلحاظ التجارب وتعقيدات الحياة، حيث بيّن الإسلام أن المسيحية ليست تعبيراً نهائياً عن وعي الإنسان ولا عن حركته الدينية والإنسانية في الحياة، كما أنها ليست الكلمة الأخيرة

(١) را: مطهري، مرتضى، الهدف السامي للحياة الإنسانية، مكتبة الفقيه، الكويت، ط١، ١٩٨٦، ص٩٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

كما تذهب المسيحية[١]، وإنّما هي حلقة من سلسلة الرسالات التي تواترت لتربية الإنسان وتعليمه وتحصينه ضد الانحرافات التي كانت ولا تزال تتسبّب له بمزيد من القلق واليأس والخوف.

ذلك هو معنى الهيمنة على ما جاء من كتب ورسالات، أن يستمر الإنسان في حفظ ذاته من خلال الإسلام، وأن يعبّر عنها وفاقاً لتحوّلاته الجديدة في كل زمان ومكان، وهذا ما فعله القرآن حيث انتقل بالإنسان من حالة الحسّ والعاطفة والمحبة إلى حالة العقل والقلب معاً. ولعلّ من أهم ما يمكن الاسترشاد به في هذا السياق، هو عدم قدرة التشريعات السابقة على الإسلام على نظم حركة الإنسان وتحوّلاته في ظلّ التعقيدات المادية في العصر الحديث، فما بالنا نتحدّث عن سلبية تشريعات الإسلام ونحن ندرك تماماً أن الدين، كما بيّن الأنبياء جميعاً، إنّما جاء بهدف نظم الحياة للإنسان، سواء في المجال الخاص، أم في المجال العام، وإلاّ فإنّ عدم التسليم بهذا المعنى لدور الدين في الحياة، فلا يكون ثمّة اعتبار للرؤية الدينية المتكاملة على نحو ما يفهمه كل إنسان عن تواصل الشرائع وتواتر الأنبياء، وهذا ما لا يُسلّم به أحد من أهل الإيمان، ممن ينتمون إلى الإيمان الإبراهيمي!؟

لقد تحدّثت المسيحية عن الوصايا العشر، وعن مفردات المحبة والتسامح، ولكنها لم تتحدّث عن تشريعات إنسانية وسياسية واجتماعية إلاّ فيما ندر مما له علاقة بالإنسان وحياته الخاصة، وهذا لم يكن قصوراً في المسيحية، أو تقصيراً من النبي عيسى عليه السلام، وإنّما كان بسبب انعدام القابليات عند الإنسان، وقد بشّرت

(١) يرى المطران جورج خضر أن المسيحي يؤمن بأن المسيح في قوله على الصليب «قد تمّ» أبان أنه خاتم النبيّين جميعاً من حيث أنه حقق في ذاته وفي كمال محبته وعود الله كافة وكشف عمق العلاقة القائمة بين الله والإنسان... والمسيحي يؤمن أننا مع السيد بتنا في «ملئ الزمان» (غلاطية ٤: ٤) وأنه لا ينتظر إلاّ حضور المسيح ثانية في اليوم الأخير... را: جورج خضر، العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءة في الراهن والمستقبل، مركز الدراسات الاستراتيجية، م. س، ص٢١٣.

المسيحية بالفارقليط الذي سيتابع مسيرة الإيمان في حياة البشر[١]، وإنّ أدنى تأمل فيما تنطوي عليه الأناجيل لا بدّ أن يكشف عن معنى الشريعة لاستحالة أن تستمر البشرية بالوعظ والإرشاد فقط. إذ إنّ الله تعالى لم يرد للإنسان أن يكون مجرّد تعبير عاطفي، وإنّما لا بدّ أن يكون منطلقاً بالدور التغييري في العالم من خلال أنظمة وتشريعات تحوّل الإنسان عن كونه مجرّد تعبير إيماني ليكون إنساناً صانعاً للحضارة وحاكماً للحياة فيما يملكه من قوانين وأنظمة وتعاليم، وفيما يقوم به من دور ووظيفة في سائر مجالات الحياة[٢].

إنّ معنى مقاربة الحوار في مجال الشريعة والأخلاق هو هذا، أن لا يكون الإنسان الرسالي تابعاً أو محكوماً لغير ما أنزل الله تعالى، وقد خاضت الكنيسة صراعاً عنيفاً مع الإقطاع السياسي في القرون الوسطى لأجل أن يكون لها هذا المعنى التشريعي والأخلاقي في حياة المؤمنين. ولا شكّ في أن خروج الكنيسة من حياة الإنسان المسيحي في الغرب ترك أثراً سلبياً على حياة المؤمنين، لكونهم أصبحوا محكومين لقوانين ما أنزل الله بها من سلطان، ولا بدّ أن تعاود الكنيسة دورها، وتقوم بوظيفتها لتحرير الإنسان مما لحق به من هزائم وانحرافات على مستوى العقيدة

---

(١) انظر: دراسة «موريس بوكاي»، التي تبيّن أنّ الفارقليط في إنجيل يوحنّا هو الرسول محمد ﷺ، لقول النبي عيسى عليه السلام: «رحيلي فائدة لكم، لأنّني إذا لم أرحل فالفارقليط لن يأتي إليكم، وعندما سيأتي روح الحقيقة فسيجعلكم ترقون إلى الحقيقة بكاملها، لأنه لن يتكلّم بإرادته، وإنّما سيقول ما يسمع... وسيمجّدني». ولا شكّ في أنّ الكلام فيه دلالة واضحة على أن الله تعالى سيرسل إلى البشر وسيطاً آخر، كما كان النبيّ عيسى عليه السلام وسيطاً... وقد جاء النبي محمد ﷺ ومجّد النبي عيسى عليه السلام.

را: موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة، م. س، ١٢٧.

(٢) يرى بعض المسيحيين، أنه ليس صحيحاً أن الإنجيل يكتفي بمبادئ عامة في الأخلاق والحياة الاجتماعية، وأنه ليس في المسيحية نظام سياسي واقتصادي كما هو الشأن في الإسلام، ويعتبرون هذا الرأي ومن يذهب إليه ساذجاً، والحق هو أننا نعتقد بأن السيد المسيح عليه السلام لم يشأ أن يكون للمسيحية نظام سياسي محدّد احتراماً منه لحريّة الإنسان وإبداعيته، وقد ثار على الأنظمة اليهودية الفاسدة التي كان الفريسيون وعلماء الناموس يستندون إليها ليستعبدوا الإنسان في أطرها، فنظامنا المسيحي في أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع هو الاستنباط الدائم لما يتضمن كرامة الإنسان وحريته، والاحترام لجميع الناس من أي عرق كانوا، وإلى أيّ دين انتموا فكيف يطلب منّا بعض المسلمين أن نقبل بدولة إسلامية ونظاماً إسلامياً نعتبرهما من مخلفات العصور الوسطى...

را: المطران كيرلس سليم بسترس، الإسلام والمسيحية، مركز الدراسات، م. س، ص٢٢٣.

والشريعة والأخلاق، فالمقاربة للحوار في مجال الشريعة والأخلاق ليس مجرّد تعبير نظري، أو محاولة لإيجاد مقارنة بين شريعة الإسلام وشريعة المسيحية، وإنّما هي مقاربة حقيقية هادفة تسمح لنا في الكشف عن معنى استمرار الشريعة الإلهية في حياة الإنسان، ويكفي أن نشير هنا إلى ما نرى أنه شكّل قاسماً مشتركاً بين المسيحية والإسلام في مجال التشريع والأخلاق ألا وهو إيمان كل منهما بأن الله تعالى هو مصدر الشريعة والتعاليم والوصايا، والانتماء إلى الإيمان الإبراهيمي، هذا بالإضافة إلى ما يجتمعون حوله من أصول كبرى في الإيمان كالتوحيد والنبوة والمعاد إلى غير ذلك مما يجتمعون عليه في مجالات العقيدة والأخلاق.

إنّ المسيحية، كما عبّرت عن نفسها، وكما وصفها القرآن ليست مجرّد ديانة روحية لا معنى للدنيا فيها، بل هي ديانة عملية تتضمن الكثير من التشريعات الحياتية من قبيل ما تتضمّنه الأناجيل من دعوة إلى العدل والمحبة، وغير ذلك مما تتواصل به مع تشريعات الإسلام. فإذا كانت المسيحية تقدّم البرّ والأخلاق على العدل، فهذا ما تضمّنه الإسلام أيضاً، حيث جاء في الإنجيل: «**أن العدل يحجّر القلوب إذا لم ترافقه دفقة المحبة، وهذا ما يعبّر عنه بأسبقيّة الأخلاق للعدالة في التعامل الإنساني. وعلى ذلك تلتقي المسيحية والإسلام معاً، حيث قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾**[1]، **حيث قدّم البرّ على القسط وهو العدل، إلى غير ذلك مما تتواصل به شريعة الإسلام مع المسيحية.**

وكيف كان، فإنّ المقاربة الحقيقية تعني ملاحظة حقيقة الامتداد التشريعي، تماماً كما تلاحظ حقيقة الامتداد العقدي بين سائر الأديان، إذ إنّه ليس من معاني الثبات في العقيدة أن تستقرّ العقيدة على حالة واحدة، فيما ذهب إليه كل فريق من

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

تفاصيل حول تفسير وتأويل العقيدة التي ينتمي إليها. وكذلك الحال في ملاحظة التشريعات، فهي وإن كانت متنوّعة، فليس معنى تنوّعها أنها مختلفة دائماً ولا توجد قواسم مشتركة بينها، أو أنها تتغيّر نهائياً بين مرحلة وأخرى، أو بين إنسان وآخر، فالتنوّع في الشريعة هو إنما يتم لأجل المزيد من التكامل في المعنى التشريعي في صيرورة الحياة الاجتماعية للإنسان. وهذا ما لحظه الإنجيل والقرآن معاً، فيما جاءا به من شرائع قد تلتقي وقد تختلف في كثير من تفاصيلها دون أن يكون للسذاجة أي معنى في فكر المسلمين..!؟

لذا، فإنّ معنى المقاربة للحوار في مجال الأخلاق والتشريع أن نلاحظ ما هو مشترك بين أهل الأديان لطالما هم موحدون في أصولهم، سواء لجهة المعنى المادي، أم المعنى الروحي، وطالما أنهم ينتمون إلى الإيمان الإبراهيمي ويعبرون عنه، ويتوحّدون في الإطار النظري، وهذا الانتماء الحقيقي من شأنه أن يمنع من الفرقة والتشرذم في الحياة العملية، لأنّ التشريعات الإلهية كانت دائماً تضبط عملية التحوّل الإنساني بحسب الزمان والمكان والقدرة على التكيّف مع كل تشريع جديد، بدليل ما أقدمت عليه المسيحية من عدم اعتبار لكثير من التشريعات اليهودية التي رأت فيها قسوة وتحجّراً وصعوبة على الأتباع الجدد[١].

كما أنه ليس من معاني التنوع في الشريعة أن يتناقض البشر في تحوّلاتهم الاجتماعية والسياسية، إنّما معناه التكامل لكون هذا التشريع يأتي في سياق وحدة الأصول الكبرى التي يعيشها الإنسان المؤمن، وخاصة الأصل التوحيدي الذي يوجّه كل التحولات والتشريعات.

---

(١) يقول النشار: «ليس ثمة رباط عقلي أو فكري بين اليهود والمسيحيين سوى إيمانهم بالتوراة في غموض وإبهام لم يعرفه مجتمع من المجتمعات، وهذا ما هو موضع انتقاد عند أغلب الباحثين في الشؤون الدينية، يقول أحمد شلبي: للأسف أن المسيحيين مع تقديسهم للتوراة لم يتبعوها، فأحلّوا ما حرّمته ولم يلزموا حدودها... وفي كثير من الأحيان عمدوا إلى تفسير التوراة بما يناسب الإنجيل.

را: النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي، م. س، ص٦٤، وقا: مع أحمد شلبي، مقارنة الأديان المسيحية، م. س، ص١٧٢.

ومن هنا، نجد أن تنوّع الشرائع هادف لتحقيق الكمال الإنساني في حركة التحوّل الاجتماعي والسياسي بحيث يكون هذا التنوّع سبيلاً للحوار بين أهل الإيمان، وليس سبباً للفرقة، وإلاّ فما يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[١]، فيما لو كان معنى التشريع والتنوع فيه أن يختلف الناس ويتفرّقوا؟

بل ما يكون معنى قول المسيح: «**لا تظنّوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، إنّي ما جئت لأنقض بل لأكمل**»، فيما لو كان معنى التشريع في زمن نبوّة موسى عليه السلام التصادم مع التشريع في زمن عيسى عليه السلام أو العكس؟

إنّ البشرية، وخاصة أهل الإيمان، تتكامل في تشريعاتها وتنوعاتها، كما تتكامل في تعدديتها التي جعلها الله تعالى عليها. وليس من الحكمة في شيء التنكّر للتشريع الإسلامي طالما أن النبي عيسى نفسه أكمل الناموس وتابع النبوّة السابقة فيما أتت به من وصايا وتشريعات وهيمن عليها بمزيد من الناموس. فالقول بالتصادم بين الشرائع، هو منافٍ لما جاءت به النبوّة، باعتبار أن الناموس هو شأن إلهي، وقد شاء الله تعالى أن تستكمل الشرائع، وأن تكون لكل إنسان شريعته ومنسكه ومنهجه الذي يصله بالله تعالى.

وإذا كانت المسيحية قد تحققت على نحو ما جاء به المسيح من شريعة وأخلاق لإكمال الناموس، وتواصلت في طريق النبوة في هداية الإنسان، فإنّ الإسلام لم يأتِ بأكثر من ذلك، إذ هو جاء بالشريعة الكاملة والحافظة لما سبق من الشرائع، حيث قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[٢].

ولم يكتفِ الإسلام بذلك وحسب، بل دعا أهل الكتاب إلى كلمة سواء، ومتابعة النبوة فيما جاءت به من شريعة وناموس لكونه يشكل امتداداً للنبوّة والرسالات

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

السماوية، هذا فضلاً عمّا أقرّه للآخرين من استقلال تشريعي وخاصة لأهل الكتاب في جميع علاقات اجتماعهم الداخلي، حيث قال: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ ﴾[١]، وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾[٢].

ولا شكّ في أنه ليس معنى الإقامة للتوراة والإنجيل غير العمل بهما، والالتزام بتكميل الشريعة وعدم نقضها فيما جاءت به وعبّرت عنه من استمرار للشريعة في حياة الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ ﴾[٣]. فالإسلام لم يكره أهل الكتاب على العمل بشريعته، والإيمان بما جاء به، وإنما أقرّ لهم الشخصية التشريعية والثقافية في كل شيء، داعياً إيّاهم إلى التواصل والتحاور كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[٤].

يبقى أن نشير إلى حقيقة واضحة لا لبس فيها، وهي أن المسيحية لم تطرح رؤية سياسية اجتماعية في مجال التشريع، لضمانة التحول الإيجابي في حركة الإنسان نحو بناء ذاته واجتماعه وحضارته، حيث اقتصرت الدعوة فيها على المجال العقدي والأخلاقي، وهذا ما يرى فيه البعض تجنّياً على المسيحية، ويعتبره طرحاً ساذجاً[٥]، في حين أن هذا الطرح لا يشكّل اتهاماً للمسيحية طالما أن المسيحية ذاتها لم تقدّم رؤية واضحة في المجال الاجتماعي والسياسي... وخصوصاً أن المسيحية قد اعتبرت نفسها الكلمة النهائية في حياة الإنسان، وكونها كذلك، فلا بدّ أن تكون متضمّنة لهذه الرؤية، لأنّ التشريع الإلهي للإنسان هادف إلى ضمانة تحوّل الإنسان

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٥) انظر: المطران، بسترس، م. س، ص٢٢٣.

في اجتماعه وسياسته ليكون تعبيراً عن إرادة الله تعالى، بحيث يكون عادلاً في كل تحولاته، وهذا ما لا يمكن تحقيقه إلاّ في ظلّ تشريعات إلهيّة تضبط حركة الإنسان وتجعله قادراً على إقامة القسط بين الناس، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[١].

لذا، فإن ما يذهب إليه البعض بأن المسيح عليه السلام لم يشأ أن يكون للمسيحية نظام سياسي محدد احتراماً منها لحريّة الإنسان وإبداعيته[٢]، مذهب لا يستقيم مع ما تذهب إليه المسيحية من كمال في التشريع. وإذا كان المسيح قد ثار على الأنظمة اليهودية الجامدة التي كان الفريسيون وعلماء الناموس يستندون إليها ليستعبدوا الإنسان في أطرها، فإنّ ذلك إن كان يدلّ على شيء، فإنّه يدلّ على أن المسيح عليه السلام جاء بالنظام والرؤية السياسية لتحرير الإنسان من الأنظمة اليهودية الجامدة، باعتبار أن الخروج على أي نظام من قبل النبوّة لا بدّ أن يكون البديل موجوداً، وهذا لا يتنافى مع حريّة الإنسان وإبداعيته، وخاصة فيما لو علمنا أن النبي أي نبيّ لا يأتي إلاّ بما يضع الإصر ويفكّ الأغلال، كما قال القرآن: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

وإذا كانت المسيحية تستبطن النظام في أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع، وتعتمد الاستنباط الدائم لضمان كرامة الإنسان وحرياته، فإنّ السؤال يبقى عن ماهية هذا النظام؟ وعن آليات الاستنباط في مطلق الزمن؟ لأن معنى الاستنباط أن يكون هناك أدلّة وأصول لا بدّ أن النبوة جاءت بهالتحكم عملية الاستنباط وتجعلها ذات فائدة في كل مجالات الحياة الإنسانية. فالاستنباط لا يكون من فراغ، وإنما له أصول يرجع إليها، فإذا كانت المسيحية قد أصّلت لذلك، فما يكون

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) كيرلس بسترس، م. س، ص. ن.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

معنى دعوتها الخضوع للسلطات المنصبة، والتي في كثير من الأحيان، لا تحترم ما أصّلت له المسيحية، وجعلته دليلاً عاماً يحتكم إليه ويرجع إليه، وهو ما يسمّى في الفقه الإسلامي بالأدلّة العامة في الكتاب والسنّة. إنّ الفرق بين المسيحية والإسلام هو هذا، أنّ الإسلام ترجم نظامه السياسي ودلّ على قواعده وأصوله، ودعا إلى الاستنباط الدائم لضمانة كل تحوّل سياسي واجتماعي في حركة الإنسان نحو الأفضل، وهذا ما عبّر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[١]. وفي ترجمة هذه الآية قال أولو الأمر الذين جعلهم الله تعالى امتداداً للنبوّة: «**علينا بالأصول وعليكم بالفروع**». ما يعني أن الإسلام جاء بالنظام السياسي وأصّل له ودعا إلى اتباعه في ضوء المبادئ العامة التي تضمّنها القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة. ولا شكّ في أنّ المسيح عليه السلام قد جاء بكثير من المبادئ العامة التي تحكم العمل السياسي والاجتماعي، وعمل على تغيير الأنظمة اليهودية الجامدة والفاسدة بهدف أن يحقق حريّة الإنسان ويطلق إبداعه[٢]، وهذا هو مقتضى الدعوة الرسالية. أما أن يُقال بأن هناك نظاماً سياسياً، وآليات استنباط دائمة دون اعتبار لمبادئ وأصول حاكمة، فذلك مما لا يستقيم بحق البشر، فكيف يمكن أن يستقيم مع رسالة نبوية؟

وانطلاقاً مما تقدّم، نرى أن الدعوة إلى مقاربة الحوار في مجال التشريع والأخلاق، لا يمكن أن يكون مجالها التطبيق التاريخي وما ساده من سوء العلاقات والترجمات، بل هي تبدأ بالنظرية أولاً للوقوف على القواسم المشتركة بين أهل الإيمان، فإذا استطاع أهل الإيمان مقاربة الحوار في دائرة النظرية، فإنّهم بذلك يستطيعون أن يتحوّلوا باتجاه الواقع وحياة الإنسان العملية، فلا يُقال مسبقاً بأنّه لا

(١) سورة النساء، الآية: ٨٣.

(٢) كيرلس بسترس، م. س، ص٢٢٦.

يمكن القبول بالنظام الإسلامي أو بالدولة الإسلامية بحجّة مخالفة المسلمين في أصل هذا النظام وقيمته[١]. كما لا يُقال أيضاً بأن العلاقات الإسلامية المسيحية لا يمكن أن تبنى اليوم وفي المستقبل على أساس ما ورد في القرآن لعدم وجود رابط بين المسيحية اليوم وبين النصرانية التي التقاها القرآن ومدحها أو ذمها[٢]... فهذه أقوال ومذاهب تصادر كل مقاربة حوارية، وتحدث تصادماً بين الديانات، بحيث تكون كل ديانة مستقلة عن الأخرى ومختلفة معها، في حين أن الأصول واحدة، والقواسم المشتركة قائمة، ولا بدّ من التواصل والتفاعل والتحاور للوصول إلى تعايش حقيقي بين المؤمنين على قاعدة أنهم ينتمون إلى إله واحد، الذي هو مصدر كل شيء، ويؤمنون بتكامل الشرائع وتواصلها في حياة الإنسان.

أما أن يطرح البعض لمقارنة الحوار بين الإسلام والمسيحية، في الحاضر والمستقبل مجانبة القرآن وتخطّيه، أو اعتبار ما يوافق المسيحية منه دونما اعتبار لما ينطوي عليه من عقيدة وشريعة ونظام حكم، فذلك إنما يمكن اعتباره التفافاً على الحوار ودفعاً له، ولا شكّ في أنه من الغرابة أن يطرح البعض مشكلته تحت عنوان الحوار، ويدّعي الحل من خارج ما جاء به الإسلام، بأن يُقال: «**إن الطريق الوحيد لتخطّي هذه المشكلة هو الإقرار بأن ما ورد في القرآن حول إيمان أهل الكتاب النصارى، لا يعتبر التعبير الصحيح عن الإيمان المسيحي الذي يعتنقه المسيحيون اليوم**»[٣].

وهذا القول، في جوهره، ينمّ عن رغبة قوية في تحقيق الاستقلال بين الإسلام والمسيحية بحيث لا يكون هناك أيّ امتداد بينهما، هذا فضلاً عمّا يعنيه من اعتبار القرآن كتاباً مستقلاً عن المسيحية، ومعبراً عن رؤية دينية خاصة بالمسلمين،

(١) م. س، ص٢٢٥.
(٢) م. س، ص٢٢٥.
(٣) م. س، ص٢٢٥.

في حين أن المطلوب لإنجاح الحوار والمقاربة هو الاعتراف بالقرآن ككتاب منزل من الله تعالى، ومتضمّن للهداية، ومهيمن على ما بين يديه من الكتاب، وخاصة للمسيحية بكل تعابيرها وتعاليمها، سواء تلك التي يعتبرها جزءاً من الإيمان الإسلامي، أو تلك التي يتوجّه إليها بالنقد.

إنّ القول بأن الإسلام شيء، والمسيحية شيء آخر، فيما يزعمه بعض الأساقفة حول مقاربة الحوار واستمراريته، من شأنه أن لا يؤدّي إلى النتائج المرجوّة، ذلك أن معنى الحوار والتلاقي، هو أن نؤمن بالاختلاف، وتعدد الشرائع، وتواصل النبوات، واستمرار الهداية الإلهية للإنسان في مطلق الزمن، وهذا المعنى عبّرت عنه الوثيقة التي أصدرها المجمع الفاتيكاني الثاني ١٩٦٥م[١]، فيما أشارت إليه عن علاقة الكنيسة بالمسلمين، فقالت: «**تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحيّ القيّوم الرحمن القدير الذي خلق السماء والأرض، وكلّم الناس... إنّهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، كما سلّم لله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه، وإنهم، على كونهم لا يعترفون بألوهية سيّدنا يسوع المسيح، يكرمونه نبياً، ويكرمون أمّه العذراء مريم... ويعبدون الله بالصلاة والصوم والصدقة....**»[٢].

فالوثيقة تعبّر بوضوح عن امتداد الإيمان وحيويته في الحياة، واستمرار الهداية الإلهية للإنسان، ما يعني أهميّة التحوّل في ضوء هذه الرؤية، بحيث يكون الحوار والمقاربة له مرتكزاً على وحدة الأصول التي يؤمن بها الجميع، باعتبارها أساساً لكل تحوّل إيماني فيما تطرحه كل ديانة، وتعمل له كل شريعة،. وتعبّر عنه كل أخلاق، فكل دين هو قبس من شعاع الحقيقة التي تنير جميع الناس كما جاء في وثيقة المجمع الفاتيكاني.

---

(١) م. ع، ص. ن.

(٢) م. ع، ص٢٣٠.

وانطلاقاً من ذلك، فإنّه لا معنى لأن نشترط في سبيل إقامة الحوار، أو إيجاد مقاربة أن تخرج المسيحية من القرآن، وإنّما لا بدّ أن نتعامل مع الأديان، بكل ما جاء فيها، كسبيل للوصول إلى الله تعالى، سواء كان الدين الذي نؤمن به يتضمّن نصوصاً تتعلّق بأديان أخرى، أو لا يتضمّن، فالمهم هو أن تبقي الرؤية الموضوعية سبيلاً لتحقيق التقارب وإنجاح الحوار من خلال التركيز على نقاط التلاقي في العقيدة والأخلاق بين الأديان السماوية.

خاتمة الفصل: حوار الوصايا والأخلاق

لقد اعتاد أهل الإيمان على التساؤل، ما هي أهم النقاط التي تتلاقى عندها الأديان السماوية وخاصة الإسلام والمسيحية، ولم يُعدم الباحثون وسيلة للإجابة على كثير من التساؤلات، حول ما يمكن رصده من نقاط تكون بمثابة القاسم المشترك الذي يشكّل نقطة انطلاق لعلاقات سليمة بين أهل الإيمان، وكان من جملة الأجوبة أن أصول الإيمان الكبرى هي المساحة المشتركة التي يلتقي عندها أهل الإيمان، وهذه الأصول هي الإيمان بالله الذي لا شريك له، والإيمان بأن الله كلّم الناس بالأنبياء، والإيمان باليوم الآخر.

وانطلاقاً من هذه الأصول، فإنه يمكن لأهل الإيمان أن يتواصلوا في طريق الحياة، وأن يتعاونوا على البرّ والتقوى لتكون لهم رؤية مشتركة حول قضايا الإنسان تتجاوز تفسيرات العقيدة، وما يذهب إليه كل دين من تأويل النصوص بما يخدم رؤيته في الإيمان وفهم الأديان، وقد سبق أن عرضنا لمعنى العالمية فيما يراه كل فريق من رؤية لها، حيث تبيّن لنا أن كل ديانة تعتبر نفسها الكلمة النهائية في تاريخ الإنسان وحياته، وهذا ما عبّر عنه المسيحيون في بحوثهم الدينية، قديماً وحديثاً، فأكدوا أنه لا يمكن الاستناد إلى ما تقوله كل ديانة عن الأخرى فيما لو التزمنا بالنصوص الدينية، سواء في الإنجيل أم في التوراة، باعتبار أن القرآن يدعو إلى مقاتلة أهل الكتاب، ويبرز، كما يقول بعض المسيحيين، الموقف العدائي اتجاه المسيحيين، هذا فضلاً عمّا تراه كل ديانة من كلمة نهائية في التاريخ الديني، وهذه مسائل اعتقادية كانت وستبقى موضوع جدل ونقاش بين أهل الإيمان، ولا يمكن الاستناد إليها فيما لو كان المطلوب إنجاح الحوار بين أهل الإيمان، لأن المسيحي ينظر إلى كتابه على أنه كتاب موحى به، والمسلم ينظر إلى كتابه على أنه مُنزل... إلى غير ذلك مما هو مختلف فيه، وموقوف عنده.

وإذا كان الأمر كذلك في مجال العقيدة، فهو لا يقلّ شأناً وخطورة في مجال التشريع والأخلاق، وغير ذلك من تفاصيل الحياة، إذ في الوقت الذي يذهب بعض أهل الإيمان إلى القول بأن الإنجيل ليس فيه نظام سياسي، يذهب آخرون إلى القول بأن الإسلام نظام كامل للحياة، ولكن هذا لا يمنع برأيهم من استمرار التواصل في ضوء الأصول الكبرى لتحقيق رؤية مشتركة ترتكز إلى هذه الأصول في ملامسة الواقع وما يجري فيه من تغييرات اجتماعية وسياسية وثقافية وحضارية لجعل الإنسان أكثر أمناً وسلاماً، في ظلّ ما يتعرّض له الإنسان من مساوئ بسبب هيمنة الحياة المادية، وطغيان السلطة والمال، وقد سبق للأنبياء أن أحيو الإنسان وأخرجوه من ظلمات المادة إلى نور الحياة بما كلّموه به من محبة ودعوه إليه من عدل وخير، ويبقى على المؤمنين، مسلمين ومسيحيين، أن يستلهموا خطاب النبوة في تاريخ الإنسان لإخراجه مما هو فيه من ظلمات وجاهلية، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[١].

إنّ الله تعالى كلّم الناس بالأنبياء، وهداهم إلى سبل السلم، وأنزل إليهم الوصايا والأحكام والشرائع، لتكون لهم الحياة، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢].

فالإنسان إذا ما تجاوز مشاجرات العقيدة، ومناظرات علم الكلام، ونظريات الفلاسفة، فإنّه يمكن أن يهتدي إلى إجابات كثيرة حول ما ينبغي فعله والقيام به لتحقيق تعاون فاعل وبنّاء في مجالات الحياة، فيجب أن يتحول الإيمان إلى عمل، وهذا ما تأمر به الأديان، وما تكلّم به الأنبياء، والذي كلّم بالأنبياء، كما ترى المسيحية، كلّم بالصلاة والعبادة، والإحسان إلى الفقراء والمساكين، وتفقد اليتامى في حالهم إلى غير ذلك مما أوصت به الشرائع، وانطوت عليه رسالات السماء...

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

وهكذا، فإنّ مقتضى الإيمان أن يلتزم الإنسان روحية العبادة، ويكمل الناموس بلغة الإنجيل، ويهتدي بالنور بلغة القرآن لتكون صلاته معراجاً، وعبادته جهاداً، وصيرورته كمالاً، ذلك هو معنى الإيمان، أن يعمل بالوصايا[١]، فيمتد في التوراة والإنجيل، وأن يهتدي بالنور إلى البِرّ فيمتد في القرآن[٢]، ليكون له من امتداده هذا معنى الأخلاق، وروح الإيمان، بحيث يتجرّد عن متاع الدنيا الزائل، ويفوز بطهارة القلب في مسالك العبور إلى رضوان الله تعالى.

إنّ القرآن يدعو إلى حوار الأديان على قاعدة أن الهدف من الخلق هو التعارف، والتقوى في هذا التعارف، وإلى العبادة، والتقوى في هذه العبادة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فلا معنى لأن يتجافى الإنسان عن الحوار الديني لمجرّد أنه يختلف مع الآخرين في تفاصيل العبادات، وفي طريقة ممارسة السياسات، باعتبار أن العقيدة والأخلاق وسائر ما يتعلق بهما من تفاصيل هو الجوهر المشترك بين أهل الإيمان، وذلك يقتضي منهم أن يكونوا على مستوى الرؤية الدينية التي تجعل من الحوار أساساً ومرتكزاً لكل تحوّل إنساني في طريق الخلاص، هذا فضلاً عمّا للحوار من معنى ودور في إدارة الأزمات التي تعصف بالمجتمعات الإنسانية، وإن أدنى تأمّل وتدبّر في ما تدعو إليه الآيات القرآنية، لا بدّ أن يكشف عن أن القرآن ليس له أي موقف عدائي اتجاه الأديان الأخرى، وخاصة فيما

---

(١) إنّ أهمّ ما يركز عليه في مجال الأخلاق هو الوصايا، التي تضمنها العهد القديم (التوراة)، وتابعها العهد الجديد (الإنجيل)، وهي كما يرى كثيرون، موجز الأخلاق المسيحية الإسلامية في علاقة المؤمن بالله تعالى وعلاقته بقريبه، ونجد في الآيات القرآنية وصايا كثيرة مشابهة للوصايا العشر، ولا تكاد تجد اختلافاً بين ما يقبله المسلم ويقبله المسيحي في ما تعنيه هذه الوصايا من التزامات أخلاقية اتجاه الخالق والمخلوق، تقول الوصايا: أنا الربّ إلهك. لا تحلف باسم الله بالباطل. احفظ يوم الرب. أكرم أباك وأمّك. لا تقتل، لا تزن. لا تسرق، لا تشهد بالزور. لا تشته امرأة قريبك. لا تشته مقتنى غيرك. هذه هي الوصايا التي يرى فيها أهل الإيمان مجالاً مشتركاً لا للحوار وحسب، وإنّما لتأسيس رؤية أخلاقية ذات بُعد عملي في حياة الإنسان.

(٢) قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا...﴾ [البقرة: ١٧٧].

يعرض له عن المسيحية، وإنّما يفنّد المزاعم، ويقدّم الأدلّة والبراهين، بخصوص ما زعمه البعض أنه حقائق عن الأنبياء والرسل، وإذا كان القرآن قد اتهم بالكفر من يذهب إلى الثالوث، أو إلى القول بألوهية المسيح وأنه ابن الله، إلى غير ذلك مما ردّه القرآن، فهذا ما حاور فيه القرآن واعتبره كفراً لكونه لا يرتكز إلى منطق سليم وحجج قاطعة، بل مجرّد أقوال تواصوا بها[١]، ولم يقدّموا البرهان والدليل عليها، كما قال الله تعالى: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٢]، والحق يقال، إنّ منطق القرآن، فيما يدعو إليه من حوار، قائم على أساس أن الإنسان مخلوق لله تعالى، ويعلم ما توسوس به نفسه، وهذا يقتضي أن لا يترك الإنسان لنفسه فيما يزعمه ويراه أنه الحق، فجاء الحوار معه لهدايته وصرفه عمّا يقوله بغير علم، كما قال الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٣]، فإذا كان ثمّة مأخذ على هذا الحوار فيما ينطوي عليه من تكفير، فذلك ليس مما يركن إليه، أو يُعتدّ به، وخاصة في ظلّ ما يزعمه البعض من أن المسيحية اليوم ليست النظرية التي التقاها القرآن، وليست المعنية بخطاب يا أهل الكتاب. فالقرآن يحاور ويجادل مَن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومَن قال بألوهية المسيح، وأن الله ثالث ثلاثة، فإذا لم يكن مَن قال بهذا موجوداً، فما معنى السلبية اتجاه القرآن، غير أن يكون الهدف هو القول بعدم نزول القرآن على النبيﷺ ككلمة نهائية وخاتمة للأديان...؟؟

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٣. قال الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٦.

الفصل الثالث

حوار الأديان في القرآن

أولاً: المنهج القويم وثوابت الحوار

ثانياً: أهل الكتاب في القرآن

أ ـ حوار القرآن مع اليهود

ب ـ حوار القرآن مع أهل الكتاب

خلاصة واستنتاج

ثالثاً: حوار القرآن ومنطق التكفير

أ ـ الحوار والقتال في القرآن

ب ـ الحوار والخسران في القرآن

خاتمة البحث: الحوار بين المشروعية والحقّانية

أولاً: المنهج القويم وثوابت الحوار

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ... ﴾[1].

إنّ القوامية في الحياة هي شرط نجاح كل مشروع يستهدف سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. ولعل التفسير الأقرب، وقد يكون الأنسب للقوامية هنا، هو المنهجية القويمة التي لا بدّ من اتباعها في سبيل إحقاق حق وإزهاق باطل، وكما يُلاحظ أيضاً أن أقوم تأتي على وزن أفعل التي تفيد الجزم في أن أحداً لا يأتي بمثل هذه المنهجيّة لكونها صادرة عن الله تعالى العالِم بما يصلح العباد والبلاد، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2] فأقوم تعني أنه يمكن أن يأتي الإنسان بشيء فيه الحياة والسلامة، ولكن الحياة القصوى، فيما تحتاج إليه من مشاريع حياة، ونماذج خلاص، لا تكون إلاّ من خلال القرآن الهادي إلى أقصى ما يمكن أن يحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة، وقد أجمع المفسرون على أن أقوم هي أفعل تفضيل بمعنى الأكثر ثباتاً واعتدالاً واستقامة، فيكون المعنى أن القرآن أقوم مما يهدي إليه غيره من الكتب، كما يرى العلامة الطباطبائي، ويمثل أقصر الطرق وأفضل طرق الاستقامة والثبات والهداية كما يرى آية الله مكارم الشيرازي في تفسير الأمثل.

وطالما أن حديثنا في هذا الفصل يتناول حوار الأديان في القرآن، فإنّ مقتضى هذا البحث أن تكون له منهجيته القرآنية للكشف عمّا يعنيه حوار الأديان، وهل هو

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) سورة الأنعام. الآية: ١٦١.

حوار فعلاً؟ أم أنه صدام؟ كما ذهب هانتغتون في صدام الحضارات[١]، أو كما نقل فوكوياما في نهاية التاريخ[٢]، إلى غير ذلك من النظريات التي ذهبت إلى القول بأن القرآن لا يستبطن نظريّة حوارية، بل يدعو إلى الحرب والجهاد، وإلى إعداد القوّة لترهيب الناس، وقد بيّنّا في تمهيدنا السابق مختصر القول في مزاعم هؤلاء، ومدى ما هم عليه من خطأ في الرؤية والمنهج، إذ إنّ أقلّ ما يقال في هؤلاء أنهم وقعوا في التباس، ولم يهتدوا إلى المنهجيّة القويمة التي تسمح لهم بإطلاق الحكم في مجال الحوار القرآني. ولا شكّ في أنّ اختلاف المناهج يختلف باختلاف الرؤى والأهداف، والمنهج، كما يرى الباحثون، هو الطريق المؤدّي إلى الغرض المطلوب من خلال دراسة المصاعب... ويعني في الفكر العلمي المعاصر الطريق المؤدّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدّد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة... وبشكل عام، فإنّ المنهج العلمي يمكن وصفه بأنّه فنّ التنظيم الصحيح لسلسلة الأفكار العديدة، إمّا من أجل الكشف عن الحقيقة، حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين..[٣].

كما سبق الكلام أيضاً أن التنوع والتعدد هو سمة الخلق في الدنيا والآخرة، بل هو حقيقة كونية لا شكّ فيها، وأن التعدّد والتنوّع مثلما أنه قائم موجود في عوالم الوجود كلها، وهو ظاهر في عالم النبات والحيوان والإنسان، بل هو، كما يرى العلماء،

(١) يرى «هانتغتون»، أن التباينات بين الحضارات ليست حقيقية وحسب، بل إنها أساسية. فالحضارات تختلف عن بعضها البعض بفعل التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد، والأكثر أهمية عامل الدين، فأصحاب الحضارات المختلفة يعتنقون معتقدات مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان، وبين الفرد والجماعة، وبين المواطن والدولة... وهذه الاختلافات نتاج عدة قرون، ولن تختفي تلك التباينات في القريب، فهي أكثر أصولية من الاختلافات بين الإيديولوجيات والأنظمة السياسية، وتعني الاختلافات وقوع التصادم فعلاً ولا يعني الصدام حدوث عنف بالضرورة؛ ومع ذلك، وعلى مدار قرون ولدت الاختلافات بين الحضارات أكثر الصراعات طويلة الأمد وأشدّها عنفاً.

را: هانتغتون، صموئيل، الإسلام والغرب، آفاق الصدام، ترجمة مجدي شرشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥، ص١٢.

(٢) را: فوكوياما، فرنسيس، نهاية التاريخ، ترجمة الدكتور حسين الشيخ، دار العلوم العربية، بيروت، ط١٩٩٤، ص١٦٥.

(٣) را: عمار، بوحوش، مناهج البحث العلمي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٩، ص١٠٣.

معجزة الله في خلقه، وهو من مظاهر الإبداع والإعجاز في الخلق والتكوين، ومثلما أن هذا التنوّع ظاهر في الكائنات، فهو ظاهر أيضاً في خلق الإنسان، في شكله ولونه ولغته، إضافة إلى عواطفه وأحاسيسه ومشاعره وأفكاره، وهذا يقتضي حتماً أن يكون الإنسان متنوعاً في رؤيته وعقيدته، هذا، فضلاً عن كونه مفطوراً على أنه محتاج، ولا يستقلّ بنفسه، كما بيّن الفلاسفة في مدنهم الفاضلة[١]. لذا، فإن منهجية البحث العلمي تقتضي ملاحظة ما فطر عليه الإنسان، سواء في تنوعه من حيث الشكل، أم من حيث المضمون، ناهيك عمّا خصّ به الإنسان من تنوّع في المهمات والوظائف، باعتبار أنه لا يعقل أن نبحث فيما خصّ به الإنسان من حوار وتفاعل ديني وإنساني بمعزل عن السنن الكونية والاجتماعية الحاكمة لحركة الإنسان.

إنّ دراسة الحوار في القرآن، لا بدّ أن ترتكز إلى القواعد العامة، والثوابت القائمة في عالم الخلق والوجود، كيما يتسنّى للباحث أن ينتهي إلى فكرة واضحة عن الحوار، بحيث يكون له رأيه المنسجم مع هذه الثوابت، فلو كان القرآن يدعو إلى الصدام، وإلى أن يكون الناس في صراع ونزاع لما جاءت النصوص الإلهية تدعو إلى التسابق بالخيرات، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ...﴾[٢].

ثم إنّه ما معنى أن يكون الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا؟ فهل لذلك من معنى غير أن القرآن يدعو إلى التعارف والتلاقي من منطلق أنهم مختلفون، ومتنوعون، ولا بدّ أن ينتهوا في ظلّ هذا التنوّع إلى تكاملهم لما تقدّم ذكره من أنّ التكامل معلول للاستباق، وهذه هي أهم ثابتة يمكن الانطلاق منها في تأسيس وترشيد عمليات العقل لاستخلاص الموقف الإسلامي اتجاه قضية الحوار.

---

(١) انظر الفارابي، أبو نصر، آراء أهل المدينة الفاضلة، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ص١١٧، وقال: مع الملاّ صدرا، المبدأ والمعاد، دار المصطفى، بيروت، ١٩٩٩، ص٣٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

فالقول بأن القرآن يدعو إلى الصدام والصراع، هو قول مخالف لما جاء به القرآن، لأنه يضرب أهمّ ما فطر عليه الإنسان من تمايز وتنوّع، ويؤسّس لعلاقات صراعية بين البشر على قاعدة أن البقاء للأقوى، هذا فضلاً عمّا تؤسّس له من شرائع وقوانين مخالفة لما فطر عليه الإنسان في أصل وجوده، وقد عهد الإنسان في تاريخه هذه الشرائع الجائرة المسمّاة بشريعة الغاب التي يكون فيها الإنسان رهين القوّة والفوضى... وأسير العصبيّة، والعرقية، والحزبية التي تحوّل الإنسان إلى شيطان في أفكاره وسلوكه وعقيدته...!؟

كما أنّ من القواعد والثوابت التي يُركن إليها في حقيقة الحوار القرآني، هي ما يمكن تسميته بنظرية الدفع في القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ...﴾[1]. إذ إنّ هذه الآية تؤسس لثابتة حوارية باعتبارها سنّة فطريّة هادفة إلى إحياء الإنسان بالدفع القائم أساساً على ملاحظة حقيقة التنوّع والاختلاف بين البشر، فلو كان معنى الدفع هو الصدام لما قال الله تعالى: تعاونوا، وتعارفوا، وتسابقوا، وسارعوا، إلى غير ذلك من مفردات قرآنية يمكن تفسيرها في إطار ثوابت الخلق وما جعلت عليه الكائنات من تميّز وتنوّع في الظاهر والباطن. ولهذا، فإنه يمكن الاستفادة من الدفع القرآني في تظهير معنى الحوار باعتباره أصلاً من الأصول التي لا بدّ من قيام الناس به في ضوء ما أمر الله به ونهى عنه لتكون لهم الحياة، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾[2].

أما الصدام الحضاري، فهو على خلاف ذلك تماماً فهو مبنيٌّ أصلاً على تجاهل الهدف من الخلق والوجود، ونقول تجاهل بهدف البرهنة على هذه الحقيقة، لا بهدف الكشف عنها، لأنها ظاهرة محسوسة، وقد تجاهلها الكثيرون في بحوثهم

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

الحضارية والإنسانية رغبة منهم في إثارة الصدام بين البشر، وتعزيز روح الانقسام على النحو الذي يؤدي إلى أن يكون الناس على تناقض فيما يقومون به من وظائف، وفيما يؤدّونه من أعمال، وفيما يلتزمون به من قضايا في الفكر والعقيدة والأخلاق.

والتدافع، كما نلاحظ في سياق الآية، يأتي بلحاظ كون الإنسان واعياً بأهداف الخلق، ومنتمياً إلى الله تعالى فيما يصدر عنه من رأي، أو مجادلة مع الآخرين، سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين، ولعلّ هذا ما يُستفاد من الأسبقية التاريخية التي تلحظها الآية المباركة: إذ إنّ المُعطى الديني هو الأساس في الحوار، وإذا كان ثمّة أبعاد أخرى للتحاور، فهي إنّما تأتي بالتبع، ومن شأن التدافع أن يُجلّي هذا المعنى الديني من خلال الحوار، فيكون الهدف هو حماية الدين والعقيدة والشريعة التي ينتمي إليها الإنسان[١]. أما أن يُقال بأنّ الصدام الحضاري تفرضه طبيعة البشر فيما يختلفون فيه إلى حدّ التناقض، فذلك ليس من الدين في شيء، سواء أكان الدين آتياً بالمعنى الفطري، أم آتياً في سياق النظرية الدينية التي يصدر عنها الإنسان في جميع شؤونه. فإذا كان المعنى الديني، بما هو أساس في نظرية التدافع، يفرض الاختلاف على البشر بلحاظ كونهم ينتمون إلى شرائع مختلفة[٢]، فذلك لا يصلح لأن يكون دليلاً على الصدام الثقافي والحضاري، وقبل ذلك الديني، لأنّ الإنسان، كما بيّنا، بحكم انتمائه إلى الدين، ينبغي عليه أن يكون مستوعباً لهدفيّة الخلق وما تفترضه من تكامل في صيرورة التحولات الإيمانية والإنسانية، وهذا هو معنى أن يتدافع البشر في طريق الخير والحق والعدل، فلا يكون التدافع مانعاً من ذلك لكونه يأتي في سياق الرؤية الدينية والسنن الفطرية.

ولهذا، فإنّ ما تقتضيه منهجية الدين أولاً وقبل كل شيء، أن يكون الإنسان قائماً

---

(١) يرى العلامة الطباطبائي أن تشريع القتال في الإسلام، إنّما هو لحفظ المجتمع الديني من شرّ أعداء الدين المهتمّين بإطفاء نور الله، فلولا ذلك لانهدمت المعابد الدينية والمشاعر الإلهية ونسخت العبادات والمناسك.

را: تفسير الميزان، م. س، ج١٤، ص٣٨٧.

(٢) را: السيد محمد مصطفى، خارطة المفاهيم القرآنية، دمشق، ٢٠١١، ط١، ص٣٥.

بالأمر الإلهي على النحو الذي يمكّنه من السير في طريق التكامل، وهذا ما تفيده دلالة السياق في الآية المباركة كونها لحظت الصوامع والبيع والصلوات والمساجد، ما يؤكّد لنا أن النظرية الدينية سبيلها التدافع وليس الصدام، الاستباق وليس التقاتل.

وإذا كان لا بدّ من القتال والتقاتل، فإنّه آخر ما يتوسّل إليه من الدفع إذا لم ينجح غيره من قبيل آخر الدواء الكيّ، وكما يقول العلامة الطباطبائي: «**ففيه إقدام على فناء البعض لبقاء البعض وتحمّل المشقّة في سبيل راحة سنّة جارية في المجتمع الإنساني، بل في جميع الموجودات التي لها نفسية ما واستقلال ما...**»[1]. وعليه، فإنه لا معنى لقول القائل بأنّ الدفع هو مظهر للصراع الحضاري، بل هو سنّة الله تعالى الجارية في الخلق، والتي لا بدّ من الاعتبار بها، والامتثال لها في كل وجوهها، ومن التأسيس عليها في المنهج لبحث موضوع الحوار الديني بحيث تكون طريقاً توصلها إلى الغرض المطلوب اكتشافه أو البرهنة عليه. لذا، فإنّ مقتضى المنهجية في الحوار أن يتلمّس الباحث، وخاصة في الدراسات الإسلامية، الثوابت التي لا بدّ من الانطلاق منها للكشف عن الحقيقة، أو للبرهنة عليها، لأنه يستحيل أن يكون القرآن قد دعا إلى الصدام في الوقت عينه الذي يدعو فيه إلى التكامل والتعارف. ولهذا فإنّ ما يُروّج له بعض الباحثين ممن اختمرتهم الأصوليات السلبية من أن منهج القرآن هو التأسيس للصراع، أو الصدام في ضوء ما تمّ تأويله من الآيات، لا يستقيم له معنى في ظلّ القواعد والثوابت الحاكمة في توجيه الرؤية الدينية، وهذه القواعد منها ما هو متعلّق بالتكوين والإيجاد، ومنها ما هو متعلق بالشرائع وتنوّع المناهج، فإذا ما تمّ الارتكاز إلى هذه الثوابت في التأسيس للحوار في الأديان، فإنّه يمكن الوصول إلى نتائج ذات جدوى فيما يتعلق بالنظرية القرآنية وما تقدّمه من رؤية لتحقيق الغاية المرجوّة في وصول الإنسان إلى كماله، الذي

(١) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م.س، ج٤، ص٢٨٧.

يفترض أن يكون مؤسساً على حقائق التكوين والتشريع معاً. إنّ المنهجية القويمة التي أرشد إليها القرآن، هي منهجية مرتكزة إلى حقيقة ما تجلّى به الإنسان في فطرته وطبيعة خلقه، حيث بيّن الله تعالى، وهو الخالق للإنسان والعالِم بما توسوس به نفسه، أنّ التنوّع (التعدّد) في الخلق، أو في الشرائع فيما لو أتى في سياق ما هدى الله له، لا بدّ أن يؤدّي إلى الكمال الإنساني. فالقول بأنّ منشأ الصراع والصدام هو ما عليه الناس من اختلاف، لا يستند إلى دليل ويناقض القوانين والقواعد والتأسيسات، لأنه يصادر النصوص ويفرض مسبقاً أن الحوار غير ممكن بين البشر لما هم عليه من تعدد وتنوّع، سواء في الخصائص والميّزات، أم في الأديان والشرائع، في حين أن مقتضى المنهجية الإسلامية، هو الكشف عن هذه الحقيقة الإلهية في طبيعة الخلق، وعمّا هو عليه الإنسان من مبادئ وقوانين، فيما ينتمي إليه من دين بحيث يكون ممكناً التأسيس للحوار الديني المؤدّي في النهاية إلى أن يكون الإنسان متحققاً بالكمال، مستوعباً لحركة الرسل والأنبياء في تاريخ الأديان.

إنّ كلمتنا في المنهج القويم، تقوم على ضرورة استيعاب المُعطى الديني في ضوء تعدّد الإنسان وتنوّعه، وقبل ذلك لا بدّ من استلهام جملة الثوابت والقواعد القرآنية التي تؤسس لحركة الإنسان في الحياة، وتعطيه كامل أبعاده فيما يتحوّل فيه من دين ودنيا.

ثانياً: أهل الكتاب في القرآن

إنّ ما تقدّم في كلمة المنهج هادفٌ إلى تبيان حقيقة التنوع في الخلق والاعتقاد، سواء في مجال التكوين، أم في مجال التشريع، هذا التنوّع يقتضي أن لا يكون الحوار في القرآن آتياً بخلاف ما فطر عليه الخلق، بحيث يكون ناقضاً له، وقد بيّن علماء التفسير ضرورة التسليم لإرادة الله تعالى التشريعية المنبعثة عن إرادته التكوينية.

يقول العلامة الطباطبائي: «**الإسلام دين الحق بمعنى أنه سنّة التكوين**

والطريقة التي تنطبق عليها الخلقة وتدعو إليها الفطرة، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[١]»[٢].

إذن، الإسلام هو دين الفطرة، وقد تواتر الرسل والأنبياء إلى الأمم للهداية إلى هذا الدين، وللخروج بالناس من الظلمات إلى النور، وذلك بهدف أن يكون الانسجام تاماً بين ما فطر عليه الإنسان، وبين ما يقوم به من أعمال، ويلتزم به من إيمان، ويؤدّيه من وظائف ومهام لا بدّ أن تكون متنوعة، تبعاً لما هو عليه الإنسان من تنوّع في مظاهره الداخلية والخارجية، وقد بيّن علماء الإسلام أن هذا التنوّع، كما سبق القول، لم يأتِ من خارج الإرادة الإلهية، وإنّما جاء وفقاً لما أراده الله تعالى. ولهذا، نجد القرآن حافل بالأمثلة والآيات المتنوعة التي تدعو الإنسان إلى التأمل والتفكير والاعتبار بما خلقه الله تعالى، وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «**سبحانه... بل ظهر للعقول بما أَرَانا من علامات التّدبر المُتقن والقضاء المبرم**»[٣].

ولا شكّ أيضاً في أن الحوار الديني في القرآن، سواء الحوار مع الملائكة، أم مع الشيطان، أم مع الأنبياء والرسل، أم مع أهل الإيمان، أم مع أهل الكتاب، جاء متناسباً تماماً مع ما جعل عليه الناس من اختلاف في الوجهات والهيئات والشرائع والمناسك والمناهج، كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ﴾[٥].

وانطلاقاً من ذلك، نرى أن الحوار مع أهل الكتاب يأتي في سياق هذا التنوّع في الحوار الهادف إلى تعليم الناس وإرشادهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من إيمان وتسليم لله تعالى، بحيث يكون منهم الإلتزام في طريق الإيمان، والتسابق في

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م.س، ج١٦، ص١٨٣.

(٣) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م، س، الخطبة: ٦٢.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

الخيرات لتحقيق الكمال، الذي لا يتحقق إلاّ من خلال هذا التسابق والتعارف بين البشر، ذلك أنه يستحيل أن يتحقق هذا الكمال فيما لو كان الناس نسخة واحدة وشكلاً واحداً، وعلى رؤية واحدة، وكما يقول العلامة مطهري في المجتمع والتاريخ: «**إنّ الناس إنّما جعلوا على هذا التفاوت والاختلاف والتنوع لأجل تحقيق كمالاتهم، إذ لو كانوا شيئاً واحداً، وعقلاً واحداً، وعلى خصائص ومميزات واحدة، لاستحال عليهم التكامل، فلم يرد الله لهم أن يكونوا نسخاً معملية، بحيث يكون لهم اللون والرائحة والشكل الواحد، كما هو حال جميع الصناعات المادية التي تنتج على شكل واحد وتكون لها خصائص ومميزات واحدة..**»[١].

لقد أرشد الله تعالى في الحوار القرآني مع أهل الكتاب، إلى حقائق إيمانية كبرى، وأعظم هذه الحقائق هو الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله تعالى، مبيناً لهم أن الخط التواصلي في طريق الإيمان ليس لأحد أن يدّعي أنه ينتهي في هذا الزمان أو ذاك، بل الله تعالى هو الذي يحكم بما يريد، وقد أراد سبحانه وتعالى أن يتواصل أهل الكتاب مع هذا الخطّ النبوي ليكونوا جزءاً من التواصل الإنساني في تاريخ الأديان. ولهذا، نجد أن القرآن في حواره مع اليهود والنصارى بما هم أهل كتاب يدعوهم إلى التفكير بحقيقة أن بعث الأنبياء والرسل هو بيد الله تعالى، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾[٢]، وكما قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ...﴾[٣]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو إلى الاعتبار في خطّ الرسالات بهدف التواصل والاعتبار والاستهداء في طريق الحق، ليكون لهم الفوز في الدنيا والآخرة. أما أن يدّعي أهل الكتاب أنهم على كل شيء، وأن الهداية كل الهداية في أن يكون الناس هوداً أو نصارى، وأن إرادة الله تعالى هي رهن إرادتهم بحيث يكون لهم الخيار في أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا، فذلك كلّه ليس

(١) مطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، م، س، ص٤٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

من الحق في شيء، ولا جاءت به رسل، ولا نزل به وحي، وإنّما هو ادعاء باطل ذهب إليه كثيرون من أهل الكتاب، وكان موضع جدل وحوار معهم في القرآن، إذ إنّ هناك الكثير من الآيات التي تجادل أهل الكتاب وتدعوهم بالحكمة والمنطق إلى أن لا يتعاملوا بعنصرية مع ما يوحى إليهم، وهنا تجدر الإشارة إلى أن أهل الكتاب في عرف القرآن هم اليهود والنصارى، وهم إنّما خوطبوا بالجمع لكونهم ينتمون إلى قومية واحدة، وهذا ما بيّنه العلامة الطباطبائي بقوله: «**إنّ الطائفتين ترجعان إلى أصل واحد وهو شعب إسرائيل بعث إليهم موسى وعيسى عليهما السلام ... ووجه الكلام معهم لاشتراكهم في الخصيصة القومية وهو التحكم والقول بغير حق.. وعدم التقيّد بالعهود والمواثيق..**»[١]، ورغم أن لأهل الكتاب هذه الخصوصية، فإننا نجد اليهود لا يرون تشريع شريعة بعد التوراة لذهابهم إلى امتناع النسخ والبداء، وقد بيّن القرآن هذا المعنى فيما انتهت إليه كل طائفة من دعوى، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[٢]، ما يدلّل على أن أهل الكتاب قد أخطأوا الهدف وادّعوا ما لم ينزل الله به سلطاناً قبل بعثة النبي ، هذا فضلاً عمّا كانوا عليه من تعصّب ديني وقبلي، انتهى بهم إلى أن يكونوا فرقاً ومذاهب، كما قال الله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٣].

إنّ القرآن فيما يعرض له من حوارات مع أهل الكتاب، يكشف عن أنهم يتعاملون مع الوحي في ضوء رؤية خاصة بالإيمان، ويعبرون عن الوحي بلغة خاصة ومفاهيم تتوافق وأمزجتهم ومصالحهم الدنيوية، ولا يصدرون في دينهم عمّا جاء به الأنبياء، وخاصة في مجال التوحيد، حيث يرون أن الله تعالى قد فضّلهم على العالمين لكونهم بني إسرائيل، لا لكونهم مؤمنين ويقومون بالشريعة بحسب ما أُمروا به، وكانت النتيجة أن ذهبت كل طائفة إلى ما يحلو لها من قول في الألوهية،

(١) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج٣، ص١٣٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٣.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥٣.

فقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصرانية المسيح ابن الله، مع ما تبع ذلك من تأويلات في الصفات الإلهية، وإذا كانت هذه المذاهب تدلّ على شيء، فإنّها تدلّ على مدى خروج هؤلاء عن الخط التواصلي، الذي أراد الله تعالى له أن يستمر مع الأنبياء ليكون الناس جميعاً على مستوى الخطاب الإلهي، ما أدّى بهم إلى التحول عن كونهم عباداً لله تعالى ليكونوا آلهةً فيما يزعمونه من اعتقاد، ويفتخرون به من عالمية وتمايز عن البشر، وهذا ما كان موضع انتقاد ورفض من أنبياء بني إسرائيل، ولو أنهم عقلوا عن الله تعالى، واستجابوا لنداء الحياة، لما آل أمرهم في الاعتقاد والعمل إلى الحزبية والعصبيّة، وقد سجّل القرآن الكثير من مزاعم أهل الكتاب، وكشف عن أنهم عملوا بخلاف ما تقتضيه الحكمة الإلهية من الخلق والتنوّع، فضلاً عمّا تقتضيه الحكمة من تعدّد الشرائع والمناسك، فهم ـ أي أهل الكتاب ـ بدل من أن يتسابقوا بالخيرات، ويسارعوا إلى مغفرة من ربهم بمتابعة خط الأنبياء، انقلبوا على الأعقاب، وحالوا دون الأمر الإلهي، فكان لهم ما أرادوا من هوان وذلّ وصغار بما أقدموا عليه من انقسام وعمل بخلاف السنن الفطرية، وهذا ما أدّى إلى أن تكون الشرائع المختلفة بل المتناقضة، فغامت الآفاق، وانقطع حبل التواصل مع النبوة الخاتمة، وادّعى كل من اليهود والنصارى أن التاريخ الديني ينتهي عند ما يرونه من حق فاستحال الرتق، ولم تجرِ على أذلالها السُّنن، وكان ما كان من خطاب قرآني، ونداء إلهي لأهل الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾.

إنّه النداء الهادف إلى إعادة وصل ما انقطع مع النبوة، حيث نرى كيف أن القرآن قد أكثر من كلمات التواصل والحوار مع أهل الكتاب دون أن يُغفل ذكر التوراة والإنجيل، باعتبارهما كتابين سماويين أراد الله لبني إسرائيل أن يتكاملوا من خلالهما في صيرورة التحوّل باتجاه الله تعالى، لا أن يقتصر الأمر على ما تمّ ادعاءه من معنى ديني إيماني، هذا المعنى الذي ذهبت فيه بنو إسرائيل مذاهب شتّى حالت دون أن يكون لهم أدنى التكامل في طريق الإيمان، هذا فضلاً عمّا تسبّبت

به هذه المذاهب من تحولات إنسانية واجتماعية وثقافية مخالفة لسنن الله تعالى وما تحتّمه من اعتبار وتنوّع إنساني هادف إلى تكامل الإيمان فيما يختاره الله تعالى للبشر من شرائع وأحكام وتعاليم يهتدون بها إلى سبل السلامة في الدين والدنيا.

أ ـ حوار القرآن مع اليهود:

إذا كان القرآن هو الكلمة الخاتمة والكاملة والنهائية في التاريخ الديني للبشر، كما بيّن تعالى في آية إكمال الدين[١]، فإنّ هذه النهائية لم تستبعد أهل الكتاب عن أن يكونوا موضوعاً لخطاب الله تعالى، بل إنّ القرآن هيمن على الرسالات السماوية، وشكّل امتداداً حقيقياً وصادقاً لها، هذا وقد برز الحوار القرآني مع أهل الإيمان على مستويات مختلفة من الخطاب، تعرّض لها على الشكل الآتي:

أولاً: هناك مستوى الخطاب مع بني إسرائيل فيما كانوا عليه مع النبي موسى عليه السلام من إيمان وكفر، وغير ذلك من الحالات والتقلبات النفسية والعقلية والاجتماعية، وقد بيّنت الآيات القرآنية هذا المستوى بما عرض له القرآن من أحوالهم وما كانوا عليه من جحود وقتل للأنبياء، ومعاندة للحق، وعبادة للعجل، واستعباد الفراعنة لهم، ثم تحريرهم من العبودية، ونجاتهم من الغرق، وإنزال المنّ والسلوى عليهم، ثم كرههم للآخرين، ولعل الغاية القرآنية من وراء ذلك هي بيان حقيقة هؤلاء الناس، بحيث تهتدي الإنسانية إلى ما هم عليه من فساد في دينهم، هذا فضلاً عن إظهار النعمة التي أنعم الله بها عليهم،، إذ ترى في سورة البقرة الكثير من الآيات التي تكرّر النعم الإلهية عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ...﴾[٢].

ثانياً: هناك مستوى من الخطاب يتوجه فيه الله تعالى إلى أهل الكتاب، وقد بيّنا أن أهل الكتاب في عرف القرآن هم اليهود والنصارى لكونهم من أمة واحدة، وتجمعهم قومية واحدة، وغالباً ما نرى مسحة اللين التي تميّز الخطاب مع أهل الكتاب، كما

(١) قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].
(٢) سورة البقرة، الآيات: ٤٠ ، ٤٧، ١٢٢.

في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ ...﴾[١].

ثالثاً: مستوى الخطاب مع اليهود والنصارى، وقد جاء هذا الخطاب تارة بالجمع، وطوراً بالمفرد، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ...﴾[٢]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ ...﴾[٣].

رابعاً: خطاب القرآن مع المسلمين في كيفية التعامل مع الآخرين، سواء أكانوا مؤمنين، وأهل كتاب، أم غير مؤمنين، وهو خطاب ذو شقّين، خطاب لقتالهم لكونهم كافرين ولا يؤمنون بالله تعالى، وخطاب عدم تولّيهم لكونهم أولياء بعضهم البعض، إضافة إلى خطاب القرآن للمسلمين بأن لا يسألوا نبيّهم كما سأل أصحاب موسى عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ ...﴾[٤].

إذن، هناك مستويات من الخطاب القرآني مع الإنسان، ويكفي أن نعرض في هذا البحث لمستوى الخطاب الأول، حيث يتمّ فيه استحضار اليهود من تاريخهم الديني، من زمان موسى عليه السلام إلى زمان وعصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ هو خطاب يستحضر النعم الإلهية، ويبيّن ما كان عليه بنو إسرائيل من مستويات إيمانية وعملية فيما كانوا يؤمنون به ويعملون له من أهداف لا تتجاوز المصالح الخاصة والمنافع الدنيوية، حيث بيّن القرآن كيف أنهم استهزؤوا بالنبي موسى عليه السلام، وكذّبوه وعاندوه، ولم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٣) قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦].
(٤) سورة البقرة، الآيتان: ١٠٨ ـ ١٠٩.

يؤمنوا بما جاء به أنبياء بني إسرائيل لما كانوا عليه من عناد وفساد في دينهم ودنياهم، وقد استمر هذا الخطاب لهم مع النبي عيسى عليه السلام، ولكنهم لمايدخل الإيمان قلوبهم واتهموا النبي عيسى عليه السلام وطاردوه إلى غير ذلك مما قصّه القرآن بشأن أوضاعهم مع الأنبياء. وهكذا نتابع الخطاب لهم في عصر الرسالة الإسلامية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾[1].

إنّ القرآن يستحضر اليهود من تاريخهم من خلال اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لكونهم امتداداً حقيقياً لآبائهم، وهو خطاب قرآني في الزمان والتاريخ لقوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾[2]، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[3]. وهكذا، فإنّ القرآن لم يميز بين اليهود الذين كانوا مع النبي موسى عليه السلام قبل مئات السنين وبين اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا، نجد أن القرآن فيما زعموه عن قربان تأكله النار يرد عليهم مقالتهم ويسألهم عن قتل الأنبياء، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]. فالذين لا يعلمون وتمادوا في العناد من أهل مكة قالوا لرسول الله ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعٗا﴾ ﴿..أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِۖ ...﴾ واليهود قالوا لموسى ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾، وقالت النصارى لعيسى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وهكذا تشابهت القلوب في الزمان والتاريخ والإنسان..!؟

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، قوله يُضاهئون يشابهون، والمعنى أن قول اليهود والنصارى يشبه قول المشركين العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله وقول الوثنيين من قدامى الرومان واليونان والبوذيين وغيرهم...

انظر: مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، م. س، ج١، ص٣٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٣.

فاليهود الذين عاصروا النبيﷺ لم يقتلواالأنبياء، وإنّما الذي قام بفعل القتل هم الآباء والأجداد، فنُسب الفعل بالقتل إلى المعاصرين للنبيﷺ، مما يدلّ على أن الأبناء هم امتداد للأجداد والآباء، وهذه حقيقة قرآنية لا بدّ أن تلحظ في سياق الخطاب القرآني مع اليهود، لأنه خطاب كاشف عن حقائق الأمور، وهو لا يستحضر التاريخ الديني لمجرّد الحديث عن فعل تاريخي[١]، وإنما يستحضره بهدف وعي حركة الإيمان في تاريخ البشر، وبهدف التعرف إلى ما يكون عليه الإنسان من تحولات في الزمن، سواء في الماضي، أم في الحاضر، أم في المستقبل، لما لهذا الوعي، وكذلك التعرف، من أثر في تحديد ملامح التحولات الإيمانية والإنسانية، التي بيَّن القرآن أنها واحدة وممتدة في حياة الإنسان وإن اختلفت في الأسماء والأشكال، ولكنها تبقى واحدة في الجوهر، وهذا ما كشفت عنه العلوم الإنسانية الحديثة فيما ذهبت إليه من أن أكثرية الأحياء تتشكّل من الأموات، ولعلّنا في غنى عمّا ذهب إليه العلماء في هذا الشأن طالما أن الإمام الصادقعليه السلام قد بيّن هذا المعنى وكشف عن مضمونه حينما سأل أحدهم عمّا إذا كان ينزل في الكوفة، وعمّا إذا كان رأى أحداً من قتلة الإمام الحسينعليه السلام فأجابه: ما رأيت منهم أحداً. فردّ الإمامعليه السلام قائلاً: ليست قتلة الإمامعليه السلام فقط هم الذين باشروا الفعل وقاموا به، وإنما هم أولئك الذين سمعوا بذلك ورضوا به حتى يوم القيامة[٢]، ونحن إنّما

(١) يقول غارودي: «إنّ الله، في القرآن كما في التوراة والإنجيل، يكلّم الإنسان في التاريخ، وإنّ كبار المفسّرين للقرآن يذكرون الظروف التاريخية التي نزلت فيها كل آية، والمقصود هو جواب عيني من الله عن مسألة كانت أمة النبي تطرحها عليه. إن هذه التاريخانية لا تنقص من قيمة الرسالة الشمولية والأبدية، فكل تنزيل من تنزلات الأزلي في التاريخ، يتضمن مبدأ عمل صالح لكل الشعوب وكل العصور ولكنه يرتدي شكلاً خاصاً مرتبطاً بظروف هذا العصر وهذا البلد.
را: غارودي، روجيه، الأصوليات المعاصرة، دار الفيحاء، باريس، ط١، ١٩٩٢، ص٨٨.

(٢) جاء في البرهان، محمد بن الأرقط، عن أبي عبد الله : قال لي تنزل الكوفة؟ قلت نعم، قال: فترون قتلة الحسين بين أظهركم؟ قال: قلت جعلت فداك ما رأيت أحداً منهم، قال: فإذا أنت لا ترى القاتل إلاّ مَن قتل أو مَن ولي القتل ألم تسمع إلى قول الله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، قال فكان بين الذين خوطبوا بهذا القول وبين القائلين خمسماية سنة فسمّاهم الله قاتلين برضاهم بما صنع أولئك، إذ لم يكن بين الرسولﷺ وعيسىعليه السلام رسول، إنما رضوا مثل أولئك فسمّوا قاتلين.
را: البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، دار الهادي، بيروت، ط٤، ١٩٩٢، ج١، ص٣٢٨.

ننقل هذا الكلام بالمعنى لكونه يؤسّس له في سياق الرؤية القرآنية على نحو يبيّن أن الفعل الإنساني، سواء السلبي أم الإيجابي، ليس مجرّد فعل في التاريخ، وإنّما هو فعل في الزمن وله امتداداته في النفوس قبل الواقع، ولهذا، فإنه ليس من الغرابة في شيء أن يُعطي القرآن هذا البعد للحدث التاريخي الناشئ عن كون الإنسان ينتمي إلى عقلية وروحية مؤثّرة في الزمن، وباعثة على الفعل في كل زمان.

لقد كشف القرآن أن اليهود في تاريخهم الديني قد تميّزوا بهذه الروحية الفاسدة في علاقاتهم الإنسانية، وفي علاقاتهم مع الأنبياء، رغم كل النعم الإلهية التي مَنَّ الله تعالى بها عليهم[١]، ولكن النتيجة كانت استمرار الفساد في الأرض وقتل الأنبياء بغير حق، إلى غير ذلك مما كشف عنه القرآن لجهة عدم الوفاء بالعهد، والكفر بما أنزل الله تعالى على نبيّه محمد ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ ...﴾[٢].

إذن، مستوى الخطاب الأول، هو استحضار اليهود من تاريخهم، وقد تكرّر الخطاب لبني إسرائيل ليكونوا على مستوى الرسالة الجديدة، فيؤمنوا بها، وينطلقوا على أساسها في تحقيق التواصل مع أهل الإيمان، بحيث يدركوا أن التواصل الديني في الزمان مع الأنبياء هو شأن إلهي، وليس لهم أن يحدّدوا أو يفرضوا طريقة الإيمان على أحد فضلاً عن أنفسهم، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، والخلق كلهم عياله وعباده، وقد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وليس من معنى لتكرار الخطاب إلى اليهود إلاّ التأكيد على حيوية هذا الخطاب الإلهي الهادف إلى ترشيدهم وتزكيتهم على النحو الذي يجعل منهم مجتمعاً إنسانياً تليق به رسالة السماء.

كما أن التكرار هادف أيضاً إلى تحقيق اليهود بالرؤية الإيمانية الجديدة للخروج

---

(١) من هذه النعم، كثرة الأنبياء فيهم، وتشريفهم بالتوراة والزبور، وتحريرهم من فرعون، ونجاتهم من الغرق، وإعطاؤهم المُلك والسلطان في عهد سليمان، وغير ذلك مما يستوجب الإيمان، والشكر وعدم الجحود والكفر.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤١.

بهم من كهوف العرقية والعصبية والمذهبية، إلى رحاب حاكمية جديدة جاء بها الإسلام، لكي يكون لهم معنى الامتداد في الحياة والدين، فلا يكونوا مجتمعاً مغلقاً، هذا فضلاً عمّا يعنيه النداء من تصحيح لمسار الحركة الدينية بعد أن تحولت مع اليهود إلى مجرّد حركة مصالح وتجارات لتحصيل مكاسب من قبل الأحبار، الذين استغلّوا الدين والناس لمآربهم بعد أن اتخذوا أرباباً من دون الله تعالى يعبدهم الناس، ويحرّمون لهم الحلال، ويحلّلون لهم الحرام، فجاء الخطاب الإلهي لترشيد هذا المجتمع من خلال تذكيره بالعهود والمواثيق وجملة النعم التي مَنَّ الله بها عليهم، وهذا إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على مدى العناية الإلهية بالإنسان من خلال تتابع الخطاب وتكرار النداء ليكون على مستوى ما خصّ به هذا الإنسان من معنى ودور وهدف لعله يتمكن من إعادة تواصله مع تاريخ النبوة والرسالة، بحيث يكون له معنى في صيرورة تحوله الإنساني، ليس فقط من خلال إعادة التفكير فيما كان عليه الإنسان في ماضيه وحاضره، وإنّما في تحوّله نحو المستقبل ليكون في الدائرة الإنسانية الكبرى، والتي هي في الحقيقة دائرة الدين والأنبياء والرسل، تمهيداً لتحقيق رؤية شاملة حول الكون والإنسان والحياة والدين بما هو سبيل للإنسانية وليس لليهود وحسب.

إنّ القرآن من خلال تواصل الخطاب يُظهر مدى العناية الإلهية بالإنسان، ولكن اليهود، كعادتهم، لم يستوعبوا خطاب النبوّة جيداً، ومارسوا العناد في تقبّل الدعوة الجديدة، رغم إيمان الكثيرين منهم بها، كما جاء في الثناء الإلهي على المؤمنين من أهل الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[1]. فهذه شهادة لمن آمن بالله وأقام الصلاة، وآتى الزكاة من أهل الكتاب، ما يعني ضرورة الاعتبار للخطاب الإلهي في الدائرة الشاملة لأهل الإيمان، إذ لم يكونوا جميعاً على حالة واحدة، بل آمن الكثيرون منهم،

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

واستجابوا للنداء الإلهي فيما أمرهم به ونهاهم عنه، سواء في مجال الاعتقاد، أم في مجال العمل. أما قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾[١]، فهو قول ناظر إلى حقيقة ما هم عليه من ضيق في تقبّل الرسالة الجديدة، وهنا جاء الخطاب والكلام الإلهي، بلفظ اليهود والنصارى، وليس بلفظ أهل الكتاب لما يتضمنه هذا التعبير من لين واعتبار لشأنيّة الكتب المنزلة على الأنبياء، وهو لم يأتِ بلحاظ كون أهل الكتاب يؤمنون بالرسالة، وإنّما بلحاظ كونهم آمنوا بالكتاب، كما أنه ناظر إلى استحالة أن يتحوّل اليهود والنصارى عمّا هم عليه من تنكّر للدين الجديد، وذلك يتبدّى لنا من خلال ما تتضمنه آيات أخرى بأن اليهود والنصارى لم يكونوا على وفاق في تاريخهم، بل على رفض تام وكامل، باعتبار أن اليهود لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام، ويزعمون أن المسيح المذكور في التوراة لم يأتِ بعد!! وإذا كانوا - أي اليهود - والنصارى - قد اختلفوا إلى حدّ التناقض فيما زعمه كل فريق من إيمان واعتقاد، فمن الطبيعي أن لا يقبلوا الدين الجديد ورسالة الإسلام[٢]، وخاصة بعد أن زعموا أنه لن يدخل الجنّة إلاّ مَن كان هوداً أو نصارى. فهم، فيما تناقضوا فيه وآلوا إليه، لم يعد بمقدورهم استيعاب الرسالة الجديدة المختلفة تماماً عمّا في أيديهم من الكتاب والأحكام، فكان أن التبس الدين عليهم، ما أدّى في النتيجة إلى خروجهم عن خطّ الامتداد الرسالي ليكونوا أسرى ما صنعته أيديهم من دين ودنيا.

إنّ قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ ...﴾، كاشف عن جوهر ما يختزنه القرآن من تاريخ ونفوس وتقلبات وأحوال كلها تنبّئ بأنّ اليهود ليسوا في المستوى العقلي والديني، فضلاً عن النفسي، الذي يؤهّلهم لأن يكونوا مجتمعاً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ يختزن مدلولات كثيرة عن اليهود والنصارى، فهو فضلاً عمّا يرشد إليه من حالات نفسية وعصبية، يفيد أيضاً أنه لا يجوز إرضاء اليهود والنصارى بحال من الأحوال، لأنه تعالى علّق رضاهم بأن يصير الإنسان يهودياً أو نصرانياً، وإذا استحال ذلك استحال رضاؤهم، وهذا هو مفاد قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

إنسانياً فاعلاً ومنفتحاً على الإنسانية الكبرى وعلى العالمية الإلهية، التي تجلّت برحمة الإسلام، ورحمة نبيّه ﷺ المرسل رحمة للعالمين، فاليهود بما هم امتداد للآباء والأجداد لم يكونوا راضين عن أنبيائهم ورسلهم، فكيف يمكن أن يُنتظر منهم أن يكونوا راضين أو مؤمنين برسالة الإسلام؟ وبالتالي، فهم ليسوا قادرين بسبب أطماعهم وما نشأوا عليه من تفاعلات عصبية وعرقية على التماس المعنى الديني الحقيقي، ولا على الاعتبار بالخطاب الإلهي لوضعه في الدائرة العالمية للإنسان، وهذا كله، أدى إلى أن يتحوّل اليهود عن مسار الإنسانية ليفوزوا باللعن الإلهي على نحو ما بيّن الله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

عموماً يمكن القول: إنّ حوار القرآن مع اليهود أخذ حيّزاً كبيراً من الآيات القرآنية، وخاصة سورة البقرة، التي ذبحوها وما كادوا يفعلون، فهي حوت الكثير من صفاتهم وأعمالهم، سواء مع النبي موسى عليه السلام، أم مع غيره من أنبياء بني إسرائيل، أم مع النبي ﷺ في تجربته مع يهود المدينة الذين خاطبهم القرآن في سياق واحد من حيث كونهم امتداداً لأسلافهم، وقد أظهر القرآن هذا التشابه لدرجة أنه يمكن أن يسأل المرء بأنه إذا كان الخطاب موجّه بظاهره إلى يهود المدينة، مع العلم بأن النعم المشار إليها منحها الله لآبائهم، لا لهم، فلماذا يخاطب يهود المدينة به؟

والجواب، كما يقول العلاّمة مغنية، هو أن النعمة على الآباء هي نعمة على الأبناء كما سبق أن ذكرنا، ولهذا فإن القرآن في حواره وندائه إلى اليهود لم يلحظ الاعتبار الزمني، لكونه العالم بما خلق. وإذا كان الزمن الماضي قد تمّ لحاظه في الخطاب القرآني، فكذلك المستقبل هو أيضاً يلحظ في إطار الرؤية الدينية بعدما أكّد القرآن

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٠.

على حقيقة التشابه في القلوب، وإنّ أي حوار مع أهل الإيمان لا بدّ أن يكون مرتكزه وقاعدته هذه الثابتة، فلا يُقال: إنّ الإنسان قد تغيّر، والحياة قد تبدّلت، وأصبحت الإنسانية في زمن جديد ووعي جديد، لأنّ التغيّر إن حصل، فهو إنّما يكون في الصور والأشكال. أما الباطن والقلوب، فهو مستمر في التحقق، ويبقى له تأثيره وامتداده، تماماً كما هو حاصل اليوم، حيث نجد الإنسانية في أوج تحضّرها، ولكنها لا تزال تتحدّث عن العصبيات والعرقيات وصدام الحضارات إلى غير ذلك مما يؤكّد قول اليهود والنصارى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ...﴾! والحق يقال: إنّ أكثر الأديان والأحزاب على هذه النزعة، ولا خصوصية لليهود والنصارى في ذلك...وقد استنكر القرآن هذه النزعة، داعياً إلى تجاوزها من خلال الوعي والإيمان لتحقيق التعايش الديني مع كل الأديان، هذا فضلاً عمّا دعا إليه القرآن من إيمان بكل الرسل والأنبياء بحيث لا يفرّق بين أحد منهم، باعتبارهم يؤدّون عن الله تعالى، ويبلّغون رسالاته إلى عباده ليكون للإنسانية كمالها. وإذا كان اليهود قد أخفقوا في مقاربة الخطاب الإلهي لهم فيما دعاهم إليه من إيمان وإخلاص وتجاوز لكل عصبية وعرقية، ليكون لهم الامتداد الرسالي والإنساني، فإنّ هذا الإخفاق كان ولا يزال سببه عناد اليهود وطلبهم للدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ...﴾[1]، فهم اختاروا بملء إرادتهم الحياة بما تعنيه من كذب ونفاق وفساد، والمصلحة الشخصية بكل ما تعنيه من مكاسب، وهذا ما كانوا عليه في عصر النبي موسى عليه السلام، واستمروا عليه إلى عصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وسيستمرّون على ذلك إلى يوم القيامة، ما يعني أن تأسيسات القرآن ليست تاريخية وحسب، وإنّما هي تأسيسات لاحظت طبيعة هذا الجنس من البشر[2]، فإذا كانوا

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٦.

(٢) يقول غارودي: «باختصار، إنّ كل آية في القرآن هي حوار إلهي عن مسألة ملموسة... وهذا لا يُلقي الشكّ إطلاقاً على الطابع الإلهي للتنزيل هذا.. فجواب مسألة تاريخية هو من وحي إلهي...، هو قدوة وليس مادة مجرّدة.
را: غارودي، الأصوليات المعاصرة، م. س، ص٩٣ـ ٩٤.

قد كفروا بتوراتهم، وقتلوا أنبياءهم، فهل يُعقل أو ينتظر منهم أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ؟، ولم يكن من سبب لذلك، كما يقول المفسرون، سوى المنفعة الذاتية والحرص على الحياة... وإذا كان القرآن قد أسّس لرؤية ثابتة في حركة الإنسان ووعيه للأحداث، فيما أرشد إليه من وقائع وأحداث وسُنن في التاريخ، فإن هذا لا يعني مطلقاً أن القرآن يؤسس للصدام بين البشر، ويمنح فرصة التنازع والصراع بين الأديان، وإنّما هو فيما يرتكز إليه من ثوابت في الحوار، يدعو إلى استمرار المجادلة بالحسنى، وكل حجاج القرآن من هذا النوع، لأنه الخطاب النهائي والكامل والهادف إلى أن يكون الناس على تعايش وتعارف وتقوى في ما يؤسسون له من علاقات، ويرسمونه من أهداف، ويتفاعلون معه من قضايا دينية وسياسية واجتماعية. فالقرآن يدعو إلى الحوار بين الأديان، وقد اقتضت هذه الدعوة للحوار أن يكون الإنسان على وعي بالتاريخ، وبما كان عليه أهل الإيمان في تاريخهم، ذلك أنه من غير الممكن تجاهل الصيرورة التاريخية للبشر وما كانوا عليه في تاريخهم، فيما لو كان الهدف التأسيس لحوار هادف وفاعل وبنّاء، وهذا ما أوضحه القرآن جليّاً، ودعا إلى التأمّل والتدبّر فيه ملياً، بهدف أن يكون البشر على بصيرة مما كانوا عليه، ومما هم صائرون إليه. أما أن ندعو إلى التعايش السلمي، ونتغاضى عن تحوّلات الإنسان التاريخية وعمّا كان عليه من دين ووعي في حركته الإنسانية، فذلك مما لا يمكن الركون إليه، أو الارتكاز عليه لما تقدّم قوله من أن التعايش والتعارف إنّما يكون منتجاً ومفيداً فيما لو كان مستنداً إلى سنن التاريخ وتفاعل الأحداث، ولاحظاً لتجارب البشر، باعتبار أن العقل كما يقول أمير المؤمنين : «**هو حفظ التجارب، وخير ما جرّبت ما وعظك**». فالقول بأن التعايش والتعارف يبقى سبيله وخير طريق له أن تجتمع الأمم والأديان، وأن تُعقد اللقاءات لمجرّد اللقاءات، فهذا وإن كان ظاهره يعتبر حواراً وتفاعلاً، إلاّ أن شيئاً من الإيمانية لن يتحقق وخاصة مع امتدادات بني إسرائيل في كل زمان، أو مع مَن تشابهت قلوبهم في الاعتقاد والعمل،

وكما يقول العلاّمة مغنية في كلام علمي رصين ينطوي على حكمة وتبصّر بالحوار القرآني وما يدعو إليه من تعارف وتعايش، يقول: «**إنّ التفاوض بالطرق السلمية، والرضوخ للحق لا يتحقق على وجهه الأكمل إلاّ إذا كانت جميع الأطراف، أطراف الحوار، المعنية مؤمنة بالحق لوجه الحق، ومُحال أن يهتدي إلى خير، ويرجي منه الخير من لا يؤمن إلاّ بذاته، ولا يهتمّ إلاّ بمصالحه**»[١].

إنّ حوار القرآن مع اليهود، ليس حواراً خاصاً، كما أنه ليس حواراً في التاريخ، بحيث يُقال: إنّ ما عرض له القرآن مع اليهود إنّما يُحفظ ولا يُقاس، كما أنه ليس حواراً في التاريخ على نحو التجربة الخاصة بقوم، أو بشعب، بل يُقال: إنّه حوار قائم على البعد الإيماني في النصّ التاريخي، لأنّ ما يكسبه الإنسان شيء، وما يبلّغه الأنبياء عن ربّهم شيء آخر، وإذا كان الأنبياء قد عرضوا للتجربة التاريخية، فذلك إنما كان منهم بهدف ملاحظة هذه التجارب في بعدها الأزلي، باعتبار إنّ القرآن ليس كتاباً للتسلية، وإنما هو كتاب إلهي منتظم في إطار الرؤية الكونية لخلق العالم والإنسان. وقد تقدّم الكلام في معنى أن تكون الإرادة التشريعية منبعثة عن الإرادة التكوينية...

ب ـ حوار القرآن مع أهل الكتاب:

إنّ من مستويات الحوار القرآني التي عرضنا لها في المبحث السابق، مستوى الحوار مع أهل الكتاب، وهو حوار له قيمته أيضاً في القرآن، وقد تجلّى في كثير من الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾، كما أشرنا أيضاً إلى أنّ هناك فرقاً كبيراً لا بدّ من اعتباره في المباحث القرآنية، وهو أن الخطاب إلى اليهود والنصارى في الآيات القرآنية يختلف في كثير من المداليل عن الخطاب الذي جاء بصيغة، يا أهل الكتاب لما سبق وأشرنا إليه من أن خطاب يا أهل الكتاب ينطوي على شيء من التسامح واللين، بخلاف الخطاب الخاص بكل من

(١) انظر: مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، م. س، ج١، ص١٥٩.

اليهود والنصارى، ويمكن ملاحظة هذا المعنى فيما جاء في قوله تعالى: ﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

فهذا الخطاب لليهود، أو للنصارى، كما سنبيّن لاحقاً، لا بدّ أن يختلف في معناه ومدلولاته عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾. إضافة إلى هذا الفرق، هناك فروق أخرى تتعلق بالتولّي والتبرّي، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ...﴾[٢] إلى غيرها من الآيات التي تميّز أو تجمع بين اليهود والنصارى، وغالباً ما نجد القرآن يُفرد للنصارى تمايزاً خاصاً في كثير من الآيات، وخصوصاً الذين آمنوا ولم يستكبروا على دعوة الحق، يقول العلاّمة الآملي: «**حيث يرد الكلام في القرآن عن الدين المشترك أو الكلام على إعلان اللين وأمثال ذلك يذكر اليهود والنصارى بصفة أهل الكتاب، لأن هذه الصفة لها جاذبية بسبب حبّ الإنسان للكتب السماوية، ولكن حين يكون الكلام على إعلان الاستياء والتبرّي، فإنهم يذكرون بصفة اليهود أو النصارى...**»[٣].

ولا شكّ في أن استعراض جملة من الآيات التي عرضت لأهل الكتاب من شأنه أن يكشف عن معنى اللين في خطاب يا أهل الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ...﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ...﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ...﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾[٧]،

---

(١) سورة الجمعة، الآيتان: ٦ ـ ٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٣) را: جوادي آملي، عبد الله، ولاية الفقيه، دار الهادي، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص٢٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٥.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧٠.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٧١.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ٩٩.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ...﴾[١]، فهذا جزء من آيات قرآنية تكشف عن معنى وروح الخطاب لهم الذي يختلف تماماً عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ ...﴾[٢]، وهنا نلاحظ كيف أنهم ذكروا بهذه الصفة، لأن الكلام بشأن التبرّي، وسبب هذا، كما يرى المفسرون، هو أن المحبّة هي جامعة للأمة والشعب، والذي يكنّ لهم محبة في قلبه تظهر لديه أرضية الميل لهم، لأن الحب والبغض يمنع من النظر والحكم الصحيح، حتى قيل: «**حبّ الشيء يُعمي ويُصم...**» وبسبب أثر المحبة في علاقات الشعوب والأمم قال الله تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ ...﴾[٣].

ويظهر مما تقدّم لمتدبّر، أن صفة أهل الكتاب تميّز الحوار القرآني عمّا خصّ به كل من اليهود والنصارى في هذا الخطاب على نحو يتبيّن فيه أن للحوار جدواه فيما لو كان مع أهل الكتاب، إذ لم يرد في القرآن إطلاقاً الخطاب بصيغة يا أيها اليهود تعالوا، أو يا أيها النصارى تعالوا، وإن كان المتسالَم عليه بين أهل التفسير أن أهل الكتاب في عرف القرآن هم اليهود والنصارى، إلاّ أننا لا نجد إفراداً للخطاب، بحيث يُفهم منه التسامح أو اللين معهم، وإذا كان لا بدّ من الإشارة القرآنية لذلك، فإنّ الخطاب والكلام يأتي بصيغة مختلفة تماماً، كما في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ...﴾[٤]، فهذا الكلام الإلهي ينطوي على تمايز هائل باعتبار مدلول الكلام. إذ إنّ هناك فرقاً كبيراً بين قوله تعالى: ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ﴾، و﴿أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ﴾، وهذا التمايز إنّما يمكن استيعابه وفهمه في

(١) سورة المائدة، الآية: ١٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

سياق القبول للدعوة الإسلامية من قبل الكثير من أهل الكتاب، فجاء هذا التميز ليُعطي النصّ بعده الحقيقي بأن النصارى هم أكثر مودّة للمسلمين وأسمع لدعوتهم الحقة[١]. فلا يُقال بأن الخطاب القرآني قد أقرّ اليهود والنصارى على ما هم عليه من اعتقاد خارج ما جاء به الإسلام، بل الحق أن يُقال بأنّ الكثيرين من النصارى قد آمنوا بالإسلام وبالرسول محمد ﷺ من موقع إيمانهم بالمسيح عليه السلام، وبكل الأنبياء، اعتقاداً منهم بأن نبوّة الرسول ﷺ هي الخاتمة. أما إذا لم يحصل هذا الأمر واستمر أهل الكتاب على دينهم وإيمانهم بأن الله كلّم الناس بالأنبياء، وبأن آخر الأنبياء كان عيسى عليه السلام، فهذا مما أرشدهم القرآن إلى خلافه، داعياً إيّاهم إلى الإسلام من دون إكراه، وقد تجلّت دعوته بالنداء إلى الكلمة السواء، الكلمة العادلة، وقد استحقوا أن يكونوا موضوعاً لهذا الخطاب من موقع اعتقادهم وإيمانهم، فلا ينبغي أن يدّعي أحد من الناس أن النظرية الموجودة اليوم ليست هي المخاطبة بالنداء، ولا هي المقصودة بالحوار، لأن في هذا الادعاء ما يُسيء إلى أصحابه، لأنهم يتجاهلون تماماً أن القرآن قد عايش وتعايش مع أهل الكتاب، وتعرّض لمجادلات عنيفة من اليهود والنصارى من دون وجه حق، ولكن رأي القرآن أبقى على روحية الحوار، ودعا إلى المجادلة بالتي هي أحسن، على قاعدة قوله

(١) يقول العلاّمة الطباطبائي(ره): «لقد تمّ الكلام في أن النصارى هم أكثر الأمم مودة للمسلمين وأسمع لدعوتهم... وإنّما عدّهم الله سبحانه أقرب مودّة للمسلمين لما وقع من إيمان طائفة منهم بالنبي ﷺ، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، لكن لو كان إيمان طائفة يرجع هذه النسبة إلى جميعهم كان من الواجب أن تعدّ اليهود والمشركين كمثل النصارى... لمكان أن ينسب إسلام طائفة من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه، وإسلام عدة من مشركي العرب وهم عامة المسلمين اليوم، فتخصيص النصارى بمثل قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ...﴾، دون اليهود والمشركين يدلّ على حسن إقبالهم على الدعوة الإسلامية، وإجابة النبي ﷺ مع أنهم على خيار بين أن يقيموا على دينهم ويؤدّوا الجزية، وبين أن يقبلوا الإسلام،، أو يحاربوا، وهذا بخلاف المشركين، فإنّهم لم يكن يقبل منهم إلاّ قبول الدعوة، فكثرة المؤمنين منهم لا يدلّ على حسن الإجابة، على ما كابد النبي ﷺ من جفوتهم ولاقاه المسلمون على أيديهم من قسوة وغلظة... كما أن من جملة العلل التي بيّنها الله سبحانه قرب النصارى من قبول الدعوة الحقّة بأنّ فيهم قسّيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون... أما اليهود، فقد استكبروا، ومثلهم المشركون..

را: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، م. س، ج٧، ص٨٠ـ ٨١، ولا شكّ في أن كلام الطباطبائي في تفسير مودّة النصارى يحتاج إلى مزيد تأمّل وتدبّر...

تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[١].

إنّ مسحة اللين، وصبغة التسامح في الخطاب القرآني مع أهل الكتاب، تكشف عمّا جاء به الإسلام من رؤية لطبيعة العلاقات الإنسانية وما ينبغي أن تكون عليه هذه العلاقات من إيجابية وتسامح ومحبة، خلافاً لمن يزعم أن القرآن يدعو إلى الصدام! فإذا كان القرآن قد نهى عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، فذلك إنما جاء في سياق الاعتبار لما هم عليه من اختلاف في الرؤية والمنهج، فضلاً عن الدين والعقيدة وغير ذلك مما هم عليه من ولاء لبعضهم البعض، وهذا الولاء هو الذي يدفع بهم إلى أن يكونوا على عصبيات وقوميات مانعة من التواصل والتعارف، وهادفة إلى استثمار الدين والإيمان في مصالح الدنيا ومكاسبها، بخلاف ما جاء به الأنبياء، ودعوا إليه من تواصل وتعارف.

لقد أوضح القرآن، كما بيّنا سابقاً، أن الأصل في العلاقات الإنسانية هو الحوار والتعارف والتعايش باعتبار أن الإنسان أخو الإنسان، كما قال الإمام علي عليه السلام: «**الناس صنفان، إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق**»[٢]، هذا كلام مستنطق من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ...﴾[٣]، ومن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[٤].

ولا شك في أن الهدف من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، هو تعزيز روحية التعارف، وحماية كرامة الإنسان، وتحصين مساره الإنساني بما يؤهله لأن يكون إنساناً متواصلاً في الزمان والتاريخ ومتمماًلحركته في الحياة، ومنجزاً لدوره ووظيفته التي خُلق لأجلها، وهذا هو جوهر ما يلحظه الخطاب القرآني مع أهل الكتاب، وغيرهم، حيث بيّن القرآن بالكثير من آياته أن الاختلاف والتعدد والتنوّع

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٢) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الكتاب: ٣٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

ليس مانعاً من التواصل، ولا حائلاً دون التعارف، وإنّما هو الهادف إلى ذلك والمنظم له شرط أن يكون الإنسان قائماً به على حقه، ومرتكزاً فيه على أصله، ومنطلقاً فيه على هداه. وهذا ما تتابع عليه الرسل والأنبياء، فكانوا جميعاً يبلّغون عن الله تعالى، ويدعون إلى سلوك طريق الحق والهدى كما جاء به الأنبياء، فكانوا جميعاً يبلّغون عن الله تعالى، ويدعون إلى سلوك طريق الحق والهدى كما جاء به الأنبياء، وليس على قاعدة الهوى، باعتبار أن هدى الله هو الهدى، وليس بعد الحق إلا الضلال. وعليه، فإن مَن كان منطقه لا يدخل الجنة إلاّ مَن كان هوداً أو نصارى، أو كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا... لا يمكن أن يكون مؤتمناً على إدارة عملية الحوار بين البشر، ولا على استيعاب حركة النبوة في التاريخ والزمان، وهذا هو لسان حال كل الفرق والمذاهب قديماً وحديثاً، حيث أن كل فرقة أو مذهب يدّعي أن الحق معه دون سواه، وأن الجنّة رهينة عقيدته ودعوته، وإذا كان القرآن قد سمّى اليهود والنصارى فيما زعموه من عصبية في دعوتهم، فإنّ ذلك لا يستفاد منه حصرية المعنى، وإنما هو يشمل كل عصبية في تاريخ الإنسان، وكل حمية جاهلية في تاريخ الأديان، ولهذا، فإنّ القرآن في آياته يمنع من ذلك، ويدعو إلى الكلمة السواء، بحيث يتواصل الإنسان بأخيه الإنسان ويتحقق الكمال، فلا يكون الدين سبباً للفرقة، وإنّما سبباً للتوحّد في إطار وعي كامل وشامل للهدف الذي خلق من أجله الإنسان.

وكيف كان، فإنّ معنى الحوار مع أهل الكتاب، أن يؤخذ بالأيدي إلى المساحات المشتركة بين أهل الإيمان ليكونوا على بيّنة من أمورهم في الدين والدنيا، بحيث يتعرفوا إلى أهم الأصول والثوابت والمرتكزات التي لا بدّ من التعرّف إليها من القرآن والاهتداء بها في طريق الحياة، ولعل أهم أصل يمكن التوقّف عنده هو ما بيّنه القرآن عن كرامة الإنسان وأخوّة الإنسان، وهو أصل ثابت في التكوين والتشريع، ولا بدّ من الارتكاز إليه في صياغة أطروحات الحياة، سواء الدينية أم الإنسانية، وهذا هو جوهر ما جاءت به الأنبياء، أن يهتدي الإنسان إلى ما يعطيه كامل أبعاده في الحياة، وإنّ

أي دين لم يأتِ إلاّ ليرشّد تحولات الإنسان باتجاه أهدافه السامية دونما اعتبار للونه وشكله واختلاف رؤيته، ذلك أن الله تعالى لم يهتم في أصل خلقة الإنسان بالأسماء والأشكال، وإنما بالعقيدة الصحيحة التي يصدر عنها في سلوكه، فالإنسان بمعزل عمّا يتخذه لنفسه من انتماء، أو أسماء، هو عبدٌ لله تعالى وله كرامته وإنسانيته، وقد خلقه في أحسن تقويم ليكون هادفاً وساعياً في طريق تحقيق الكمال، لا بهدف أن يتسافل في الدرك الأسفل، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾[1].

فالإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره[2]، فإذا ما تواصلت الشعوب والأمم، وتصادقت في ضوء هذه الحقيقة التي ميّز الله تعالى بها الناس، فإنّ ذلك من شأنه أن يحفظ للإنسان كرامته وحريته، فالإنسان فيما فطر عليه من مبادئ وقوانين وعقل، وفيما بلّغ من تشريع وأحكام قادر على القيام بهذا الأمر لتحقيق التكامل من خلال حوار إنساني يرتكز إلى أصول الإيمان الكبرى. وإذا فرض أن الناس لم يتعارفوا وتصارعوا، فذلك لا يكون منهم آتياً بوحي من التأسيسات والثوابت القرآنية التي يلتقي عليها أهل الإيمان، وإنما هو يأتي في سياق اختيارات البشر في هذا السبيل، كما رأينا فيما سبق أن الصدام الحضاري، أو الديني، إنّما هو ناشئ عن كون الناس لا يعقلون عن الله، ولا يرجعون إليه فيما اختاره لهم من شرائع ومناهج، ولايصدرون عن كلمة سواء، عادلة، وكانت النتيجة الصراع والصدام والخروج عن الأصول الحاكمة، سواء في فطرة الإنسان التي فطر عليها، أو فيما تؤول إليه طرق تعاملهم مع النصوص والشرائع التي يفترض بأهل الإيمان أن يقوموا بها أحسن قيام كما أمر الله تعالى. وإذا كان قد حصل الإخفاق في تاريخ اليهود والنصارى، فيما

(١) سورة التين، الآيات: ٤ ـ ٦.

(٢) يقول العلاّمة آملي: «إن هذا الحديث حق إذا لم يكن له سند فهو كلام صحيح، لأن الناس ما داموا لا يؤذون ولايقتلون ولا يشرّد بعضهم بعضاً يعتبرون أخوة».

را:، آملي، عبد الله، ولاية الفقيه، م. س، ص٢٦٥.

زعمه كل طرف لنفسه، وفيما ادّعاه كل طرف من حق دون غيره، وفيما تصارموا به على مستوى المناهج والمناسك والأهداف، فهو إنّما حصل لكونهم قد هجروا رسالات السماء، ولم يقوموا بالتوراة والإنجيل حق قيام، فآل أمرهم إلى أن يكونوا على تناقض في العقائد والأهداف، وهذا ما تجلّى بقول اليهود ليست النصارى على شيء، وقول النصارى ليس اليهود على شيء. وهذه الدعاوى هي منشأ كل صراع وصدام بين البشر أن يدّعي كل طرف لنفسه كل الحق في مقابل الآخرين، وهنا السؤال: هل يُعقل أن يكون اليهود والنصارى، وهم أهل إيمان وينتمون إلى الإيمان الإبراهيمي الكبير، هم مَن يدعون إلى الصدام وإقفال باب الحوار بين أهل الإيمان أنفسهم؟ وماذا يُنتظر من الآخرين الذين لا ينتمون إلى دين، فهل يصدر عنهم ما يُفيد التنكّر للآخرين، كما قالت اليهود والنصارى؟

إنّ الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها، يمكن استفادتها من القرآن الكريم، حيث نرى أن اليهود والنصارى في منطقهم الحواري يُوصدون الأبواب على سائر البشر، ويمنعون من التلاقي والحوار حتى في المجال الديني، ناهيك عمّا يلجؤون إليه من أساليب متناقضة لتسويغ منطق العزلة، فنراهم مثلاً يدّعون أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، رغم أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً، كما بيّن القرآن، متهماً إياهم بالمحاججة بغير علم، وهذا يكشف عمّا كان عليه هؤلاء من حوار زائف ومضلل يرومون من خلاله تشويه الخطاب الديني واستخدامه في ممارسة القهر والطغيان على الناس ليكونوا هوداً أو نصارى. وهنا تكمن الغرابة أن يتحوّل الدين إلى مصدر تضليل وتفريق بدل أن يكون سبباً لجمع الكلمة وتوحيد الناس، والحق يُقال: إنه لم يسبق لأحد ممن لا ينتمون إلى دين، أو رسالة سماوية أن اعتمد هذا الأسلوب الحواري، الذي لا يستند إلى المنطق في تسويغ المصالح على أساس ديني، حتى المشركين، فإنّنا نجد منهم المعارضة الصريحة لمنطق الإيمان، ويعارضون الرسل والأنبياء، ويدّعون ما لم ينزل الله به سلطاناً، ولكنهم مع ذلك لا يمارسون أساليب

الخداع بالطريقة التي مارسها الكثير ممن زعموا أنهم ينتمون إلى الأنبياء!؟

لقد قدم القرآن رؤية واضحة عمّا كان عليه اليهود والنصارى في عصر الرسول ﷺ، وخاصة حول اليهود وما كانوا عليه من مكر وخداع وادعاءات دينية مزيّفة، فكانوا، كما بيّن القرآن، أشدّ عداوة للذين آمنوا، حيث تلبّسوا بالمشركين في مكة وغيرها لمواجهة الإسلام في وقت كان يُفترض فيهم أن يكونوا إلى جانب الرسول ﷺ فيما دعا إليه من دين وإيمان، ولكنهم اختاروا التآمر على التعاون، وساعدوا المشركين بالمال والسلاح، كما فعل بني قينقاع بعد معركة بدر، ويهود بني النظير بعد معركة أُحد، ويهود بنو قريضة بعد معركة الأحزاب[1]، ما يدلّل على أن اليهود كانوا أشدّ عداوة ليس فقط لأهل الإيمان، بل للإنسانية، مرتكزين في ذلك إلى عصبيتهم وعرقيتهم. ولهذا، فإنه لم يصدر منهم أي حوار صادق مع الأنبياء فضلاً عن أنفسهم. ولا شكّ في أن الغرابة لا تنقضي فيما لو علمنا أن تاريخ الصدام بين البشر، هو ذو منشأ ديني ساهم فيه اليهود إلى حدّ كبير، وكل مَن ذهب إلى القول بالصراع الحضاري بين البشر، هو يرتكز في ذلك إلى تسويغات دينية سبق لليهود أن قدّموها في تسويغ صراعاتهم الدينية والعصبية والعرقية مع الشعوب الأخرى، فهم لم يكونوا إطلاقاً على وضوح في الرؤية الإيمانية لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان الرسالي. فخرجوا من كونهم أهل حوار، ليكونوا سبباً في الصدام بين البشر، ولهذا نجد القرآن الكريم يصفهم بالظالمين حيثما ذكروا، وكيفما ذكروا، كما قال الله تعالى في آخر الآيات التي عرض فيها لأقوال وأحوال اليهود: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وهذا ما لم نلحظه في الخطاب مع أهل الكتاب، ولا مع النصارى، بل خصّ به اليهود لكونهم مردوا على الظلم ولم يُعهد منهم في تاريخهم الديني أن أنصفوا الناس من أنفسهم حتى أولئك الذين

(١) انظر: سبحاني، جعفر، سيرة سيّد المرسلين، م. س، ج١، ص٤٧٦.

ينتمون إليهم في القومية، ونعني بهم النصارى، الذين مارسوا معهم أبشع أنواع الظلم، وغير خفيّ على أحد ما كان منهم من أفعال مشينة بحق الأنبياء، وخاصة النبي عيسى عليه السلام وأمّه الصدّيقة مريم عليها السلام.

وهكذا، فإنّ القرآن في خطابه المتكرر إلى بني إسرائيل، ومن ثمّ إلى اليهود، والنصارى، ومن ثمّ إلى أهل الكتاب، وخاصة فيما يعرض له من آيات في كيفية تعامل المسلمين مع أهل الكتاب، أو مع اليهود والنصارى، نلاحظ أنّ هذا الخطاب يوجّه الإنسانية إلى الحوار من خلال استيحاء الفعل التاريخي للبشر وما انتهوا إليه من تجارب، وهذا التوجيه يرتكز إلى ثوابت أساسية أراد الله تعالى لها أن تكون حاكمة ومُعاشة لدى مَن يعيش مع هذا الخطاب الإلهي، ويمتثل له في ما جاء به من أوامر ونواهٍ وحوارات مع أهل الأديان، ومن هذه الثوابت أن يعلم أهل الإيمان أن مَن يوصف بالظلم دائماً ليس كمثل مَن يخاطبه الله بالحسنى، ويدعوه إلى كلمة سواء، وهذا ما يمكن استفادته من خطاب القرآن مع أهل الكتاب، حيث قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1]، فلم يأتِ القرآن على الظلم في خطاب يا أهل الكتاب، في حين أن اليهود ما ذكروا في آية إلاّ وكان آخرها: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وهذا يتطلّب من أهل الإيمان، ومن كل مَن ينتمي إلى الدين الحنيف أن يكون مستوعباً لخطاب القرآن مع البشر باعتباره خطاباً عالمياً، ويُعطي كل إنسان حقه فيما كان له من تاريخ وإيمان في ضوء حركته التاريخية، ومن خلال تفاعل الأحداث وصيرورة التحولات الإنسانية التي انتهت إلى أن يكون الإسلام ـ القرآن ـ هو الكلمة النهائية في تاريخ البشرية. لذا، فإن الارتكاز إلى هذا الخطاب من شأنه أن يمنح الإنسان فرصة وإمكانية أن يهتدي إلى ما يؤسس له القرآن من تعارف وتعايش في ضوء المبادئ التشريعية العامة التي

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

جاء بها القرآن، وهي التي سمّيناها بالثوابت، إذ إنّه من شأن الاهتداء بهذه المبادئ الثوابت أن يهتدي الإنسان إلى إيجاد مسوّغات إقامة علاقات مسالمة تكون قاعدة للتواصل... بعيداً عن مخزونات التاريخ والأحداث والتجارب التي ما عرض لها القرآن إلاّ لتكون نوراً يضيء الطريق لعلاقات سليمة، لا بهدف أن تشكل عوائق في طريق الحوار بين البشر، فإذا كان القرآن قد أظهر التمايز بين اليهود والنصارى من جهة، وبين أهل الكتاب من جهة ثانية، فذلك ليس من أجل وضع الحدود والسدود، ولا من أجل إيجاد مناطق معزولة في الدائرة الإنسانية الكبرى، وإنّما من أجل التبصّر في مجالات التحولات الإنسانية، وبكل ما اعترض هذه التحولات من عوائق دينية كان لليهود الدور الأكبر في ابتداعها للحيلولة دون أن يكون للإنسان تواصله الديني والإنساني والحضاري.

إنّ اليهود كانوا أكثر ظلماً وأشدّ عداوة بما أقدموا عليه من ممارسات اتجاه أهل الإيمان، وهذا ما عرض له القرآن تبياناً لحقيقة أمرهم، وتحذيراً منهم ليكون المجتمع الإنساني بمأمن من غوائلهم ومكائدهم، وقد حصل أن جاء الإسلام وانتصر عليهم ليؤكد أن الظلم سواء أكان مصدره أهل الإيمان، أم غيرهم من بني البشر، لا بدّ أن تكون له نهاية وخيبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[1].

إنّ ثوابت الحوار القرآني تدلّل على أن الإنسان المسلم يمكنه أن يتّعظ بالتجارب، وأن يترصّد الأحداث، وأن يتبصّر بالنفوس، ليهتدي إلى ما ينبغي أن يتحوّل إليه في مسيره الإيماني، وإذا كان من هذه الثوابت المبادئ أن يكرّم الإنسان، وأن يتعارف ويتواصل مع الإنسانية، وأن يستمرّ في حمل الأمانة، فهذا مما تقتضيه عالمية الرسالة الإسلامية، التي أقرّت بحرية الاعتقاد واحترام الخصوصيات للبشر بحيث يكون لكل جماعة ما تبتغيه من تحوّل إنساني وإيماني على قاعدة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، وهي قاعدة تمنح المجتمعات الإنسانية حرية التحوّل الإنساني وفاقاً لما

(١) سورة طه، الآية: ١١١.

يعتقده الإنسان من دين ورؤية وهدف، وهذا كله يبقى مشروطاً بأن لا يكون الظلم والتظالم سبيلاً إلى الحوار، أو إلى التحقق في الوجود على النحو الذي يؤدّي إلى أن يكون الناس متغالبين مقهورين في علاقاتهم الدينية وتحوّلاتهم الإنسانية.

إنّ القرآن يؤسس لهذا المعنى، ويدعو إلى الحوار لا مع أهل الكتاب وحسب، وإنّما مع الإنسان كل إنسان بمعزل عن لونه وعرقه وجنسه، لما تقدم ذكره من أن الإنسان أخو الإنسان، وللجميع حق الكرامة الإنسانية، وحق التعارف والتواصل في ضوء الرؤى الإيمانية والثوابت والمبادئ العامة التي أسس لها القرآن في ضوء قوانين الخلق والوجود والتنوع البشري...

وتأسيساً على ما تقدّم، نرى أنه لا يمكن أن يتعايش البشر إلاّ في إطار الرؤية الدينية الجامعة، والأصول الإيمانية الكبرى التي جعلت من الحوار أساساً ومرتكزاً لكل تحوّل إيجابي في حياة الإنسان، فأهل الأديان جميعاً، ورغم ما تمايزوا به في إطار التجربة التاريخية، وفي ظلّ ما هم عليه من تمايز في الرؤية الدينية، فهم جميعاً يمتدون في الزمان والمكان والتاريخ ليكون لهم الخلاص والنجاة، وليس عليهم سوى أن يعتبروا بالماضي، وأن يستخلصوا العبر من تجاربهم، حتى تكون لهم الهداية في طريق تواصلهم الإنساني.

وإذا كان للحوار القرآني أن يسلّط الضوء على مفردات الخطاب لبني إسرائيل أو لأهل الكتاب، أو لليهود والنصارى، أو للذين آمنوا، فذلك كله يأتي به القرآن، متنوعاً ومختلفاً ليكشف لأهل الإيمان أن الذي تكون له الحياة، وتكون به الحياة هو ما أسس له الأنبياء ودعوا إلى امتثاله، وما على المسلم الذي توجّه إليه الخطاب إلاّ أن يكون في دائرة هذا الامتثال، بعد أن يكون قد استوفى كامل شروط الوعي والتحقق في التجربة التاريخية، بحيث يعلم أن مقتضى الكرامة والحرية، كما جاء بها القرآن، أن لا يكون المسلم في تجربته مشابهاً لما كان عليه أسلافه من عصبية وعرقية وأهواء تمنعه من التواصل مع أهل الإيمان، أو تدفع به إلى الرؤية المغلقة

التي تؤول به إلى الصدام والتصارع مع الآخرين.

إنّ الإنسان المسلم مدعوّ للحوار في إطار الرؤية الدينية والمبادئ التشريعية العامة التي هي أساس كل حوار، ومن هذه المبادئ احترام الخصوصيات الثقافية للشعوب، والدعوة بالحسنى إلى سبيل الله، بعيداً عن التعصّب والإكراه، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

(١) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨ ـ ٩.

خلاصة واستنتاج

لا شكّ في أن وجوه الحوار في القرآن جاءت مختلفة ومتعددة، وقد بينّا في ما سبق من بحوث أن الخطاب الإلهي مع أهل الكتاب ليس واحداً، كما أنه رغم كل ما جاء به من نقد، وعبّر عنه من استياء في الحوار مع بني إسرائيل، أو مع أهل الكتاب، أو مع اليهود والنصارى، أو مع المسلمين، نراه يقدّم رؤية واضحة للحوار على قاعدة الإنسانية وأصول الإيمان الكبرى، وهذا ما يمكن ملاحظته واستيعابه من المبادئ التشريعية العامة، أو ما أسميناه بالثوابت القرآنية التي لا بدّ من الانطلاق منها في تأسيس قواعد الحوار الإنساني للبناء عليها في صيرورة التحوّل التاريخي، الذي كان ولا يزال له التأثير الكبير على مجريات الأمور في حياة البشر، وإذا كان القرآن قد لحظ هذا الجانب التاريخي فيما قصّهُ عن تاريخ الصراعات بين الأنبياء وأقوامهم، فإنّ ذلك، كما رأينا، لم يكن بهدف استحضار التاريخ لمجرّد التذكير، وإنّما هو يهدف إلى الاعتبار والاستفادة من تجارب الأمم والشعوب، لأنّ السنن التاريخية، كالسنن الكونية، لا يمكن تجاوزها وعدم الاكتراث لها، كونها سنناً حاكمة، كما قال الله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

إنّ ما يعرض له القرآن من حوارات مع الإنسان، يُظهر مدى الاعتبار القرآني للحوار في أجواء التواصل الإنساني، وهذا ما يمكن استنطاقه من الآيات القرآنية المباركة، بدءاً من حمل الأمانة وما تقتضيه من حرية ومسؤولية، مروراً بما تقتضيه حقيقة الاستخلاف في الأرض، وانتهاءً لما يؤول إليه الإنسان من مصير في صيرورة

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

(٢) سورة يونس، الآيتان: ١٠٢ ـ ١٠٣.

تحوّله نحو خالقه ليكون له الفوز العظيم أو الخسران المبين. فالإنسان في خطّ تواصله على هذه الأرض لم يخلق عبثاً ولم يترك سدًى، وإنّما هو مخلوق مكرّم، وله قيمة وإرادة أن يستجيب لنداء الحوار، تماماً كما كان له إرادة وحرية أن يشهد بقوله «بلى» حينما أشهده الله تعالى بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ...﴾[١]، ومن هنا نرى الأيام التي خلت وعبرها الإنسان ليس من الضروري أبداً أن تكون من الماضي، أو أن تصبح ماضياً، لأن المبادئ والثوابت كما جاءت بها الأديان، هي التي ترسم مسارات الأحداث، وتحدّد ملامح التحولات الإنسانية، سواء في الماضي، أم في الحاضر، أم في المستقبل.

وهذا ما قدّمه القرآن فيما عرض له من رؤى وتحوّلات في التاريخ الديني للبشر، فهو يؤكّد على ضرورة التواصل مع التاريخ والأحداث والتجارب للاعتبار بها في خطّ التواصل الإنساني، بحيث يكون للإنسان معناه في الزمن والتاريخ، فلا يخرج عن كونه هو الذي استخلف في الأرض للعمل وفاقاً لإرادة الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٢].

لقد بيّنّا في بحوثنا السابقة أن من أهداف خلق الإنسان، من ذكر وأنثى، أن يتواصل ويتعارف، وقد هداه الله النجدين إما شاكراً وإمّا كفوراً»، هذا فضلاً عمّا خصّ به الإنسان من نعم إلهية ظاهرة وباطنة للقيام بالدور المناط به في ضوء ما آتاه من لدن الله تعالى من هدى لكي لا يضلّ ولا يشقى، وهو من حيث هو إنسان وخليفة لله في الأرض، لا يسعه إلاّ أن يكدح في طريق الحق لتحقيق التكامل الإنساني، فلا تكون النعوت والأوصاف والتميزات الزمانية والمكانية والدينية قيداً له عن أن يتواصل مع بني نوعه بعيداً عن أسر الأعراق والعصبيات والأجناس، لأنّ الله تعالى لم يميز بين البشر على أساس ذلك، وإنّما خلقوا للعبادة، وخصّوا بالإنسانية،

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٩.

وكما قلنا: إنّ الإنسان قادر فيما فطر عليه وأُهِّلَ له على تحقيق تمايزه في الدائرة الإنسانية الكبرى من خلال التعارف والتواصل في ضوء ما جاء به الأنبياء والرسل من تعاليم وأحكام وقوانين لهدايته وإخراجه من الظلمات إلى النور بما يرشدونه إليه ويعلّمونه إيّاه في طريق أمانته وشهادته...

والحق يقال: إنه ليس من فراغ، ولا من عدم، أن يأتي الخطاب الإلهي للإنسان بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[1]، فهو خطاب ناظر إلى أن البشر لا بدّ أن يكونوا على مستوى هذا الهدف الإلهي، فينطلقوا في طريق الإيمان لتحقيق هذا الهدف، كما أن الخطاب كاشف عن أن معنى الكرامة والتفاضل إنما يكون بالتقوى التي هي ميزان التفاضل بين البشر، وما كان للبشر من دراية بهذه التقوى لولا أن الأنبياء قد دلّوا عليها وأرشدوا إليها من خلال ما جاؤوا به من أوامر ونواهٍ وأحكام وقوانين إلهية يهتدي الإنسان من خلالها إلى سبل نجاته في الدين والدنيا.

إن الناس لم يخلقوا لأجل أن يتصارعوا في الدين والدنيا، وإنّما ليتسابقوا بالخيرات، ويتعارفوا بالحق ويشقّوا أمواج الفتن بسنن النجاة كما أمرهم الله تعالى، فلا يكونوا أهل صراع وتنافس في الباطل، بل أهل حوار وتعارف. أما إذا لم يكن منهم ذلك، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق في بناء علاقاتهم الدينية والإنسانية، فإنهم لا يلبثون أن يسقطوا في الصراع والصدام، لأنه النتيجة الحتمية والطبيعية لتخلّف البشر عن أمر الله تعالى، وعن الاحتكام للسنن التاريخية الحاكمة، والتي سبق لها أن عملت بالاقوام السابقين حينما تخلّفوا عن إعمال القوانين والمبادئ الإلهية والشروط الموضوعية. فإذا ما حصل هذا فإنّ النتيجة، كما قلنا، ستكون الصدام والصراع والتنازع الذي يفضي

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

في النتيجة إلى التخلف عن المهام الإنسانية الكبرى، التي أوكلها الله للإنسان للقيام بها، وهذا ما سبق لنا أن تحدّثنا عنه فيما عرض له القرآن من معنى الدفع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ ...﴾[1] حيث بيّن تعالى أن الدفع ليس صداماً بقدر ما هو سنّة فطرية من شأنها أن تصحح مسار التعارف الإنساني، وتمنع من خروج الإنسان عن ما تقتضيه سنن الخلق والوجود، فضلاً عن سنن التاريخ.

من هنا، فإنّ نظرية الدفع لجهة ما تعنيه من تشريع للجهاد كخيار نهائي للحفاظ على شعائر الدين والإيمان بما ترمز إليه من حياة في تاريخ البشر، إنّما هي وسيلة من وسائل الحفاظ على المجتمع الإنساني، لكي لا تطاله يد الطغيان والفوضى والتنازع بالشكل الذي يؤدّي بالإنسان إلى أن يكون مستغرقاً في صراعاته، وهي نظرية ليست خياراً بقدر ما هي ضرورة تحتّمها ظروف المجتمع وتحوّلاته الفطرية التي تنشأ عن مخالفة القوانين والمبادئ الإلهية. ولهذا، فإنه يمكن القول بأن الصراع والصدام، إنما يكون من جهة الناس، وليس من جهة ما جاء به الأنبياء، كما أنها ليست من مقتضيات سنن الخلق والوجود على النحو الذي يفهم منه أنها سنّة تحتمها حقائق التعدد والتنوع في الخلق والتكوين. إنها خيار نهائي في تحوّلات الصراعات البشرية المتناقضة، والتي تدفع بأهل الإيمان إلى أن يكونوا على مستوى حمل الأمانة، والقيام بشؤون الخلافة، ويبقى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، هو الذي يحدّد مسار التعارف بين البشر، بحيث لا يتحول التعارف إلى صراع وصدام، بل يبقى في إطار الهدف الاسمى الذي خلق الإنسان لأجله، وجاءت الأنبياء والرسالات للهداية إليه، والتعبير عنه فيما يؤدونه من مهام رسالية في كل زمان ومكان. ذلك أن التقوى المشار إليها في قوله تعالى، لا تعني إطلاقاً ما يأتي به الإنسان من أعمال عبادية في حياته الخاصة، بل هي تقوى من نوع آخر، يقول شمس

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

الدين: «**إن الهدف الأعمق من تنوع الجنس البشري هو التعارف، ومعيار التفاضل في هذا المجال هو التقوى العملية في السلوك مع الآخر، والوفاء بالالتزامات التي يفرضها نظام العلاقات الإنسانية في الاجتماع الانساني داخل المجتمع الوطني، وعلى المستوى الدولي. فالتقوى لا تعني ممارسة المسلم لعباداته ومعاملاته، بل تقوى الإنسان المسلم وغير المسلم في ممارسة علاقاته مع الناس وفق مبدأ العدالة والإنصاف القائم على الاعتراف للأمة بحقوقه...**»[١].

إنّ معنى التقوى، بما هي أداء سليم للعلاقات، إنما تعني ملاحظة الأخوة الإنسانية، التي يفترض مراعاتها في طريقة التواصل والتعاون، سواء مع المسلمين، أم مع غيرهم ممن لا ينتمون إلى الإسلام، ومن هنا، نرى أن الخطاب الإلهي إلى بني إسرائيل، أو إلى أهل الكتاب، أو إلى اليهود والنصارى، يقوم على هذه الثابتة الإنسانية والأساسية التي نصّ عليها القرآن في مبادئه وتشريعاته العامة...

نهاية القول: إنّ أهل الكتاب كما بيّن القرآن تقع عليهم مسؤولية التحول الديني والإنساني في خطّ التواصل الرسالي، فإذا لم يستجيبوا لنداء الله تعالى فيما أمرهم به ونهاهم عنه ودعاهم إليه في طريق تواصلهم وتعارفهم على مستوى الإيمان، فضلاً عن الحياة العامة، واستمروا بالدعوة تحت عناوين دينية وقبائلية وعصبية، تماماً كما جرى مع اليهود حينما لم يمتثلوا لأمر الله تعالى، سواء في عصر نبيهم موسى عليه السلام أم في عصر رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، حيث أدّى بهم ما كانوا عليه من عناد وفساد وعبثية دينية إلى التنافر والصدام مع النصارى والمسلمين معاً، بل مع المجتمع الإنساني كله، وحيث وطأت أقدامهم، وحطّت رحالهم! فلم يأمن أحد من شرورهم، هذا فضلاً عمّا أسّسوا له من صراعات دينية في التاريخ. وإذا كان التصادم والصراع هو سمة المرحلة التي عايش فيها الإسلام اليهود في الجزيرة العربية، فذلك إنما يمكن فهمه ولحاظه في ضوء ما تمتّ مخالفته من

(١) انظر: شمس الدين، محمد مهدي، الإسلام والغرب، مؤسسة الإمام شمس الدين، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص١٠٠ ـ ١٠١.

قواعد وثوابت ومبادئ تشريعية، وقد أدّت هذه المخالفة إلى تحويل الصراع عن كونه صراعاً تدافعياً ليكون صراعاً دينياً، وصداماً وجودياً حتّم على دولة الإسلام الأولى أن تُخرج اليهود من المدينة بما كسبت أيديهم، كما قال الله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[1].

كما يمكن القول أيضاً: إنّ تاريخ الأديان حافل بالصراعات الدينية بسبب النزاعات والعصبيات التي كانت تحول دون التقوى في العمل، سواء في المجال العبادي، أم في المجال السياسي، ولا زال الإنسان الرسالي يعاني حتى يومنا هذا من شرور ومعاصي اليهود، وهذا ما لا غرابة فيه لكون اليهود بما كانوا عليه من أهواء وعناد وفساد وتحريف للدين امتدوا في تاريخ الإنسانية، فكان لهم فعلهم في تاريخ الإسلام، كما كان لهم فعلهم في تاريخ المسيحية، وها هم اليوم يمتدون بأوصافهم، ويفسدون في الأرض، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل!

وكما قلنا سابقاً، إنّ السنن التاريخية لا بدّ أن تعمل فيهم في الحاضر والمستقبل كما عملت فيهم في الماضي، إذ إنهم لم يعتبروا بالتجربة، ولم يتواصلوا ويتعارفوا على أساس التقوى، بل اختاروا الصدام والقتال، وهذا ما لا يمكن أن يكون دليلاً على ما يدَّعيه البعض من أن الأديان تُقرّ الصدام الحضاري بين البشر، بل هو دليل على أن الناس، وخاصة مَن أساء للأديان، هم الذين اختاروا الصدام، تماماً كما اختاروا أن يكونوا عصاةً لله تعالى فيما أمرهم به ونهاهم عنه. وبالتالي، فإنّ الخيار لا بدّ أن يؤدّي إلى الخسارة الدنيوية والأخروية، كما أن نجاح أهل الكتاب فيما يزعمونه من صراع ديني وحضاري، لا يمكن اعتباره دليلاً على صحة ما يذهبون إليه في دينهم، وإنّما هو نجاح مؤقّت لا تبرّره الشرائع، ولا تدعو إليه الأديان، لأنه يقوم على القهر، والإكراه في الدين، خلافاً لما أمر الله به ونهي عنه، وهذا مثلما

(١) سورة البقرة، الآية٩٥.

أنه ينطبق على أهل الكتاب، فإنه ينطبق على غيرهم، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، وقد حصل في التاريخ أن مارس المسلمون القهر تحت عناوين دينية وحضارية، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، وكانت الخسارة محققة للمسلمين، لأنهم أساؤوا الفهم للنظرية الإسلامية فيما لجأوا إليه من تطبيقات عملية اعتقدوا أنها تحمل خصائص النظرية، ولكنها في الحقيقة كانت تحمل خصائص ومميزات أهل السلطة والسلطان.

إذن، القرآن يُقدم رؤيته الحضارية والثقافية، وقبل ذلك الدينية في سياق رؤية متكاملة لحقيقة ما عليه الناس من فروق وتفاوت في القدرات والكفايات، وقد دعا إلى الحوار والمجادلة بالحسنى، وإدارة الخلافات وفاقاً للأخوة الإنسانية، فيما لو انعدمت الرؤية الدينية، بحيث يؤدّي الأمر إلى تنافس بنّاء في المصالح والأهداف، فإذا ما تخلّف الناس عن ذلك، فإنهم يكونون قد خالفوا أمر الله وادّعوا زوراً وبهتاناً انتماءهم إلى الأديان. ولا شك في أن القرآن يقدّم للناس هذه الرؤية ليكونوا على بيّنة من أمرهم فيما يلجؤون إليه من أعمال، وفيما يؤدونه من شعائر وفرائض دينية، كما بيّن القرآن أيضاً معنى أن يتخلّف اليهود والنصارى عن نداء الحق، فدعا إلى عدم اتخاذهم أولياء لكونهم قد جانبوا الصواب، واختاروا أن يكونوا على غير سبيل الهداية. حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾[1]، وليس ما يذهب إليه هذا الفريق أو ذاك، من أهل الإيمان، وبذلك يكون القرآن قد وضع الأسس السليمة لإدارة عملية الحوار والتعارف لإقامة المجتمع الإنساني السليم، الذي يتكامل فيه الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وكما قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[2]. أما إذا ادعى كل فريق أن الهدى في جانبه، وأن الحق رائده دون غيره من أهل الأديان، فإن الأمر يكون كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾[١]، إلى غير ذلك من الآيات التي توضح السبيل إلى ما يريده الله تعالى من عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه، سواء في التوراة أم في الإنجيل أم في القرآن.

ثالثاً: حوار القرآن ومنطق التكفير

تمهيد:

يتساءل كثيرون، ممن يبحثون في الشؤون الدينية، عمّا إذا كان ممكناً إجراء الحوار مع أهل الإيمان في ضوء منطق التكفير الذي تنطوي عليه بعض الآيات القرآنية بحق اليهود والنصارى؟ ويرى هؤلاء أن هذا المنطق يسجّل موقفاً عدائياً من أهل الكتاب[٢]، وهنا يكمن السؤال الأساسي، ما هي جدوى الحوار والقرآن يحكم مسبقاً بكفر من لا يحتكم إلى رسالة الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[٣]. كما يتساءل البعض أيضاً عمّا إذا كانت النصرانية التي توجّه إليها القرآن بالنقد، هي النصرانية المعاشة اليوم، وهناك الكثير من الآباء الذين طرحوا هذه التساؤلات، وكان آخرهم المطران جورج خضر، وغيره من المطارنة الذين أثاروا الجدل حول هذا النقد القرآني للمسيحية[٤]، وقد تقدّم الكلام في أن القرآن استحضر تاريخ بني إسرائيل، وأهل الكتاب بكل ما ذهبوا

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

(٢) انظر: المطران، كيرلس بسترس، العلاقات الإسلامية المسيحية، م. س، ص٢٥٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤. فالآية نزلت في بني إسرائيل، ولكن المورد لا يخصص الوارد بمقتضى القاعدة الأصولية.

(٤) يقول المطران خضر: ثم كيف تنطبق تسمية النصارى على المسيحيين وكتاب هؤلاء يقول: وفي أنطاكية سمي التلاميذ أول مرة مسيحيين»، (أعمال الرسل ١١؛ ٢٦) وذلك في النصف الأول من القرن الميلادي الأول، وإذا بقيت تسمية «الناصرين» شائعة في القرن الثاني هنا، وثمة في بلاد الشام... فإذا صحّت نظريتنا يكون مسيحيو اليوم غير معنيّين بما يقوله القرآن عن النصارى إلا بما كان مشتركاً بينهما، هذا ما يجب تبيانه عند كل آية، فالحجة، لا يمكن أن تذهب هكذا: أنتم المسلمين تقولون كذا وكذا لأن القرآن يقول عنّا، كذا، ولكن الاستدلال هو هكذا: إذا كنتم أنتم المسلمين تقولون كذا وكذا تكونون المقصودين في القرآن. المسلمة ليست تالياً، النصارى هم المسيحيون. وهذا قول المفسرين الذين كتبوا جميعاً في بلاد الفتح وشاهدوا المسيحيين واستنتجوا أنه لا بدّ لهم أن يكونوا هم النصارى المذكورين في التنزيل القرآني.

را: جورج خضر، العلاقات الإسلامية المسيحية، م. س، ص٢١٥.

إليه في مجال العقيدة ليجادلهم، ويبيّن تهافت الآراء والمعتقدات الدينية لديهم. والقرآن، كما نعلم، لم يستحضر التاريخ لمجرد عرض الرأي، وإنما بهدف الاستناد إلى طبيعة وحقيقة ما تقتضيه السنن التاريخية، بحيث يتمكّن الإنسان المؤمن من الاعتبار بها والانطلاق منها في صياغة رؤيته الدينية والإنسانية في ضوء ما جاء به الرسل والأنبياء، وبما أن القرآن هو الكلمة النهائية والكاملة في التاريخ الديني، فإنّه لا بدّ من تبيان أهم المقولات التي سادت في حياة أهل الإيمان، وخاصة أهل الكتاب ليكون المؤمن على بيّنة من أمر دينه، لعله بذلك يهتدي إلى سبل السلام. فالقرآن يحاور لا بهدف التكفير أو اللعن، بل بهدف إظهار ما كان عليه اليهود والنصارى في تاريخهم الديني، وإثارة دفائن العقول للتدبر والتعقّل فيما تعنيه العقيدة والشريعة في حياة الإنسان، وفيما جاء به الأنبياء لهدايته من قوانين وتعاليم ووصايا، وهو هدف، كما بيّن القرآن، سعى إليه الأنبياء جميعاً، وكلّموا به الإنسان في التوراة والإنجيل والقرآن، وقبل ذلك في صحف إبراهيم عليه السلام.

ومن هنا، نرى أن التكفير الذي عرض له القرآن في بعض الآيات ليس موقفاً عدائياً من أهل الكتاب، كما رأى المطران بسترس، أو غيره من الآباء، إذ كيف يكون ذلك صحيحاً، والقرآن في ندائه يقول: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ...﴾؟

إن الكفر الذي تتحدّث عنه الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ ...﴾[1]، هو كفر الذين احتبستهم الأماني، وادّعوا أن الجنّة هي حكرٌ على مَن كان يهودياً أو نصرانياً، ورأوا في إبراهيم عليه السلام ما لم يره فيه الله تعالى من دين وانتساب، فقالوا: إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، أو قالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، وغير ذلك مما جادل فيه أهل الكتاب دونما التفات إلى التحققات

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.

التاريخية لهم، وبمعزل عمّا إذا كانت النصرانية اليوم هي غير النصرانية التي خاطبها القرآن ودعا إلى الحوار معها، باعتبار أن القرآن صادق، ولا ينطق عن الهوى فيما جاء به من أوصاف في الاعتقاد والعمل، وآياته تنطق بالحق فيما زعمته كل ديانة أو فرقة في العقيدة والشريعة والأخلاق، ولا شكّ في أن كل محاجة قرآنية، سواء مع بني إسرائيل، أم مع اليهود، أم مع النصارى، أم مع غيرهم ممن كانت لهم شبهة كتاب، أم مع الصابئة الذين عرضت لهم بعض الآيات، كل محاجة إنما كانت تهدف إلى إقامة الحوار والمجادلة بالحسنى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[1].

إذن، التكفير إنما يطال تلك الفرق التي لم تهتدِ إلى حق، واستمرت في الدعوة إلى الباطل، وقالت على الله تعالى غير الحق فيما رأته من دين وعقيدة، هذا فضلاً عمّا لجأت إليه بعض الفرق والديانات من تحريف وتقتيل، إضافة إلى قتل الأنبياء وتكذيبهم فيما جاؤوا به عن الله تعالى. أما أن يقال: إن التكفير يشكل موقفاً عدائياً مسبقاً بين أهل الإيمان، فذلك قول غير صحيح، وتنقصه الأدلة والبراهين، وقد ناقش القرآن الكثير من المعتقدات، مقدماً الأدلة والبراهين الساطعة على عدم صحتها، فلو كان القول بكفرهم موقفاً عدائياً لما استحضروا من التاريخ، ولما نوقشوا في تاريخ الإسلام، ولما استمرت الدعوة إلى الحوار مع أهل الكتاب، وبما أن هذا كله قد حصل، فهو خير دليل على ما يتضمّنه القرآن من روحية حوار ومنطق سديد وسليم في الدفاع عن العقيدة الحقة التي ينبغي على أهل الإيمان أن يهتدوا إليها في كل عصر وزمان، كما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾[2].

فالله تعالى يقول: إن الإسلام هو الحق، وهو الهدى، وليس بعد الحق إلا الضلال،

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[١].

وإذا كان للتكفير من معنى حقيقي وجوهري، فإنه يمكن لحاظ هذا المعنى في سياق الرؤية الدينية الكاملة، التي تشخّص الأقوال والأحوال، وتظهر مدى العناد الذي مارسه بعض أهل الكتاب، أو فريق منهم في مواجهة دعوة الحق التي جاء بها الإسلام، لأن المحاججة القرآنية دفعت بالكثيرين من اليهود والنصارى إلى الإيمان بالرسالة الجديدة، والأخذ بها عقيدة وعملاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ...﴾[٢]. في حين أن الفريق الذي رفض الدعوة وعاند في قبول الحق، وأعلن العداء للإسلام والقرآن، فهذا الفريق اختار بإرادته أن يكون كافراً وفاسقاً وظالماً، وهذا ما يشخّصه القرآن ويبيّنه في جملة من الآيات المباركة التي تراوح فيها الوصف بين أن يكون الإنسان جاحداً أو معانداً، أو مكابراً، أو منافقاً، أو كافراً، أو فاسقاً، أو ظالماً، إلى غير ذلك من الآيات التي تميّز بين أهل الكتاب بالأوصاف، وتفصل بينهم فيما زعموه من قول وفعل، في الاعتقاد أو في غيره، وقد تجلّى هذا الأمر فيما عرضنا له عن الخطاب القرآني المتنوع مع أهل الكتاب تارة، ومع اليهود والنصارى طوراً، وثالثاً مع بني إسرائيل الذين خوطبوا بأن لا يكونوا أول كافر به، كما قال الله تعالى: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ...﴾[٣]. ثم إن طبيعة الحوار القرآني ليست قائمة على مبدأ الرفض للآخر لما هو معلوم عن جوهر رسالة الإسلام لجهة كونها حافظة ومهيمنة على ما جاء به الرسل والأنبياء، ما يحتّم أن تكون رسالة هادية وكاشفة عن الحق والهدى ليكون الإنسان على بصيرة من نفسه ودينه، فإذا ما أخذنا التكفير على أنه أسلوب رفض وإلغاء، فإننا نكون قد جانبنا الحقيقة،

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٤١.

وقلنا بغير علم، ذلك أنّ ما وصف به أهل الكتاب، أو اليهود، أو بنو إسرائيل، إنما هو ناظر إلى أعمالهم وما هم عليه من رؤى وأفكار تطال الدين والمجتمع والإنسان، كما أنه لاحظ لطبيعة تحولات أهل الكتاب، وليس مجرد حكم يطلقه القرآن عليهم، أو أنه يراد لهم أن يكونوا على ما هم عليه، بل هم الذين اختاروا الكفر على الإيمان، ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[١].

أ. الحوار والقتال في القرآن:

يعرض القرآن الكريم للحوار في مجموعة من الآيات التي توقفنا عندها ملياً في بحوثنا السابقة، ولكن السؤال الذي يطرحه بعض الباحثين هو: كيف يمكن التوفيق بين الدعوة إلى الحوار وبين الآيات التي تأمر بقتال أهل الكتاب، وتضعهم في مصاف المشركين، أو على الأقل تجعلهم على شبه بهم. وخاصة في الآيات التي عرضت لهم فيما زعموه بأفواههم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٢].

يقول العلاّمة مكارم الشيرازي: «**في الآيات محل البحث بيان لوجه الشبه من أهل الكتاب والمشركين، ولا سيما اليهود والنصارى، وهذا الشبه لانحرافهم عن التوحيد، وميلهم إلى نوع من الشرك في العقيدة، ونوع من الشرك في العبادة**»[٣].

وغير خفي أن الأمر بقتال أهل الكتاب كما جاء في الكتاب العزيز لا يمكن فهمه إلاّ من خلال دلالة السياق، حيث نجد أن الأمر بالقتال لم يأتِ مباشرة، وإنّما جاء معلَّلاً بحيث يفهم منه أن سبب القتال وعلّته هو أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٣) الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل في كتاب الله المنزل، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ج٥، ص١٩٣.

الآخر، ولا يدينون دين الحق، فهم لكونهم كذلك، سواء أكانوا أهل كتاب، أم لم يكونوا يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية، وهذا ما عرضت له سورة التوبة فيما قدّمته لجهة البراءة من المشركين، ومقاتلة أئمة الكفر، ثم الأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، كما قال الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[١]، وكما رأينا أن علّة قتالهم هي أنهم لا يؤمنون بالله تعالى، ولا باليوم الآخر... وهذا الأمر يشمل كل أهل الكتاب لكون من بيانية وهي للجنس وليست تبعيضية، كما يقول علماء التفسير. تماماً كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾[٢].

يذهب العلامة الطباطبائي في الميزان[٣]، والزمخشري في الكشاف[٤]، والطوسي في التبيان[٥]، والطبرسي في مجمع البيان[٦]، إلى أنّ الآية، وإن كانت تشير إلى شبَه بين أهل الكتاب وبين المسلمين إلاّ أنها من جهة أخرى تشير إلى شبه بينهم وبين المشركين، وكما يقول الزمخشري ويوافقه الطباطبائي، إنّ الآية تنفي الإيمان بالله عنهم لأن اليهود مثنية والنصارى مثلثة، وإيمانهم باليوم الآخر لأنهم فيه على خلاف ما يجب، وتحريم ما حرّم الله ورسوله، لأنهم لا يحرّمون ما حرّم في الكتاب والسنّة[٧]، وقد أكمل العلامة الطباطبائي هذا المعنى بالمزيد من الرؤية الموضوعية، فرأى أن الله تعالى ينسب إليهم في كلامه أنهم يُثبتونه إلهاً، وكيف لا؟ وهو يعدهم أهل الكتاب، وما هو إلاّ الكتاب السماوي النازل من عند الله على رسول

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الحج، الآية: ٣٠.
(٣) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج٩، ص٢٤٩.
(٤) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، الكشاف، م. س، ج٢، ص٥٥٤.
(٥) الطوسي، محمد بن حسن، التبيان في تفسير القرآن، مكتبة الإعلام الإسلامي، قم، ج٥، ص٢٠٢.
(٦) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ج٥، ص٤٠.
(٧) الزمخشري، الكشاف، م. س، ج٢، ص٢٥٤.

من رسله ويحكي عنهم القول أو لازم القول بالألوهية في مئات الآيات من آيات كتابه. إنّ المراد بعدم إيمان أهل الكتاب بالله واليوم الآخر عدم تلبّسهم بالإيمان المقبول عند الله تعالى، وبعدم تحريمهم ما حرّم الله ورسوله وعدم مبالاتهم في التظاهر باقتراف المناهي التي يُفسد التظاهر بها المجتمع البشري، وبعدم تديّنهم بدين الحق، عدم استنانهم بسنّة الحق المنطبقة على الخلقة والكون[١].

ويبقى الفرق فيما بين المشركين وأهل الكتاب، هو أن الله تعالى أمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، وهنا يكمن الفارق الأساسي والجوهري أن قتالهم لا يكون بهدف اقتلاعهم كالمشركين، وإنّما بهدف إعطاء فرصة للعيش معهم فيما لو احترموا الإسلام ولم يتأمّروا ضده، وعلامة هذا الأمر، كما يرى العلاّمة مكارم الشيرازي، هي أن يوافقوا على دفع الجزية للمسلمين[٢]، وفي غير هذه الحال، فإنّ الإسلام أمر بقتالهم، وقد ذكرنا آنفاً أن سياق الآية جاء في سياق البراءة من المشركين في سورة التوبة ما يؤكّد أن الأحكام لا بدّ أن تلحظ في سياق واحد، وهذا ما لم يلتفت إليه كثير من المفسرين[٣]، إذ لم نجد أحداً منهم يعرض لهذا الأمر على النحو الذي يميز بين أن يكون الأمر بالقتال حكماً خاصاً، أو حكماً عاماً، باعتبار أن الإسلام في مبادئه التشريعية يؤسس لحرب دفاعية، ولا يحب الاعتداء، بل ينهى عنه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٤]، وقال الله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥]، إلى غير ذلك من الآيات التي أسس فيها القرآن للحرب الدفاعية، وهذا ما لحظه شمس الدين في بحوثه عن الجهاد

(١) الطباطبائي، تفسير الميزان، م. س، ج٩، ص٢٥٠.

(٢) الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل، م. س، ج٥، ص١٩٣.

(٣) نقول: لعل التحالف مع المشركين والتآمر على المسلمين من المشركين وأهل الكتاب كان سبباً للأمر بقتالهم، وهذا ما نرى فيه حكماً خاصاً، هذا رأي مغنية.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

في الإسلام، مبيناً أن الحرب إنما تكون شرعية فيما لو كانت دفاعية، وأن الآيات دالة بظهورها على أن كفّ الكفّار عن حرب المسلمين والعدوان عليهم يجعل من الممكن إقامة حالة سلام بين المسلمين وبينهم[١]، كما هو مفاد الآية (٩١) من سورة النساء منطوقاً ومفهوماً، كما قال الله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ ...﴾[٢].

إذن، بعض المفسرين لم يميّز بين أن يكون الأمر بالقتال حكماً خاصاً أو عاماً، باستثناء العلاّمة مغنية، الذي رأى أن الأمر بقتال المشركين إنما كان حكماً خاصاً لسبب خاص، وهو أن المجتمع الإسلامي كان في بدء تكوينه، وأن المشركين كانوا طابوراً خامساً يكيدون للإسلام وأهله، فاقتضت المصلحة إخراجهم من الجزيرة أو قتلهم، والأمر هنا بقتال أهل الكتاب أمر خاص بالذين كانوا في الجزيرة لسبب خاص أيضاً وهو أن أهل الكتاب كانوا يتحالفون مع المشركين على محاربة المسلمين، كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبيﷺ لهم[٣]. وهنا يتبدّى لنا الموقف الحاسم فيما تعنيه الآية من أمر بالقتال، ومما يعزّز رأي مغنية بأن الأمر هو حكم خاص لسبب خاص، هو ما تؤسس له آيات سورة الممتحنة التي تبيّن الحكم فيما يتعلق بالموقف من المجتمعات غير المسلمة، سواء أكانت مؤمنة أم غير مؤمنة، مشركين أم أهل كتاب، حيث قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ

(١) شمس الدين، محمد مهدي، في الاجتماعي السياسي الإسلامي، المؤسسة الدولية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩، ص١٠٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩١.

(٣) يقول معنية: «إن محور سورة التوبة يقوم على غزوة تبوك... وقد بلغ النبي أن الروم، وهم في الشام على أطراف الجزيرة يجمعون الجيوش للانقضاض على الإسلام وأهله، وكانت كل القرائن والدلائل تؤكّد أن أهل الكتاب في الجزيرة كانوا عيناً وعوناً للروم النصارى على المسلمين، وأنهم يتآمرون معهم على النبي ومن اتبعه من المؤمنين، ومن أجل هذا كان الحكم فيهم القتل أو إلقاء السلاح والخضوع لحكم الإسلام مع إعطاء الجزية...

را: مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، م. س، ج٤، ص٣٢.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[١].

هذا هو المبدأ التشريعي العام الذي يُحتكم إليه في ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين المجتمع الإسلامي، والمجتمعات الأخرى. وإذا كان لا بدّ من القتال، فإنما يكون بعلّة العدوان وليس بعلّة الكفر، كما قال الله تعالى في خطابه للرسول ﷺ: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[٢]، ما يعني الاستعداد لقبول عرض السلام، لإقرار حالة السلام بين المسلمين وغيرهم، فإنّ وجوب قبول الدعوة إليه، إن كان عادلاً، هو مبدأ من مبادئ التشريع الدفاعي العسكري في الإسلام[٣]. وهذا احتمال ظاهر في آية القتال وعدم الاعتداء، كما يرى الأيرواني في أن المقاتلة إنما تكون لمن يقاتل دون المسالم المستعدّ للصلح»[٤] ولم يخالف في هذا إلاّ الفقيه الفاضل المقداد في كنز العرفان، الذي رأى أن القول بأن الرسول ﷺ كفّ عمّن كفّ عنه ممنوع، بل كان ينتظر الفرصة وحصول الشرايط»[٥].

مما تقدم، نستطيع القول: إنه لا معنى لأن يقتحم البعض الأمر بالقتال ليستنتج أنه لا معنى للحوار في ظلّ الدعوة إلى القتال، وكلّنا يعلم أن المسلمين في تشريع الجهاد، أو فيما اصطلح عليه بفقه الجهاد يقسّمون الجهاد إلى ثلاثة أقسام، الأول هو قتال الكفّار، والثاني هو قتال أهل الكتاب، والثالث هو قتال أهل البغي[٦]، وقد بيّنا أن قتال أهل الكتاب إنّما يكون حكماً خاصاً، وهم مخيّرون بين قبول الإسلام ودفع الجزية، فإن بذلوها حرّم قتالهم، وكما يرى المطران بسترس: «**إنه منذ**

(١) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨ ـ ٩.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦١.
(٣) شمس الدين، محمد مهدي، في الاجتماع السياسي، م. س، ص١٠٥.
(٤) را: الأيرواني، باقر، تفسير آيات الاحكام، قم، ط٣، ١٤٢٨هـ، ج١، ص٢٤٢.
(٥) را: عبد الله السيوري، جمال الدين المقداد، كنز العرفان في تفسير القرآن، قم، ١٣٨٠، ط٢، ص٣١٦.
(٦) مغنية، محمد جواد، فقه الإمام الصادق ، دار التيار الجديد، بيروت، ط٥، ١٩٨٤، ج٢، ص٢٦٣.

البداية اعترفت الشريعة الإسلامية بالمسيحيين في تميزهم لا كأفراد وحسب، بل كجماعة، لذلك وجد في المجتمع الإسلامي على مدى العصور نوع من التعددية الدينية، ولكن هذه التعددية تفترض تراتبية ما. لقد أمنت منظومة «أهل الذمّة» حرية العبادة والحرية للمسيحيين، لكنها اشترطت لذلك ولاءً سياسياً كاملاً وتضمنت نوعاً من الخضوع»[١].

لقد بيّن علماء الأصول أنه لا بدّ من معرفة المطلق والمقيّد فيما جاء به القرآن من أحكام، وإذا كان حكم القتال أو الجهاد قد أطلق فإنّ قيده هو ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٢]، إذ لا يجوز القتال لمجرّد الكفر كما هو صريح آية ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٣]، إضافة إلى أن الإسلام لا يقدّس الحرب،

---

(١) بسترس، كيرلس، العلاقات المسيحية الإسلامية، مركز الدراسات الاستراتيجية، م. س، ص٢٦٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٣) يرى السيد الخوئي في البيان، أن الآيات القرآنية الآمرة بالقتال إنما وردت في جهاد المشركين... وأما أهل الكتاب فلا يجوز قتالهم إلاّ مع وجود سبب آخر من قتالهم للمسلمين، لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وكلام السيد جاء في سياق الردّ على مَن ذهب إلى القول بأن قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. [البقرة، الآية: ١٠٩] قد نسخ بآية السيف، حيث روي عن ابن عباس وقتادة والسعدي، ذلك واختاره أبو جعفر النحاس، وآية السيف هي قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقد ناقش السيد الخوئي هذا الرأي مبيناً أنه لا يمكن القول بنسخ الآية الأولى بالآية الثانية، لأنّ الالتزام بالنسخ هنا، كما يرى السيد يتوقف على الالتزام بأمرين فاسدين، الأول: أن يكون ارتفاع الحكم الموقت بانتهاء وقته نسخاً، وهذا واضح الفساد، فإن النسخ إنما يكون في الحكم الذي لم يصرح فيه لا بالتوقيت ولا بالتأبيد... فالنسخ هو رفع الحكم الثابت الظاهر بمقتضى الإطلاق في الدوام وعدم اختصاص بزمان مخصوص، وعلى هذا الأساس يكون دور الآية، آية السيف بيان الوقت والغاية للحكم المذكور في الآية الأولى دون أن تكون ناسخة له.

أما الثاني، فهذا أن يكون أهل الكتاب ممن أمر النبيﷺ بقتالهم، وذلك باطل؛ فآية السيف لا تأمر بقتال أهل الكتاب بشكل مطلق حتى تصبح معارضة لآية الصفح، وإنما هي تأمر بقتالهم عند عدم دفع الجزية. وعليه، فإنه لا يجوز قتال أهل الكتاب فيما لو لم يبدأوا بقتال، أو لم يحدثوا الفتنة التي هي أشدّ من القتل، أو لم يمتنعوا عن إعطاء الجزية، فإذا لم يأتوا بشيء من ذلك، فإنه يكتفي بالصفح والعفو عنهم كما جاء في آية الصفح المدعى نسخها، فتكون الآية الثانية مقيدة لإطلاق الأولى لا ناسخة لها.

را: الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٤، ص٢٨٩. وقا: مع الحكيم، محمد باقر، علوم القرآن، مؤسسة الهادي، قم، ج١، ص٢٠٨. فالسيد الحكيم يعقّب على رأي السيد الخوئي، ويقول بقيد آية السيف لإطلاق آية الصفح، هنا تبدو لنا أهمية علم الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيّد في علوم القرآن، وهنا يطرح التساؤل الكبير حول مذاهب من قال بالنسخ لآية، وهي ليست كذلك!!!

وإنّما يدعو إلى السلام، وإلى احترام كرامة الإنسان وحريته فيما يريد التعبير عنه، كما قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[١]، وقال الله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[٢]، فالإسلام لا يكره أحداً على اعتناقه، ويؤسس لعلاقات تفاعلية مع المجتمعات الأخرى، سواء أكانت مؤمنة أم غير مؤمنة، كافرة، أم معاهدة، وإذا كان القرآن قد أكثر من استعمال مفردات الكفر أو الفسق، أو الظلم، فذلك إنما جاء في سياقات مختلفة للتدليل على مذاهب القوم فيما هم عليه من آراء ومعتقدات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم تكن هذه المفردات لأجل إظهار أو تأكيد مشروعية القتال لأهل الكتاب أو لغيرهم، لأنّ الحوار والسلام هو الأساس في منظومة الهداية القرآنية، والقتال هو الاستثناء، كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ ...﴾[٣]. إنّ آيات القرآن التي تدعو إلى الحوار والجدال والدعوة بالحسنى، منطوقاً ومفهوماً، تثبت أن الحوار هو السبيل الوحيد للإهتداء إلى سبل السلامة في الحياة، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ ...﴾، لهو خير دليل على ذلك، كما أن هذه الآية تؤكّد أن أهل الكتاب حتى ولو كانوا مؤمنين هم على خيار أن يقيموا على دينهم ويؤدّوا الجزية، وبين أن يقبلوا الإسلام، وقد ظهر من النصارى حسن إجابة في التاريخ الإسلامي، وكانوا موضع عناية القرآن، كما قال الله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ ...﴾[٤]، أو قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾[٥]، وهذا كما بيّنا، بخلاف المشركين، فإنهم لم يكُن يُقبل منهم إلا قبول الدعوة، وكما يقول العلاّمة الطباطبائي قدس سره، فكثرة المؤمنين

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٢) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
(٤) قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].
(٥) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

منهم لا تدلّ على حسن الإجابة[١]، ولعل منطوق ومفهوم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ ناظر إلى هذا المعنى، رغم كل آيات القرآن التي عرضت لليهود دون النصارى في سياق واحد، أو تلك الآيات التي عرضت لأهل الكتاب والمشركين في سياق واحد بلحاظ المغايرة بينهم كما في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ ...﴾[٢].

غاية القول: إنه لا تناقض بين الحوار والقتال في القرآن، لأن القتال هو لردّ العدوان، وليس لفرض الرأي، أو لأسلمة الأمم، كما يدّعي بعض الباحثين فيما زعمه من تقديس للحروب في تاريخ الإسلام والمسلمين، وإنّ أدنى تأمّل فيما عرض له القرآن من آيات تحثّ على السلام، لا بدّ أن يكشف عن أبعاد الحوار القرآني، بحيث تظهر الأمور على النحو الذي يؤكّد لذي عقل بأن الإسلام هو دين عالمية الرحمة، وليس دين السيف والقتال. فإذا قلنا: إنّ في القرآن حواراً وقتالاً، فليس ثمة تناقض بين الأمر بقتال المعتدين، وبين المجادلة لهم ليكفّوا عن عدوانهم، سواء الفكري، أم المادي، وهذا الفهم يمكن التأسيس عليه لكون ما جاء في القرآن من توصيفات لأهل الكتاب، أو للمسلمين، أو لغيرهم، من كفر وفسق وظلم لا يشكّل مبرراً لحربهم، وكما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[٣].

وهنا لا ندري كيف نوفّق بين تفسير الزمخشري الذي رأى أن اللام في «**الفاسقون**» هي لام الجنس، والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب[٤]، وبين ما ذهب إليه العلاّمة الطباطبائي قدس سره، الذي رأى أنه لا يبعد أن تكون لام العهد الذكري[٥]. ونحن نرى أن الأحسن أن تكون للجنس لكون السياق في دلالة الآيات يظهر ذلك،

(١) انظر: الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، ج٦، ص٧٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٩.

(٤) انظر: الزمخشري، الكشاف، م. س، ج١، ص١٧١، وقا: مع الطباطبائي، الميزان، ج١، ص٢٢٨.

(٥) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص. ن.

فيكون المعنى ظاهر الدلالة على الكفر وأنه الفسق، فهم لكفرهم فاسقون، ومثلما أن هذا ينطبق على أهل الكتاب، فإنه ينطبق على المسلمين أيضاً فيما لو كفروا بما أنزل الله من البيّنات، وكما يرى علماء التفسير أنه إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره[١]، وهذا ما لحظه الراغب في مفرداته[٢]، فرأى أن الفسق يقابل الإيمان وليس الكفر، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ...﴾[٣]، هذا كله يدلّ على أن مفهوم ومنطوق آيات القرآن في مجال الرؤية الحوارية لا يتعارض مع الأمر بالقتل لكون التوصيف ينطبق على كل مَن يكفر بآيات الله تعالى، فهل يُعقل أن يكون تحقق الكفر، أو الفسق، أو الظلم في أمة، أو في جماعة؛ سبباً وعلّة لقتالهم؟ فما يكون معنى الحوار إذاً؟ والدعوة إلى الحوار قائمة لهداية الناس وإخراجهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الكفر إلى الإيمان. فالقتال هو للمعتدي بهدف أن تنتظم حياة المجتمع، فتكفّ أيدي المعتدي، ويستعد لقتاله لمنعه من العدوان، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...﴾[٤]، ولا شكّ أيضاً في أن ما يذهب إليه بعض الباحثين من اعتبارٍ لآيات القتال، فهو إنما يؤخذ به استثناءً، سواء في مواجهة أهل الكتاب، أم غيرهم ممن لم يؤمن وكفر بآيات الله تعالى، وعلى هذا المعنى يمكن أن نذهب إلى تفسير الكثير من الآيات القرآنية بحيث يؤخذ بالاتجاه الموضوعي لفهم الكفر

---

(١) الزمخشري، الكشاف، م. س، ج١، ص١٧١.

(٢) يقول الراغب الأصفهاني: «الفسق أعم من الكفر، والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير ولكن تعورف فيما كان كثيراً... وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق، فلأنه أضلّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة، قال الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ٥٠]. فالفاسق أعم من الكافر، والظالم أعمّ من الفاسق...».

را: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، لا ت، ص٣٩٤. وقا: مع ابن منظور في لسان العرب، دار المعارف، مصر، لا ـ ت) ج٥، ص٣٤١٤.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٨.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

أو الفسق أو الظلم في القرآن الكريم، فلا يكون موضوعه أمة بعينها، وإنّما الكفر، أو الفسق، أو الظلم بعينه، فإذا فُهم معنى المصطلح وما يُراد به، وما هو مغزى إطلاقه، فإنّه حينئذٍ يمكن استيعاب المدلول العام من خلال استنطاق الآيات لمعرفة المؤدّى الذي تحمله، فلا يُقال: إن القرآن يكفّر أهل الكتاب، فكيف يدعو إلى التحاور معهم، بل يُقال: إن الكفر معناه القرآني يقع على أنواع وأنحاء عدّة[١]، وهذه الأنحاء قد تطال أهل الكتاب، وقد تطال أهل الإسلام، فلا يكون المعنى خاصاً بقوم أو جماعة ليُقال بأن الإسلام يأمر بقتال أهل الكتاب، باعتبار أن التشريع في الإسلام ليس له خاصية أن يكون لقوم وإنّما هو للعالمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢] وقال الله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ...﴾[٣]، إلى غيرها من الآيات التي تدلّل على معنى وميزة هذا التشريع الإلهي لجهة كونه لاحظاً للإنسانية كلها، فمثلما أن الحوار مع الجميع؛ فكذلك القتال هو مع الجميع فيما لو حصل الاعتداء. وإذا كان المسلمون قد أخفقوا في تجاربهم التاريخية، فإنّ الإسلام لا يحمل وزر هذه التجارب وما انطوت عليه من تفسيرات وتأويلات للآيات القرآنية، وخاصة بحق أهل الكتاب. والحق يُقال: إن تاريخ المسلمين فيه من الكفر والفسوق والمظالم ما لا يمكن أن يُقاس بما عند غيرهم، ما يعني ضرورة التدبُّر في المعطى القرآني ليكون الإنسان على بيّنة مما يدعو إليه ويتحاور من أجله حتى تكون له روحية الإيمان في مواجهة الكفر والفسوق والظلم، وهذا ما أردنا التأكيد عليه في هذا البحث لإثبات أن الحوار القرآني هو الأساس في حركة الإيمان في مواجهة

(١) جاء في لسان العرب عن أهل العلم أن الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار بألا يعرف الله أصلاً، ولا يعترف به، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، من لقيَ ربه بشيء من ذلك لم يغفر له، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء».
را: لسان العرب، م. س، ج٥، ص٣٨٩٨. وقا: مع: الدامغاني، قاموس القرآن، م. س، ص١١٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

كل أنواع الكفر من أي جهة كانت[١]، وإلى أي فئة انتمت، فالكفر هو الكفر، وقد قال رسول الله : «**ألا لا ترجعنَّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض...**»[٢].

وهذا كلام للمسلمين، ذو دلالة عامة، والمورد لا يخصص الوارد، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، بحيث يفهم الإنسان أن الخطاب القرآني هو خطاب للإنسان في كل زمان ومكان، سواء أكان مسلماً، أم غير مسلم، وفي هذا السياق القرآني يمكن فهم الدعوة إلى الحوار، وكذلك الأمر بقتال مَن لا يؤمن بالله واليوم الآخر ولا يدين دين الحق.. ليس في زمان الرسول ﷺ، بل في كل زمان ومع كل رسول، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣]، والآية ـ كما يرى العلاّمة الطباطبائي قدس سره ـ تشير إلى مخالفة أهل الكتاب، فريق منهم، للحق من حيث كتمانهم بشارة التوراة وعدم إيمانهم بمن يصدق ما معهم[٤]، وهذا دليل على تواصل الرسالات والرسل، وعلى ضرورة أن يكون الحوار متواصلاً مع أهل الكتاب وغيرهم من منطلق أن القتال إنما يكون لمن لا يؤمن بالله واليوم الآخر ولا يدين بدين الحق ثم يعتدي، وهذا هو خطاب النبوة في كل زمان ومكان. وعليه تواتر الأنبياء والرسل، فإذا كانت أوامر الآيات تخص أهل الكتاب فيما يكون منهم، فليس معنى ذلك تخصيص الخطاب بهم، لكونهم إذا آمنوا وأسلموا لله أمرهم، فلا يكون ثمة معنى لقتالهم بل يحرم ذلك، كما بيّن العلماء في فقه الجهاد، وفي تفسير الآيات. والله العالم والمسدّد للصواب، والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) الكفر أنواع: هناك كفر الحجود، وهو إنكار وجود الله تعالى، وكفر بالألوهية، كأن يعتقد المرء بأن الله موجود إلاّ أنه ليس بإله، وهناك كفر بالوحدانية، كأن يعتقد أن الله ليس بواحد، وهذا هو الشرك. وهناك الكفر بالنبوّة أو المعاد، بأن لا يعتقد بهما. والكفر بكل ضرورة يؤدي بها إلى إنكار رسالة محمد ، وهناك الارتداد، المرتدّ الفطري، والمرتدّ الملّي، ثم الكفر بالنعمة، ثم كفر البراءة.

انظر: الشيخ الغديري، عيسى إبراهيم، القاموس الجامع للمصطلحات الفقهية، دار المحجة البيضاء، ط١، ١٩٩٨، ص٤٨٢.

(٢) را: ابن منظور، لسان العرب، م. س، ص٢٤٠٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠١.

(٤) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج٦، ص٧٩.

ب ـ الحوار والخسران في القرآن

تقدّم الكلام في أن الحوار القرآني مقدّمٌ على القتال والجهاد في سبيل الله، بل هو أساس وجوهر النظرية القرآنية، الداعية إلى التعارف والتواصل والتعايش بين الأديان، وإذا كان من معنى للجهاد، فهو ردّ المعتدي والإعداد والاستعداد مادياً وروحياً لمنعه من الاعتداء، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[١].

كما بيّنّا أيضاً، أن القتال للمعتدين لا يكون لمجرّد الكفر كما هو صريح الآية الآنفة، بل يكون بعلّة العدوان، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

وانطلاقاً مما تقدّم، يمكن القول بأن صريح الكثير من الآيات المباركة، إضافة إلى ما يُنبئ به ظاهر الكثير من الآيات هو الدعوة إلى الحوار الهادف إلى بناء المجتمعات الإنسانية على أسس عقلية وروحية، بحيث تكون القناعة بالعقيدة هي الأساس والمبدأ، وليس الإكراه عليها، كما قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ...﴾[٣]، إلى غيرها من الآيات التي تنطوي على دعوة الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن لإظهار الحق والعمل بمقتضيات الاعتقاد السليم بالله ورسله، كما جاء به الأنبياء والرسل حتى تكون الطاعة لله وحده.

إنّ الله تعالى لا يريد ظلماً بالعباد، ويريد لهم أن يخرجوا من الظلمات إلى النور بما أوحي إليهم على لسان أنبيائه ورسله تحقيقاً للهدف الذي خلقوا من أجله، سواء أكان للعبادة والمعرفة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[٤]، أم للتعارف والتعايش، كما قال الله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾[٥]، ولأجل هذا تواتر الرسل

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٥) قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأُنزلت الكتب، وهذا هو مفاد كل الآيات القرآنية التي تتعرض لحوار الرسل والأنبياء مع أقوامهم، حيث كان لسان حالهم جميعاً يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[١].

لقد تبيّن لنا في المبحث السابق كيف أن العلماء والفقهاء قد اختلفوا حول ما إذا كانت آية السيف قد نسخت آية الصفح والعفو عن أهل الكتاب؟ ورأينا كيف أنهم اختلفوا في منطوق الآيات ومفهومها على نحو لم يتميّز فيه الناسخ من المنسوخ، ولا المطلق من المقيّد، وذلك كلّه إنّما كان بسبب مذاهب القوم فيما هم عليه من فهم وتفسير بعيداً عن الرؤية الموضوعية، التي ينبغي أن تكون هي السبيل للكشف عن مدلول الآيات من خلال منهج بياني تترتّب فيه الآيات حسب نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان، إضافة إلى معرفة أسباب النزول من حيث هي قرائن لابست نزول الآية دون أن يفوت المفسّر أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه[٢]، وهذا الاتجاه الموضوعي، فيما لو اعتمد، يسمح للباحث، أو المفسّر باستقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده للوصول إلى دراسة وعرض الظاهرة الأسلوبية على كل نظائرها في الكتاب الحكيم، وتدبّر سياقها الخاص في الآية والسورة ثم سياقها العام في القرآن كله التماساً لسرّه البياني، وكشفاً عن معناه الحقيقي. ولا شكّ في أن هذا المنهج هو الذي سنعتمده لتبيان معنى الحوار وما إذا كان له من مؤدّى في دنيا الإنسان وآخرته، لأنّ القرآن في بيانه العام يُحكِم القول بأن الدين عند الله هو الإسلام[٣]، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) لقد اعتمد هذا المنهج الأستاذ الخولي المصري في كتابه «التفسير البياني للقرآن الكريم» وهو منهج بديع يشبه منهج الطباطبائي من حيث الموضوعية، وتفسير القرآن بالقرآن، والنقطة البارزة في هذا المنهج هي استقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده في القرآن.
انظر: مناهج التفسير، جمعية القرآن الكريم للتوجيه، لبنان، ط١، ٢٠١٢، ص١٤٢.

(٣) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[آل عمران: ١٩].

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

فإذا كان للحوار من مؤدّى إيجابي بلحاظ كونه الأساس في المنظومة الإسلامية، فذلك ليس معناه أن الحوار مطلوب لمجرّد الحوار، أو لمجرّد أن يكون الإنسان متعارفاً، بل لا بدّ أن يكون على تقوى عملية، سواء في حواره ومجادلته، أم في تواصله وتعارفه، وإلاّ استحال الحوار إلى فوضى وعبثية، باعتبار أن القرآن يدعو إلى الحوار على أساس أن يكون الإنسان على كلمة سواء، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾، وهذه الكلمة لا تكون كذلك إلاّ إذا جاءت في سياقها القرآني، وليس في أي سياق آخر يختاره الإنسان، وقد اختار القرآن أن تكون في سياق ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١].

إذن القرآن حدد إطار الحوار في الكلمة السواء، ودعا إلى الامتثال لدعوة جميع الأنبياء فيما يبلّغونه عن الله تعالى، وقد تواتر الأنبياء ودعوا إلى عبادة الله وتوحيده والتسليم له، بحيث يكون الإسلام دين البشرية، كما هو دين الأنبياء جميعاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٢]، وكما قال الله تعالى في وحيه إلى الرسول ﷺ ومن خلاله إلى المسلمين: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].

إن جميع الأنبياء كانوا على دين الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٤]، وهذا الإسلام، فيما ينطوي عليه من أُصول إيمانية كبرى[٥]

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ٧٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٥) إن ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ ظاهر أنه ما أرسل نبي من الأنبياء إلاّ وكانت أصول الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والوحي والبعث، وهي أصول لا تتبدل، ولا تعدّل، ولهذا قال النبي ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد...».

لم يختلف بين نبيّ وأخر، كما أنه لم يكن موضوعاً للحوار بين أهل الأديان لكونهم جميعاً يؤمنون بالله ووحدانيته، والوحي وعصمته، والبعث وجزائه، وقد سلف القول منا أن هذه الأصول الايمانية لا ينبغي أن تكون مجالاً للحوار، بل منطلقاً له، لأن هذه الأصول هي مما يستقلّ العقل بمعرفته وليست مجالاً للتقليد[١]، وإن كان ثمة اختلافات في تفاصيل ما ذهب إليه أهل الأديان، فذلك مما لا تأثير له على حقيقة الإيمان فيما لو كان قائماً على تنزيه الله تعالى، بحيث لا تكون هناك أدران وشوائب على ما يذهبون إليه من توحيد، سواء في الوحدانية، أم في العبادة، فالدين واحد كما يرى العلاّمة الطباطبائيقدس سره، لا اختلاف فيه، ولم يأمر العباد إلاّ به، وهو الإسلام الذي هو التسليم للحق الذي هو حق الاعتقاد، وحق العمل[٢]، وبعبارة أخرى هو التسليم للبيان الصادر عن مقام الربوبية في المعارف والأحكام، وهو- أي البيان - وإن اختلف كماً وكيفاً في شرائع أنبيائه ورسله على ما يحكيه الله تعالى في كتابه، غير أنه ليس في الحقيقة إلا أمراً واحداً، وإنما اختلاف الشرائع بالكمال والنقص دون التضاد والتنافي والتفاضل بينها بالدرجات، ويجمع الجميع أنها تسليم وإطاعة لله تعالى فيما يريده من عباده على لسان رسله[٣].

لقد حصر الله تعالى الأديان كلها بالإسلام، والسر في هذا، كما يرى مغنية، أن جميع أديان الأنبياء تتضمن الدعوة الإسلامية في حقيقتها وجوهرها، عنينا بذلك الإيمان بالله والوحي والبعث، والتنوع والإختلاف إنما هو في الفروع والأحكام، لا في أصول العقيدة والإيمان[٤].

---

(١) روي عن رسول الله أنه قال: «أصل ديني العقل». والإسلام يرتكز على الألوهية والنبوة، ومنهما تنبع تعاليمه وأحكامه، والسبيل إلى معرفتها، هو العقل، وقد بين علماء العقيدة أن الله يُعرف بالعقل عن طريق الكون وآياته، والنبي يُعرف بالعقل عن طريق المعجزة.

را: مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، م.س، ج١، ص٤٧.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، م.س، ج٣، ص١٣٩.

(٣) م. ع، ص١٤٠.

(٤) مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، م.س، ج٣، ص٢٧.

قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[١].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٤].

فالآيات، كما نلاحظ، ناظرة في ظاهرها إلى أمرين هامين.

الأول: هو تحقق الخسارة في الآخرة لمن يبتغي غير الإسلام ديناً.

والثاني: هو تحقق الكفر لمن يفرق بين الأنبياء والرسل. والمنهج الموضوعي، في فهم منطوق الآيات ومفهومها يقتضي ملاحظة معنى الخسارة التي اقتصر فيها التعبير على الآخرة دون الدنيا. وهنا السؤال، هل معنى هذا أن مَن يبتغِ غير الإسلام ديناً يمكن أن يكون فائزاً في الدنيا؟ أم أن الخسارة في الآخرة تفترض مسبقاً أن يكون الإنسان خاسراً في الدنيا أيضاً، كما هو مفاد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[٥]، أضف إلى ما تقدم قوله تعالى: ﴿وَمَن

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٢.
(٥) سورة الحج، الآية: ١١.

يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[١]، فهذه الآيات تفيد في منطوقها ومفهومها أن الخسارة تلحق الإنسان في أخرته وليس في دنياه، لكن تجدر الإشارة هنا إلى أن سياق سورة آل عمران في الآية ٥٨، يختلف عن سياق سورة المائدة، في الآية(٥)، باعتبار أن الأولى جاءت في سياق الحديث عن الإيمان بالرسل والأنبياء وما أنزل إليهم من ربهم، في حين أن الثانية جاءت في سياق الحديث عما أُحّل من الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب، فهي لم تكن في سياق الحديث عن أصول الإيمان، وعما يقتضيه الإسلام من توحيد وعمل، مما يدلل على أن ظهور الآية ـ آية المائدة لاحظ للفروع أيضاً، بحيث يفهم من سياق آياتها أنها تفيد الخسارة لمن يكفر بالإيمان في الآخرة دون أن تعني الفوزفي الدنيا كما يفيد السياق أيضاً أن تارك الفروع، أو أركان الدين، هو ممن يتحقق له الخسارة في الآخرة، فضلاً عن الدنيا، لأن الدنيا مزرعة الآخرة، فلا يعقل أن يكون الإنسان خاسراً للآخرة، وفائزاً في الدنيا، وذلك من منطلق أن الإسلام كل واحد ومن يكفر بالإيمان كما أفادت آية المائدة، فهو كافر بالإسلام، وبكل آيات الله تعالى التي ألقاها إلى أنبيائه دون الآيات التكوينية الدالة على الوحدانية وما يزاملها من المعارف الإلهية على حد تعبير العلاّمة الطباطبائي قدس سره[٢].

إنّ الكفر بالإيمان وما يلحق به من خسران في الأخرة، سواء أكان في الأصول، أم في الفروع له مؤدى الخسران لكونه قائماً على ابتغاء غير الإسلام ديناً عقيدة وشريعة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[٣]، والمراد بالآيات هنا آيات الوحي والبينات الإلهية، التي يقتضي الإسلام، بما هو إيمان،القيام بها للفوز بالمغفرة والرضوان. أما أن يكفر الإنسان بالإيمان، أو أن يبتغي غير الإسلام

(١) سورة المائدة، الآية: ٥.
(٢) الطباطبائي، تفسير الميزان، م.س، ج٣، ص١٤٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

ديناً، سواء في الفروع، أم في الأصول، فذلك مما يجعله خاسراً، ويعبد الله تعالى على حرف، وكما يقول العلاّمة الطباطبائيقدس سره: «**إنّ الكفر بالإيمان يؤول إلى ترك العمل بما يعلم الإنسان أنه حق كتولي المشركين، والإختلاط بهم، والشركة في أعمالهم مع العلم بحقية الإسلام وترك الأركان الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج مع العلم بثبوتها أركاناً للدين... فالكفر بالإيمان إنما يصدق على الإنسان فيما إذا ترك ما يقتضيه إيمانه، ويتعلق به علمه ودام عليه، وأما إذا ستر مرة أو مرتين من غير أن يدوم عليه فلا يصدق عليه الكفر، وإنما هو فسق أتى به**»[١].

وعليه، فإن معنى الخسران في الآخرة، سواء جاء في سياق أصول الدين أم في فروعه، كما في سياق آية المائدة سورة المائدة، الآية: ٥، فهو خسران دنيوي أيضاً، ولكن الله تعالى لم يعهد به إلى الإنسان، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، ويبقى على الإنسان أن يقوم بالدعوة إلى الحق، وسلوك سبيل الرشد والحوار بحيث يترك أمر الحساب إلى الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[٢] فإذا ما أضفنا الآيات إلى بعضها البعض فيما تفيده من خسران في الآخرة، فإنه يظهر لنا من السياق القرآني العام، بحسب المنهج البياني، أن الإسلام لا يدعو إلى البناء على هذا الخسران في اتخاذ المواقف الدنيوية في التعامل مع أهل الكتاب، أو غير أهل الكتاب لما تقتضيه الدعوة القرآنية في مجادلة بالحسنى، إلا الذين ظلموا، ودعوة إلى الكلمة السواء، وهنا تجدر الإشارة إلى رؤية ذهب إليها بعض المفسرين فيما يعود إلى الخسران في الآخرة، وهي أن الله تعالى يحصر الوظيفة الخلاصية للعقيدة في إطارها المحدد وهو الأخرة، ولم يرتّب هذا على الموقف الدنيوي، يقول شمس الدين: «**إن الإسلام لا يحكم بصورة جازمة أن كل من لم يعتنق الإسلام فهو هالك ولا نجاة له. بل يميز بين مستويين، مستوى القاصرين، ومستوى المقصرين، مستوى من**

(١) الطباطبائي، م.س، ج٦، ص٢١٠ـ ٢١١.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٠.

بلغته الدعوة الإسلامية وعقلها وجحدها. وهذا هو المقصّر، ومستوى من لم تبلغه الدعوة أو بلغته ولم يعقلها لا لتقصير منه، بل لسبب من الأسباب الأخرى..»[١].

وهذه رؤية يمكن البناء عليها، ولكنها تحتاج إلى مزيد تدبير واستنطاق للآيات القرآنية اللاحظة لمعنى الخسارة في الآخرة، وذلك من منطلق أن الإسلام لم يكره أحداً على العقيدة،ودعا إلى الحوار والتعارف على أساس التقوى في القول والعمل، فإذا لم يؤدِّ الحوار إلى أن يكون الناس على دين الإسلام، سواء في الظاهر أم في الباطن على ما أفاده الطريحي من تقسيم الإسلام إلى ضربين، أحدهما دون الإيمان، وهو الاعتراف باللسان، والثاني: هو أن يكون مع الاعتراف معتقداً وافياً بالفعل نحو أسلمت لربّ العالمين[٢]، فلا مسوّغ لأن يكون الإكراه هو البديل للدعوة بالحسنى، أو للحوار بين الناس، وتبقى آيات الممتحنة (٨ـ٩) هي الحاكمة في إطار تحديد الخسران المبين، أو الفوز العظيم، لكون القرآن يؤسس في عقيدته وشريعته لانتظام المجتمع الإنساني وفاق دين الإسلام فيما انطوى عليه من عقيدة وشريعة ونظام حكم، فإذا لم يؤدِّ الحوار إلى هذا الدين ككلمة نهائية وخاتمة وكاملة، فلا يكون العدوان أو الإكراه، كما قلنا، هو السبيل لذلك، حيث إنّ الله تعالى منع منه ودعا إلى الاقتصار على المحاججة في إطار قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[٣] وهذا

(١) شمس الدين، محمد مهدي، المسيحية في المفهوم الثقافي الإسلامي المعاصر، الإسلام والغرب، م.س، ص٤٣.
(٢) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، دار الوفاء، بيروت، ج٢، (لا.ت). ص٤٠٨.
(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٨ ـ ٢٠.

ما يُظهر أنه ليس لأحد ممن يدعون إلى الله تعالى أن يكون محاججاً بالحاح، أو مشاغباً بإثم، أو محاوراً بعنف، لقول علي عليه السلام: «**من بالغ في الخصومة أثم**»[١]، ومن أجل هذا أمر الله نبيه الكريم أن يترك المبطلين المعاندين وشأنهم، حيث لا مزيد من التبيان والبراهين، وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وبهذا نجد أن الآية تجمع بين أهل الكتاب ومشركي العرب ليكون المعنى شاملاً لكل بني البشر، سواء أكانوا كفاراً، أم مشركين، إذ العبرة هنا بالعموم، فلا تخصّ أهل الكتاب والأمّيين وحسب، بل تتعدّاهم إلى غيرهم ممن له شبهة كتاب كالمجوس، أو الصابئة وسواهم، ومما تقدم أيضاً يستفادمن ظهور الآية أنها تدعو إلى الإسلام، والقيام بالحوار على النحو الذي يؤدي إلى إقامة الحجة، ونبذ الخصومة، وهذا هو مفاد قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٢].

إن الإسلام هو دين الله قبل أن يكون للناس، وبعد أن كانوا فمن أقر بدين الله فهو مسلم، ومن عمل بما أمر الله فهو مؤمن، وبهذا جاء الأنبياء جميعاً، فمن اهتدى فلنفسه، ومن لم يهتدِ فعليها. وإذا كان الله تعالى لم يفرق بين أحد من أنبيائه، فذلك إنما كان في أصل الرسالة والوحي والهداية، لكنه فضل بعضهم على بعض بما آتاهم من الكمال في الشريعة حيث جاء بأفضلهم فرقاً وجمعاً، وأشرفهم أصلاً وفرعاً، وأكملهم ديناً وشرعاً، فختم بإرساله دور النبوة والرسالة، وحتم على كافة الناس اتباعه إلى يوم القيامة، وأرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيراً[٣]، وقد أشار إلى هذا الختم والتمام بالحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م.س، الكتاب١٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٤.

(٣) انظر: الخراساني، محمد عدلي كاظمي، فوائد الأصول، تقريران الميرزا النائيني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٩، ج١، ص٣.

عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ بل صرح بذلك وأكده بالتأييد، حيث قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

غاية القول: إن الحوار، كما يظهر من الآيات المباركة، لا يتناقض إطلاقاً مع ما يستتبعه ابتغاء غير الإسلام ديناً من خسران وليس على الناس إطلاقاً، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، أن يستندوا إلى الخسران في الآخرة للأمتناع عن الحوار، بحيث يقول أحد أن الخاسر في الأخرة هو خاسر في الدنيا، وعلى فرض أن هذا الأمر متحقق كما هو منطوق ومفهوم الكثير من الآيات، فإن هذا لا يمنع أن يكون الحوار سبيلاً إلى الهداية لدين الله تعالى، الذي هو الإسلام، فلا يقال بأن الخسارة في الآخرة تستتبع التنكر للحوار والقتال في الدنيا مع غير المسلمين، لتكون لهم الخسارة في الدنيا، لأن الله تعالى منع من الإكراه في الدين، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة، ونها عن العدوان، وفي ضوء هذه الدعوة الإلهية يمكن التأسيس لرؤية حوارية تستبعد نهائياً مصائر العباد في الدنيا وما يمكن أن يلحق بهم من عذاب فيها، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ ...﴾[2]. إلى غيرها من الآيات التي تُفسح في المجال أمام الحوار والمحاججة بالطريقة التي تسمح بتبيان الحجج والبيّنات والبراهين، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3].

لا شك في أن الحوار هو سمة الكثير من الآيات القرآنية، وهو مبدأ أساس نصت عليه المبادىء التشريعية العامة، بدءاً من كرامة الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ...﴾[4]. وانتهاءً بالدعوة إلى البر والقسط بحق مَن لم ينه عن الدين ولم

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧١.

يقاتل فيه ولم يخرج الناس من ديارهم، كما تصف آيات سورة الممتحنة (٨ـ٩)، فيما تضمنته من دعوة إلى ضرورة نبذ العنف والحوار وإقامة العدل، وعدم تولي الظالمين.

هذا لجهة مبدئية الحوار في الإسلام، أما لجهة الخسران المبين، فذلك أمره إلى الله تعالى، فهو البصير بعباده، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وقد قال الله تعالى في سورة طه: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[١]. وعليه، فإنه لا معنى لأن يؤخذ على الإسلام قوله بخسارة من ابتغ غير الإسلام ديناً، لأنه دين الأنبياء جميعاً من آدم عليه السلام وحتى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم[٢]. وهذا ما لا ينبغي الاختلاف فيه، وإذا ما حصل، فإنّه يكون نتيجةً للبغي بعدما جاء من العلم، كما فعل أهل الكتاب، فكان التهديد لهم بالانتقام وحبط الأعمال، كما هو ظاهر الآيات في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾. وهذا البغي، كما بيّن تعالى، لم يقتصر على أهل الكتاب وحسب، بل تعدّاهم إلى الأمّيين، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ...﴾. ولعلّ السبب في هذا الجمع، كما يرى العلاّمة الطباطبائي قدس سره، هو كون الدين مشتركاً بينهم، وإن اختلفوا في التوحيد والشرك، ذلك أن الدين واحد، وهو مودع في الفطرة الإنسانية على وتيرة واحدة[٣].

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٢.

(٢) إن الدين المقبول عند الله هو الإسلام المهيمن على كل الأديان، والذي انتمى إليه كل الأنبياء، وهذا الاسلام هو أشبه ما يكون بالمرحلة الدراسية العليا التي لا تكون إلا بعد دراسة مقدمات ومراحل يعبرها الطالب. فإذا جرى الامتحان، فإنه يجري بما انتهى إليه الطالب ليفوز بالنجاح، وهذا لا يعني أنه لا قيمة للمراحل العلمية التي قطعها، بل لها قيمة، وقيمتها تكمن في كونها مستوعبة في الدراسة النهائية؛ إلاّ أنه لا يقبل للنجاح والفوز إلا دراسة الدروس والكتب المقررة في المرحلة النهائية. وهكذا الإسلام، فهو الكلمة والكتاب النهائي ولا بد من الفوز بعد النجاح فيه، وهذا هو مفاد وظاهر قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

(٣) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج٤، ص١٥٧.

وكيف كان، فإن ما عرضت له الآيات القرآنية من تهديد ووعيد وانتقام وخسران في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة لمن يعبد الله على حرف، أو لمن يتبع غير الإسلام دينا، لا يستفاد منه أن القرآن يؤسس لرؤية صدامية بين أهل الدين، إذ كيف يكون ذلك وقد نها عن الاختلاف والتفريق بين الأنبياء، وإنما هو يكشف عن مسارات الأمور ومصائرها ليكون الإنسان على بينة من أمره فيما يتخذه لنفسه من أهداف، وفيما يبتغيه لدنياه وآخرته من اعتقاد وعمل، وفي جميع الأحوال، فإن مَن يفعل خيراً فلن يكفره، سواء في الماضي، أم في الحاضر، أم في المستقبل، وذلك كله يبقى شرطه وقوامه أن لا يعتدي الإنسان على أخيه الإنسان، وأن لا يفتنه عن دينه، فإذا لم يحصل ذلك، فلا يكون ثمة مسوغ للعنف، أو للإكراه في الدين، أو للامتناع عن الدعوة بالحسنى، وإلى الكلمة السواء، سواء في أمور الدين، أم في أمور الدنيا، بهدف إلحاق الأذى والخسران بمن لا يتخذ الهدى سبيلاً والإسلام ديناً، باعتبار أن الله تعالى قد جعل لهذا الدين اصلاً في الكون والخلقة والواقع الحق، وهو بصير بعباده لطيف بهم وقادر عليهم، إن شاء غفر لهم، وإن شاء عذبهم في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

إن الهدف من الحوار أن يهتدي الإنسان إلى سبيل سعادته في الدنيا والآخرة، كما أراد الله تعالى، فإذا لم يهتد الإنسان إلى سبيله، فلا عدوان عليه، ولا اكراه له، إلاّ أن يكون معتدياً وقائماً بالظلم، فحينها يكون رد عدوانه والإعتداد للحيلولة دون ممارسة العدوان حواراً وجهاداً، وقد أمر الله تعالى بذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ...﴾[2]. والحق يقال: إن الله تعالى أراد من إكمال

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٥٦ ـ ٥٧.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

الدين وتمام النعمة ومن الرضا بالإسلام ديناً أن يكون الإنسان في حوار وتعايش مع أخيه الإنسان في الدائرة الإنسانية الكبرى لعله بذلك يتحول عن كونه إنساناً متقوِّماً بالصفات الخاصة، ليكون إنساناً مسلماً متواصلاً مع خط النبوة في تاريخها الديني، كما تواصل الأنبياء والرسل فيما جاؤوا به ودعوا إليه من إيمان وإخلاص في طريق الكدح إلى الله تعالى.

خاتمة: الحوار بين المشروعية والحقانية

هناك فرق كبير بين أن يكون الأمر ـ أي أمر ـ في الدين، أو في الدنيا، مشروعاً، وبين أن يكون حقاً، فالتنافس هو أمر مشروع، ولكنه قد لا يكون تنافساً بالخير، فلا يكون حقاً، وكذلك الحوار، فهو مطلوب ومراد بين الناس للتعارف، والإجتماع على الكلمة السواء، وكما بينا فيما سبق في بحوث هذا الكتاب، أن التنوع أو التعدد هو مشروع أيضاً، ومثلما أن التنافس في الخيرات يحتاج إلى طرفين، فكذلك الحوار يحتاج إلى طرفين أيضاً، لأن الشيء لا يتنافس مع ذاته، والإنسان لا يتحاور مع نفسه، ولهذا، قال الله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ولا شك في أن هذا الخطاب ـ النداء ـ ليس خطاباً مجرداً عن أن يكون له أهداف وغايات. فإذا لم ينته الحوار إلى نهاياته المرجوة، والتي لأجلها جاء هذا الخطاب، فلا يكون خطاباً منتجاً ومؤدياً إلى النتائج التي يريد الله تعالى أن تكون كلمة سواء سبيلاً إليها، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا...﴾[1]. أما إن استقر الأمر عند الكلمة السواء، والحوار عند مستوى اللقاء لمجرد المحاججة، فلا يكون الحوار قد حقق هدفاً أو أنتج حقاً، وإن كان هو في نفسه مشروعاً ولكن يبقى شرط حقانيته أن يصل الحوار إلى ما ارتضاه الله تعالى من دين وحق. وقد سبق لعلماء المسلمين قاطبة، فقهاء وفلاسفة وعلماء كلام أن طرحوا التساؤل الآتي: هل ينظر الإسلام إلى التنوع في المجتمع البشري، سواء التنوع بمعناه التكويني، أم بمعناه التشريعي والعقدي، هل ينظر إليه على أنه مشروع أم لا؟

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

وكانت الإجابة، أنه يجب أن نفرق بين مشروعية الوجود، وبين حقانية الوجود[١]، والحق يقال: إن المسلمين يعتقدون أن كل ما يخالف الإسلام في قليل أو كثير. في عقيدته وشريعته هو ليس حقاً، بل باطل، فالكلام هنا ليس في إعطاء صفة الحق وصفة الواقعية للمختلف، بل في اعطاء صفة المشروعية بمعنى هل يشرع له أن يكون موجوداً، أو لا يشرع له أن يكون موجوداً؟

لقد تبين لنا في سياق ما ذهبنا إليه في شأن التنوع في الوجود، أو في موضوع حوار الأديان من منظور قرآني، أن الإسلام يُعطي شرعية الوجود في العقائد والمذاهب والاتجاهات الفكرية المخالفة له، كما قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، وهذه الشرعية إنما اعطيت بهدف أن يتكامل البشر، بحيث يتسابقون في الخيرات، ويصل كل خلق إلى كماله، وقد يسر الله كل شيء لما خلق له، بمعنى أخر، نقول: إن الشرعية لم تعط لمجرد الشرعية، وإنما ليكون الإنسان مدركاً لطبيعة المهام الموكلة إليه فيما استخلف فيه في الأرض وفيما حمّل من أمانة، فإذا لم يكن هذا الإنسان على مستوى الرسالة والأمانة وحقيقة الاستخلاف، فإنه يكون قد قصّر عن مسؤولياته واستحال أمره إلى خلاف ما خلق لأجله من معرفة وتعارف. وانطلاقاً من

(١) قد يتساءل بعض الباحثين عما نعنيه بالمشروعية والحقانية في مجال التنوع في الخلق والعقائد، فنقول: إن الإسلام بين أن النجاة والفوز المبين إنما يكون بالإسلام والإيمان، هذا على مستوى الرؤية الفقهية، حيث ذهب الفقهاء إلى القول بأن كل شيء ما عدا الإسلام فهو باطل، لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال. أما على مستوى الكلام والفلسفة، فقد يُقال: إن التنوعات كلها حقائق، أو فيها أباطيل وفيها حقائق، لأن علم الكلام يلحظ الغاية في الوجود، ويقسم الكائنات إلى كائنات مختارة، وكائنات غير مختارة، كالسماوات والأرض وسائر ما خلق الله تعالى، وكل ما هو غير مختار في الخلق، فهو، وإن كان له مشروعية الوجود من حيث كونه غير مختار، له حقانية الوجود أيضاً تماماً كما له مشروعية الوجود لأنه لا يملك إرادة أن يكون عاصياً، كما قال الله تعالى في شأن الملائكة: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾. لذا، فإن التساؤل إنما يطال من هو في دائرة الاختيار باعتباره مكلفاً في تنوعه أن يكون هادفاً تماماً كما حال المخلوق غير المختار الذي يقوم بفعليته طوعاً أو كرهاً، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. إن كل مخلوق ميسر لما خلق له، وفيما جعل عليه من تنوع، وقد شاء الله تعالى أن يكون الإنسان خليفة له، وهو ميسر لما خلق له في تنوعه، وبما أنه يملك إرادة الاختيار، وتلقى من ربه كلمات، فلا يسعه إلا أن يكون مستوفياً لشروط حقانية الوجود حتى لا يكون من الخاسرين، وهذا ما يمتاز به الإنسان فيما خص به من تكوين وتشريع عن سائر المخلوقات، وهو مسؤول عن هذا الاختيار طالما أنه حمل الأمانة وقام بأعباء الخلافة... وهذا هو مؤدى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾.

ذلك، نرى أنه لا يمكن للإنسان أن يمنح نفسه شرعية الوجود، وحق الوجود، أو أن يختار في إطار رؤيته الخاصة، لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾. ومثلما أن ظاهر هذه الآية يفيد معنى الخلق والاختيار في مجال النبوة، فكذلك هو يستبطن معنى الخلق والاختيار في ما جعل عليه الإنسان من خلق وتنوع في الخلق والعقيدة وسائر ما هو عليه الإنسان من تفاوت واستعدادات وقدرات تحتم على الإنسان أن يكون كادحاً لتكميل ذاته ومجتمعه وكل ما يحيط به من كون وحياة.

إن تاريخ الأديان شهد صراعات حادة بين أهل الإيمان، وقد تراوح هذا الصراع تاريخياً بين المناظرات الدينية تأكيداً لكل دين أنه الحق دون غيره، وبين الحرب والقتال رفضاً وعناداً، كما حصل مع اليهود في رفضهم لعيسى عليه السلام، ومع المسيحين في رفضهم للنبي محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام، وكما حصل مع المسلمين الذين اختلفوا في دينهم، وتفرقوا شيعاً ومذاهبَ، فكانوا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1].

والحق يقال: إن أهل الإيمان في تاريخهم لم يعقلوا عن الله تعالى فيما أتاهم من رسل ورسالات، ولم يستوعبوا معنى أن يكون لهم شرائع ومناهج ومناسك تؤهلهم ليكونوا على مستوى الدين، الذي هو الإسلام، هذا فضلاً عما أساؤوا فيه إلى حقيقة خلقهم وتنوعهم، فاتخذوا من ذلك وسيلة للتناحر والصدام، بدلاً من أن يكون ذلك سبيلاً إلى الكمال، بحيث يكونوا عباداً لله تعالى، وليس عبيداً لأرباب منافعهم وأحبار مذاهبهم...؟!

نعم، إن الإسلام يُعطي شرعية للأغيار، ويدعوا الناس جميعاً، بما هم عليه من تنوع في الخلق والاعتقاد، إلى التوحد في الإسلام، لأنه الكلمة الكاملة والنهائية في التاريخ الديني، ومن شأن التعارف والتعاون على البر والتقوى أن يؤدي إلى أن

(١) سورة الروم، الآية: ٣٢.

يكون الناس تعبيراً عن فطرتهم وشهادتهم التي كانت منهم في عالم كونهم قبل أن يكونوا، ومصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1]. والتقوى هنا ليست مجرد أن يعي الإنسان حقيقة خلقه، بل أن يتقي الله في علمه وعمله...

إن قولنا بأن الإسلام هو الحق، لا يستوجب حتماً أن يكون الآخرون على باطل فيما لو كانوا مستوعبين لحقيقة الخلق والوجود، وللأهداف الكبرى التي خلقوا من أجلها، فالناس جعلوا على هذا التنوع، ودعوا إلى الحوار والتعاون والتعارف لا لأجل أن يستقل كل فريق عن الآخر، وكل دين عن الآخر، وإنما لأجل التعارف واستيعاب مشروعية وجودهم في سبيل الحق، فإذا لم تؤدِّ بهم هذه المشروعية إلى الحق والتكامل، فلا بد أن يتحقق الخسران بحقهم، وهذا ما تم التركيز عليه في مبحث الحوار والخسران في القرآن، حيث رأينا أن الإنسان له قيمة وشرعية الوجود فيما جعل عليه من دين وشريعة، ولكن لكي يحقق الهدف المنشود، ويصل إلى الغاية من وجوده، فلا يسعه إلاّ أن يكون مسلماً، كما كان كل الأنبياء والرسل بحيث يتحقق له تواصله مع الأخرين، ليكون له معنى الإسلام ديناً ودنيا، وبذلك يمكن للإنسان أن يكتسب شرعية الحق، كما اكتسب مشروعية الوجود. أما أن يستقل بنفسه، وفيما اختاره من دين وشريعة، اعتقاداً منه بشرعية ما يراه حقاً وديناً وشريعة، فذلك مما يعتبره الإسلام تحزباً وقولاً بغير علم. كما زعم الكثيرون من أهل الكتاب وغيرهم ممن لا يدينون دين الحق، وقد بين تعالى أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكن منحهم شرعية الوجود والتنوع، وخلقهم للتراحم فيما بينهم بحيث يؤدون عنه ما أمرهم به ونهاهم عنه للفوز في الدنيا والآخرة، ولإيصال البشر جميعاً إلى مستوى العبودية الحقة، وقد أثبتت التجارب البشرية والدينية على وجه الخصوص، أن أهل الإيمان فيما اعتمدوه من وسائل، وسعوا إليه من أهداف، ولجأوا إليه من نزاعات

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

وحروب بهدف إظهار شرعية وجودهم ودينهم في مقابل الآخرين، لم يفلحوا في شيء من ذلك، وكانت النتيجة تحولهم من كونهم أهل الحق دون سواهم، ليكونوا على تعاون أو تعارض، وفي أحيان كثيرة على اعتراف بالآخر، وهذا ما ساعد كثيراً على بلورة مفاهيم جديدة سبق للأديان أن عبرت عنها، ولكن سوء الفهم، والاستبداد بالرأي، ومخالفة الأنبياء، كل ذلك كان مانعاً من التعقل عن الله تعالى ورسله وأنبيائه، وهذا ما يؤسف له ويعجب منه إنهم عقلوا عن التجربة، ولم يعقلوا عن أمر الله ونهيه، بعد أن تسوروا المحراب، وتجاوزوا دعوة الله تعالى لهم في أن يكونوا أخوة في الإنسانية، إن لم يكونوا أخوة في الدين، كما قال الإمام علي: «**الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق**».

غاية القول: إن الحوار بين الأديان، في ظل الإسلام، وبوحي منه، له أهداف، وقد من الله تعالى على الإنسان فيما جعله عليه من تمايز في الخلق والوجود، وسخر له السموات والأرض، وجعل له الأرض ذلولاً، وحبب إليه الإيمان، وكره إليه الفسوق والعصيان، ودعاه إلى دينه وشريعته لعله بذلك يستطيع تجاوز عقبات الحياة، وإيحاءات الشيطان، وملاذ الدنيا وشهواتها، فيتخذ من دين الله تعالى أساساً لرؤيته وحركته لتحقيق تكامله، فإذا لم يكن على مستوى الوعي بالرسل والرسالات، وما تواتر من أنبياء وأئمة يهدون إلى الحق، وإذا لم يتعرّف إلى حقيقة ما جعل عليه من مشروعية فيما قصد به من تنوع في ذات نفسه وفي واقعه، فإنه لن تكون له حقانية الوجود التي خصّها الله بالإسلام والإيمان، باعتباره دين الله تعالى: كما قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[1]. وليس معنى أن يكون الإنسان متحققاً بمشروعية الوجود، أن تكون له حقانية الوجود، لقوله تعالى:

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[١]، وكما بيّن الفقهاء أن خسارته في الآخرة، فيما لو تحققت فهي متنوعة أيضاً بما يخص به كل إنسان من امتياز في ضوء ما كان عليه في دنياه، وما اكتسبه من أعمال، وما ابتغاه من دين وشريعة، لأن الله ليس بظلام للعبيد، ومن يفعل خيراً فلن يكفره. وهكذا، فإن الحوار في الأديان له هذا المعنى، أن يتحول الإنسان وفاقاً لأمر الله ونهيه، وأن لا يستقر به الحوار حيث تميز في وجوده واعتقاده، بل عليه أن يتابع الخطى في طريق الله تعالى ليكون من الشاهدين مع الذين أسلموا لله رب العالمين، كما قال الله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢].

والحمد لله ربّ العالمين

أنجز هذا الكتاب يوم شهادة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام الواقع في اليوم الأخير من صفر / ١٤٣٥ هـ.

الشيخ عارف هنديجاني فرد

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٣١.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- نهج البلاغة.
- ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، دار الأندلس، (لا تاريخ).
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، مصر، (لا ت).
- ابن هشام، تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، دمشق، (لا تاريخ).
- أديب صعب، المقدمة في فلسفة الدين، دار النهار، بيروت، ١٩٩٤م.
- الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، (لا ت).
- الآملي، جوادي، ولاية الإنسان في القرآن، دار الصفوة، بيروت، ١٩٩٣م.
- الآملي، جوادي، ولاية الفقيه، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٣م.
- الإيرواني، باقر، تفسير آيات الأحكام، قم، ١٤٢٨هـ.
- البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٢م.
- الحكيم، محمد باقر، علوم القرآن، مؤسسة الهادي، قم، ١٤١٩هـ.
- الخراساني، محمد عدلي كاظم، فوائد الأصول، تقريرات الميرزا النائيني،

مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٩هـ.

- الخميني، روح الله، مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٩٦م.
- الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٤م.
- الدامغاني، الحسين بن محمد، قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م.
- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، تفسير الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م.
- الشيرازي، صدر الدين، المبدأ والمعاد، دار المصطفى، قم، ١٩٩٩م.
- الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل في كتاب الله المنزل، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٧م.
- الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٣م.
- الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩١م.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٥هـ.
- الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، دار الوفاء، بيروت، (لا ت).
- الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، مكتبة الإعلام الإسلامي، قم، (لا.ت).
- الغديري، عيسى إبراهيم، القاموس الجامع للمصطلحات الفقهية، دار المحجة

البيضاء، ١٩٩٨م.

- الفارابي، أبو نصر، آراء أهل المدينة الفاضلة، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.
- الفضلي، عبد الهادي، أصول البحث العلمي، دار المؤرخ العربي، ١٩٩٢م.
- الفضلي، عبد الهادي، مدخل إلى علم الكلام، دار الوفاء، بيروت، ١٩٩٩م.
- الفيض الكاشاني، محسن بن مرتضى، نوادر الأخبار فيما يتعلق بأصول الدين، مؤسسة مطالعات، قم، ١٣٧٤هـ.ش.
- الكتاب المقدس، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٨م.
- المازندراني، محمد بن علي بن شهر آشوب، متشابه القرآن ومختلفه، انتشارات بيدار، قم، ١٤١٠هـ.
- المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة: ١٩٩٩م.
- المظفر، محمد رضا، أصول الفقه، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٠م.
- النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، (لا.ت).
- اليزدي، محمد تقي المصباح، الإيديولوجية المقارنة، ترجمة الخاقاني عبد المنعم، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٩٩٢م.
- اليزدي، محمد تقي المصباح، العقيدة الإسلامية، دار الحق، بيروت، ١٩٩٣م.
- اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، تعريب محمد عبد المنعم الخاقاني، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٨٣م.

- إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، عالم المعرفة، عدد ١٨٣.
- بسام مرتضى، المسيح بين الإنجيل والقرآن، دار الحق، بيروت، ١٩٩٤م.
- جمال الدين المقداد، السيوري، كنز العرفان في تفسير القرآن، قم، ١٣٨٠هـ.
- جورج خضر، العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءة في الراهن والمستقبل، مركز الدراسات الاستراتجية، بيروت، ١٩٩٤م.
- جورج قرم، تعدد الأديان وأنظمة الحكم، دار النهار، بيروت، ١٩٩٢م.
- جعيّط، هشام، الفتنة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٥م.
- ديورانت، ول، قصة الحضارة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م.
- سبحاني، جعفر، سيد المرسلين، دار البيان العربي، بيروت، ١٩٩٢م.
- سليم بسترس، كيرلس، الإسلام والمسيحية، مركز الدراسات الاستراتيجية بيروت، ١٩٩٤م.
- شريف هاشم، الإسلام والمسيحية، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٢م.
- شلبي، أحمد، مقارنة الأديان، اليهودية المسيحية، مكتبة النهضة المصرية، ط١٢، لا تاريخ.
- شمس الدين، محمد مهدي، الإسلام والغرب، مؤسسة الإمام شمس الدين، بيروت، ٢٠٠٤م.
- شمس الدين، محمد مهدي، بين الجاهلية والإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٨٣م.

- شمس الدين، محمد مهدي، في الاجتماع السياسي الإسلامي، المؤسسة الدولية للنشر، بيروت، ١٩٩٩م.
- عمار بوحوش، مناهج البحث العلمي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٩م.
- غارودي، روجيه، الأصوليات المعاصرة، دار الفيحاء، باريس، ١٩٩٢م.
- فوكوياما، فرنسيس، نهاية التاريخ. ترجمة حسين الشيخ، دار العلوم العربية، بيروت، ١٩٩٤م.
- كاظم محمدي، محمد دشتي، المعجم المفهرس لإلفاظ نهج البلاغة، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٦م.
- محمود بن شريف، اليهود في القرآن، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦م.
- مصطفى، مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، دار القلم، دمشق، ١٩٩٩م.
- مطهري، مرتضى، الإسلام وإيران، عطاء وإسهام، دار الحق، بيروت، ١٩٩٣م.
- مطهري، مرتضى، الإنسان في القرآن، دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٩٣م.
- مطهري، مرتضى، الإنسان والإيمان، دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٨٥م.
- مطهري، مرتضى، التوحيد، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٩م.
- مطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، دار الهدى، بيروت، ١٩٩٦م.
- مطهري، مرتضى، المفهوم التوحيدي للعالم، دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٨٥م.
- مطهري، مرتضى، الهدف السامي، مكتبة الفقيه، الكتب، ١٩٨٦م.

- مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩١م.
- مغنية، محمد جواد، فقه الإمام الصادق، دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٨٤م.
- مناهج التفسير، جمعية القرآن الكريم، لبنان، ٢٠١٢م.
- موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة، دار الأفكار، بيروت، ١٩٩١م.
- هانتغتون، صموئيل، الإسلام والغرب، آفاق الصدام، ترجمة مجدي شرشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م.
- هويدي، فهمي، العلاقات الإسلامية المسيحية، مركز الدراسات الاستراتجية، الحوار كما يراه علماء الأزهر، بيروت، ١٩٩٤م.
- هيغل، الموسوعة، موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٣م.
- ولتر ستيس، الدين والعقل الحديث، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، للقاهرة، ١٩٩٨م.

الفهرس

الإهداء ٥

المقدمة ٧

الفصل الأول: الإنسان في القرآن ١٥

تمهيد الفصل ١٧

أولاً: الإنسان الخليفة! ١٩

أ. الخلافة والعلم ٢٣

ب. الخلافة والكمال الإنساني: ٢٧

ثانياً: القرآن والحوار ٣٥

أ. الدين والحوار ٣٨

ب. القرآن ومنطق الحوار ٤٤

ثالثاً: الأديان وأصول الإيمان ٥٠

أ. القرآن وأصول الإيمان ٥٣

ب. الأصول الإيمانية في التجربة التاريخية ٦٠

خلاصة البحث ٦٩

الفصل الثاني: أصالة الحوار وعالميّة الإسلام ٧٣

تمهيد الفصل ٧٥

أولا: أصالة الحوار وعالمية الإسلام ٧٨

ب. العالمية والتبشير: ٩٥

ثانياً: الحوار في مجال العقيدة ١٠٣

أ. التنوّع في العقيدة: ١٠٦

ب. حوار العقيدة وتواصل الأديان: ١١١

ثالثاً: الحوار في مجال التشريع والأخلاق ١١٧

خاتمة الفصل: حوار الوصايا والأخلاق ١٣٤
الفصل الثالث: حوار الأديان في القرآن ١٣٩
أولاً: المنهج القويم وثوابت الحوار ١٤١
ثانياً: أهل الكتاب في القرآن ١٤٧
أ. حوار القرآن مع اليهود: ١٥٢
ب. حوار القرآن مع أهل الكتاب: ١٦٢
خلاصة واستنتاج ١٧٥
ثالثاً: حوار القرآن ومنطق التكفير ١٨٢
أ. الحوار والقتال في القرآن: ١٨٦
ب. الحوار والخسران في القرآن ١٩٧
خاتمة: الحوار بين المشروعية والحقانية ٢١٠
المصادر والمراجع ٢١٧
الفهرس ٢٢٣